موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية
www.coptology.org

# حِكمة الآباء المصريين

## أوراقٌ مُختارةٌ مِنْ مَخطُوطِ لِلعَالِمِ الرّاهِب

## سِمعَانْ بِنْ كَلِيلْ

تحقيق

دكتور جورج حبيب بباوي

# حكمة الآباء المصريين

## أوراق مختارة من مخطوط

## للعالم الراهب سمعان بن كليل

## من علماء القرن الثاني عشر

تحقيـــــق

دكتور/ **جورج حبيب بباوي**

٢٠٢٥

**اســـم الكتـــاب** : حكمة الآباء المصريين،
أوراق مختارة من مخطوط للعالم الراهب سمعان بن كليل
**تحقيـــــــــق** : د. جورج حبيب بباوي
**المطبعـــــــــة** : جذور للترجمة والنشر والتوزيع
١٤ ش محمود حافظ ـ ميدان سفير ـ مصر الجديدة ت: ٢٧٧٩٦١٣٧
**رقم الايداع بدار الكتب** : ٢٠٢٤/٣٢٥٤٤م
**الترقيـم الدولـــي** : 978-977-5086-83-9

# جدول المحتويات

**تقديم** ..... **١٣**

**الباب الأول**

الرأس الأول

**مداومة قراءة أسفار الحكمة، وملازَمة البيعة المقدسة** ..... **١٩**

الرأس الثاني

**من أجل صعوبة الأيام، وفيها شرحُ الأمانة المقدسة** ..... **٢٣**

الرأس الثالث

**في أن صعوبة الأيام لا تنال من الأمانة التي نتلوها في البيعة** ..... **٢٩**

الرأس الرابع

**إذا لم تجد حكمةً لدى الشيوخ، تعلَّم من سقوطِهم** ..... **٣٧**

الرأس الخامس

**دوام نعمة المعمودية المقدسة حميم الميلاد الجديد** ..... **٤٣**

الرأس السادس

**حضور البيعة والاشتراك في الذبيحة السمائية لنكون في رفقة السمائيين** ..... **٤٩**

الرأس السابع

**كيف نستعد روحانيًّا حسب الشريعة السماوية؟** ..... **٥٩**

**الباب الثاني**

الرأس الأول

**في أن البيعة هي جسد المسيح الواحد** ........ **٦٧**

الرأس الثاني

**كيف نميِّز الخُدَّام الساقطين؟** ........ **٧٥**

**الباب الثالث**

**شرح القداس الإلهي**

**لآباء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية المنسوب لسمعان بن كليل**

الفصل الأول

**العشية، وهي بداية اليوم الجديد** ........ **٩١**
التذاكيات ومديح والدة الإله ........ ٩٣
عبور البحر الأحمر مع المسيح ........ ٩٥
الإبصاليات ........ ٩٧

الفصل الثاني

**باكر، وهو سَحَر قيامة ربنا يسوع المسيح** ........ **٩٩**
الأواشي تخوم البيعة ........ ١٠٠

الفصل الثالث

**البخور رائحة حياة الابن الوحيد** ........ **١٠٣**

الفصل الرابع

**كيف تقدِّس طقوس البيعة حواس الجسد؟** ........ **١٠٩**

الفصل الخامس

**درجات الارتفاع العقلي نحو الرؤية السماوية** ..... **١١٧**

القيام بكلمة الله ..... ١١٨

الشاكيناه (سحابة المجد الإلهي) قبل قراءة الإنجيل ..... ١١٨

الفصل السادس

**الأواشي بعد الإنجيل** ..... **١١٩**

الفصل السابع

**صلاة الصلح** ..... **١٢١**

أيها الجلوس قفوا ..... ١٢٢

الفصل الثامن

**أساس الخلاص** ..... **١٢٣**

الفصل التاسع

**التقديس** ..... **١٢٥**

الفصل العاشر

**استدعاء الروح القدس** ..... **١٢٧**

الفصل الحادي عشر

**ميراث المسيح** ..... **١٢٩**

الفصل الثاني عشر

**رتبة القسمة المقدسة** ..... **١٣١**

الفصل الثالث عشر

**التسليم الذي لا يُقال جهرًا** ..... **١٣٣**

**الباب الرابع**

**معاني رشم الصليب في الحياة الروحية،**

**وطقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية**

الفصل الأول

**كيف تجعلنا طقوس البيعة مسيحيين؟ (مقدمة كتاب حكمة الآباء المصريين)** ..... **١٣٧**

الفصل الثاني

**شرح رشم الصليب** ..... **١٤١**

الصليب هو جوهر الإيمان ..... ١٤٢

الفصل الثالث

**شرح رشم الصليب في سر المعمودية** ..... **١٤٥**

مسحة الموعوظين ..... ١٤٧

مسحة الميرون ..... ١٤٨

الفصل الرابع

**لماذا نرشم الصليب عندما نقول: "يا رب ارحم"؟** ..... **١٥١**

الفصل الخامس

**شرح رشم الصليب عند قولنا: "قدوس"** ..... **١٥٣**

الفصل السادس

**رشم الصليب وموت المسيح وقيامته** ..... **١٥٥**

الفصل السابع

**الصليب شجرة الحياة** ..... **١٥٧**

الفصل الثامن

**الصليب وتمجيد الثالوث** ..... **١٥٩**

لماذا يرشم الكاهن الشعب عندما يقول: "السلام لجميعكم"؟ ..... ١٥٩

الفصل التاسع

**رشم الصليب ومسحة المرضى** ..... **١٦١**

الفصل العاشر

**رشم الصليب في سر الزيجة** ..... **١٦٣**

الأكاليل تُعقد أيام الآحاد ..... ١٦٧

الرشم بزيت الزيتون، ومعنى مسحة الإكليل ..... ١٦٧

رشم الصليب والروح القدس ..... ١٦٨

رشم الأكاليل بعلامة الصليب ..... ١٦٩

البركة الأخيرة ..... ١٦٩

التناول بعد صلاة الإكليل ..... ١٧٠

الفصل الحادي عشر

**رشم الصليب، وهو بهاء الابن الوحيد في القُدَّاس الإلهي** ..... **١٧١**

المعمودية والميرون سر دخولنا إلى القداس ..... ١٧١

الصليب والقيامة قوة حياة ..... ١٧١

"مات" تعني أيضًا "قام" ١٧٢
نُمسح لأننا هيكل الله ١٧٢
المسحة للروح والجسد ١٧٣
المسيح مُسح قبل موته لأنه وحده المستحق ١٧٣
المسيح هو هيكل الله الحي الذي فيه حلَّ ملء اللاهوت ١٧٤
لماذا نبدأ كل قول وفعل باسم الثالوث؟ ١٧٤
رشم الصليب "في تقدمة الحمل" ١٧٥
النعمة غير المخلوقة ١٧٥
شرح الرشومات الثلاثة ١٧٥
شرح مرد الشماس ١٧٦
شرح المجد للآب والابن والروح القدس ١٧٧
رشمٌ بعد تقدمة الحمل ١٧٧
رشمٌ أثناء صلاة الشكر ١٧٨
وعن هذه المائدة ١٧٨
حاشية ١٧٩
رشومات أوشية التقدمة ١٧٩
رشومات تحليل الخدام ١٨٠
الطواف حول المذبح بالبشارة والصليب ١٨١
رشم الصليب في قدوس الله ١٨٣
رشم الصليب قبل وبعد قراءة الإنجيل ١٨٣
رشم الصليب في الأواشي بعد الإنجيل ١٨٤
رشم الصليب في أوشية الاجتماعات ١٨٥
التبخير نحو الغرب ١٨٨

الفصل الثاني عشر

**قانون الإيمان** ..... **١٨٩**
حكمة الإيمان الرسولي ..... ١٨٩
الأمانة وعلامة الصليب ..... ١٨٩

الفصل الثالث عشر

**صلاة الصلح** ..... **١٩١**
المصالحة وعلامة الصليب ..... ١٩١
شرحٌ آخر ..... ١٩٢
القبلة السماوية ..... ١٩٢
شرحٌ آخر قديم ..... ١٩٢

الفصل الرابع عشر

**الأنافورا، أو قداس المؤمنين** ..... **١٩٥**
ارفعوا قلوبكم ..... ١٩٥
فلنشكر الرب ..... ١٩٦
مستحقٌ وعادل ..... ١٩٧
شرحٌ آخر قديم ..... ١٩٨
أسرار الخلق والخلاص ..... ١٩٨
الرب الكاين في كل حين ..... ١٩٩
تسبحة السمائيين ..... ٢٠٠
ننصت ..... ٢٠٠
شرحٌ آخر قديم ..... ٢٠٠
قدوس ..... ٢٠١

الشرح الطقسي ..... ٢٠١
شرحٌ قديم ..... ٢٠٣
تجسَّد وتأنَّس ..... ٢٠٣
البخور رائحة حياة الابن المتجسِّد ..... ٢٠٤
ووضع لنا هذا السر العظيم ..... ٢٠٤
وشَكَرَ ..... ٢٠٥
وباركه ..... ٢٠٦
وقدَّسه ..... ٢٠٦
الكأس ..... ٢٠٧
شرحٌ آخر قديم ..... ٢٠٧

الفصل الخامس عشر

**استدعاء الروح القدس ..... ٢٠٩**
رشومات التقديس ..... ٢٠٩
استحقاق التناول ..... ٢١٠
الأواشي ..... ٢١٠
المجمع ..... ٢١١
البخور بعد المجمع ..... ٢١٢
شرحٌ آخر قديم ..... ٢١٢
السلام لجميعكم بلا رشم ..... ٢١٣

الفصل السادس عشر

**تقدمة القسمة ..... ٢١٥**
مقدمة تاريخية ..... ٢١٥

-١-

**المصادر التاريخية السريانية ..... ٢١٦**

-٢-

**ما استقر في المصادر العربية القبطية ..... ٢١٩**

الحواشي على خولاجي الأنبا بطرس أسقف بابليون ..... ٢١٩

-٣-

**القربانة، وتقسيم جسد ربنا يسوع المسيح لابن المكين ..... ٢٢١**

-٤-

**تقسيم الجسد في الطقس الحبشي ..... ٢٢٢**

-٥-

**"القسمة" بحسب كتاب حكمة الآباء المصريين ..... ٢٢٣**

الفصل السابع عشر

**سِرُّ الكهنوت، وهو خادم جميع الأسرار ..... ٢٢٥**

إقامة الذياكون ..... ٢٢٦

إقامة القس ..... ٢٢٧

# تقديم

"كتاب حكمة الآباء المصريين من مدونات القرن الثاني عشر، ويُعتَبَر من أنفس كُتب الحكمة التي عرفتها الكنيسة القبطية في تاريخها الطويل. وقد لازم سوءُ الحظ هذا الكتاب لأنه كان يُنسخ فقط للأساقفة والقسوس، وبمضي الزمان كاد أن يُنسى، ثم أُدرِج ضمن كُتب الطب القديمة لسببٍ جوهري، ألا وهو أن الكتاب احتوى في نهايته فصلًا عن استخدام الأعشاب لعلاج أمراض الجسد، وهو في بعض المخطوطات الرأس الثامن عشر، ويبدو أن هذا كان هو السبب الذي أدَّى في النهاية إلى اختفاء الكتاب تمامًا.

في مخطوطةٍ واحدة من مخطوطات الكتاب عثرنا على اسم الراهب سمعان بن كليل أحد رهبان يحنس القصير، وهو أحد علماء القرن الثاني عشر، وربما كان هذا الراهب هو المؤلِّف. على أيةِ حالٍ، يغطي تاريخ الكتاب ظلامٌ كثيف، وشاع عنه أنه كتابٌ يُعلِّم المكر ولا يُعلِّم المحبة، ويبدو أن هذا أيضًا -وهو ليس صحيحًا بالمرة- كان أحد أسباب اختفاء الكتاب وعدم شهرته، في حين أن الكتاب يضع المعرفة كأحد دعائم الحياة الروحية.

والقسم الأول منه يحتوي على شرحٍ عقيديٍّ دقيقٍ، من خلاله نستطيع أن نتعرَّف على النكبات التي حلَّت بالكنيسة في هذا الزمان، ويرى الكاتب حقيقة النكبة التي حلَّت بالكنيسة من خلال فهمه العميق للعقيدة.

ويتضمن القسم الثاني شرحًا موجزًا للطقوس الكنسية.

ويتضمن القسم الثالث نصائح حكمة للذين يعملون بالتجارة وبالزراعة والصناعة، ثم آدابًا عامة عن النظرة إلى الخير والشر والخصومة والعداوة في المجتمع.

فهو بشكلٍ عام يُعد نظرةً شاملةً للمسيحية وللكنيسة وللمجتمع، ليت الله الذي أعطى هذا الكنز النفيس للكنيسة أن يمنحنا أن نستفيد منه على قدر طاقتنا وفهمنا".

ما سبق كان التقديم الذي كتبه الدكتور جورج بباوي تمهيدًا لنشر المخطوط، الذي لظروف لا نعلمها لم يتم نشره حتى تاريخه، ولكن لما رأينا أن الدكتور جورج كان قد استعان بأجزاءٍ معتَبَرة من المخطوط في كتابه "القداس الإلهي، تعليقات وتفاسير لكثير من أقوال الآباء"[١]. وأيضًا في كتابه "معاني رشم الصليب في الحياة الروحية وطقوس الكنيسة القبطية"[٢]. كما استعان به أيضًا في كتابه "المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي"[٣]. وأشار إليه بإعجاب في الكثير من محاضراته المنشورة على موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية، وكنا قد عثرنا على ٥٤ ورقة نقلها الدكتور جورج بخط يده من المخطوطة، أسبقها بالمقدمة التي أشرنا إليها بعاليه إعدادًا للنشر، ونظرًا للأهمية الشديدة التي شعرنا بها مما تضمنه الكتاب في مختلف أبوابه لحياتنا الروحية كمسيحيين، رأت أسرة الموقع أن تجمع الأجزاء التي تم الاستعانة بها في الكتب المشار إليها، بالإضافة إلى الأوراق التي نقلها الدكتور جورج بخط يده، ونشرها في كتاب مستقل لتكتمل الفائدة من الموضوعات التي تعرَّض لها المؤلف.

بقي أن نقول إننا لا نعرف ما إذا كان ما تضمنه هذا الكتاب هو بعض أو كل المخطوط، لذا وحرصًا على الأمانة العلمية عنونا الكتاب "حكمة الآباء

---

(١) راجع، د. جورج حبيب بباوي، القداس الإلهي، تعليقات وتفاسير لكثير من أقوال الآباء، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٣.

(٢) راجع، د. جورج حبيب بباوي، معاني رشم الصليب في الحياة الروحية وطقوس الكنيسة القبطية، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٦.

(٣) راجع، د. جورج حبيب بباوي، المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٢.

المصريين، أوراق مختارة للعالم الراهب سمعان بن كليل من علماء القرن الثاني عشر".

ونظرًا لأن الرأس الأول من الباب الأول لم يكن له عنوان، فوضعنا له عنوانًا: "مداومة قراءة أسفار الحكمة، وملازَمة البيعة المقدسة".

نطلب من رب المجد يسوع المسيح مخلصنا الصالح أن يعطي أعضاء جسده حكمةً وفهمًا لنحيا كما يحق للدعوة التي دُعينا إليها بفعل روحه القدوس ومسرة أبيه الصالح، ونضع بين يدي الثالوث القدوس إلهنا الصالح هذه الصفحات لتأتي بالثمار المطلوبة ثلاثين وستين ومائة بشفاعة أُمنا كلية الطهر والدة الإله القديسة العذراء مريم، ولله الآب والابن والروح القدس المجد والكرامة والعزة في كنيسته من الآن وإلى الأبد آمين.

**أسرة موقع الدراسات القبطية والأرثوذكسية**

تذكار استشهاد القديس العظيم مار مينا العجائبي

٢٥ نوفمبر ٢٠٢٤م - ١٥ هاتور ١٧٤١ش

# الباب الأول

الرأس الأول

# مداومة قراءة أسفار الحكمة، وملازَمة البيعة المقدسة

اعلم أيها القارئ الحبيب متَّعك الله بشمائل الحكمة وفضائل المحبة، أنك لن تقتنِ الحكمةَ إذا لم تدرس الأسفار الإلهية، فهي أنفاس الحكمة الإلهية. وإذا لم تتعمق في دراسة حكمة الله التي أنعم بها على الإنسانية، فإن كل ما يُقال عن الحكمة لن ينفعك بشيء، ولو وُضِعَ في كأسٍ وشربته، فالحكمة لا تسكن في بطن الإنسان، ولكنها تسكن في عقله، ذلك القبس من النور الإلهي الذي قال عنه يوحنا الإنجيلي: "كان هو النور الذي ينير لكل إنسان آتيًا إلى العالم". فإذا استنرتَ بنورِ الكلمة الابن الوحيد وبنورِ موته وقيامته، وبالمثال الحكيم الذي أظهره في تجسده عندما تأنس وسكن بيننا، إذا لم تستنِر بهذا النور، فإن دروس الحكمة لا تنفع بل تضرك وتجعلك قادرًا على استخدام الحكمة لاختراع كافة الشرور، ليس لأن الحكمة تُعلِّم الإنسان الشر، ولكن لأن فاقدي المحبة وغير حافظي الوصايا لا يستنيرون بحياة الطاعة، فتظلَّمُ قلوبهم، وتتحول الحكمة السماوية إلى قدرة عقلية فائقة تجعلهم يتفننون ويخترعون الشرور الكثيرة.

فالإنسان الأول آدم الذي خُلق على مثال وشِبه الله، ضُرِبَ أولًا ضربةً روحيةً هائلةً لقدراته العقلية، فاظلمَّت النفسُ، والجسد ساد عليه الموت، فبدءُ الشرِّ في الإنسان هو الفكر، ونهاية الشرِّ في الإنسان هو أن يجني مرارة عدم نجاح مشورته.

لذلك، لازِم البيعة المقدسة لكي تُشفَ طبيعتُك من الضربةِ الأولى، واقرأ أسفارَ الله لكي تستطيع أن تدرك كيف تعود إليه تائبًا، فتنال من عنده الشفاء والحياة، وداوم على الأكل من شجرة الحياة لأنك كلَّما أكلتَ منها ازدادت فيك الأشواق إلى الأبديات، **فالذي يتذوَّق سِرَّ جسد الرب المقدس ودمه الكريم لا يعود مواطنًا للأرض ترابيًّا من التراب، وإنما مواطنٌ للسماء سماويٌّ مثل آدم الثاني الرب من السماء**، ومتى حلَّت فيك الحياةُ السماويةُ واستنرتَ بنور الحياة، تهيَّأ قلبُك كوعاءٍ جديدٍ لأنْ تُلقِ فيه مياهُ الحكمة ويحفظها وتزداد إلى أن تطرد الظلام والجهل، فالحياة تسبق كل أنواع المعرفة، لأن مَن يحيا يتعلَّم ويفهم، أما مَن يمت، فإن المعرفةَ والفهمَ يموتان بموته.

لذلك، داوم على قراءة أسفار الحكمة، ليس فقط الأنبياء، بل اسهر على سفر ابن سيراخ لأنه دواءٌ للجُهَّال ونورٌ للذين يعيشون في ظلام، واحفظ الجامعة والأمثال وحكمة الحكيم سليمان، واقرأ أسفار التاريخ لتتعلم كيف سلَكَ الذين يخافون الله، وكيف واجهوا الضيقات، وكيف غلب الرجاءُ الأحزانَ والآلام التي عندهم، فلم يفزعوا ولم يخافوا بل أحبُّوا الله وسلكوا في طريق وصاياه.

ومتى قرأتَ أسفارَ الحكمةِ، فأبحث عن الحكماء بين الشيوخ، فليس كلُّ متقدِّمٍ في الأيام بحكيم، ولكن الذين عاشوا في خشية الله وتقدَّمت بهم الأيام فتعلَّموا من الآلام ومن التجارب وجعلتهم قادرين على تمييز معاني كلمات الله، هؤلاء صاروا قِلَّةً في زماننا، لأن الناس تطمع في الربح القبيح وفي جمع الأموال وفي الجلوس في الأسواق في أُبَّهَةٍ، هؤلاء لم يقتنوا حتى الحكمة التي تمكِّنُهم من جمع الأموال بالخير وانفاقه على الخير، فلا تغتَرَ بنجاح هؤلاء، ولا تستمع لمشورة الشيوخ ولو كانوا متقدمين في الأيام إلَّا بعد أن تتمهر في كلمة الله، وتقتني حُسن الحسِّ (في مخطوطةٍ أخرى: وتقتني الحسَّ الحَسِن)

لتعليم الأنبياء والرسل القديسين، فتسمع الكلمات التي يقولها الشيوخ، لا سيما في البيعة المقدسة، وتقتني الفطنة التي تجعلك تميِّز الحياة والموت في أحاديثهم.

لقد قيل: يا بُنيَ لا ترفض تأديب أبيك ولا تستهن بشريعة أمك، وتأديب الآب السماوي هو الذي ينمينا في الحكمة، أمَّا شريعة الأم البيعة المقدسة، فهي التي تحفظ لنا كرامة البنوة.

لأجل ذلك كتبنا قلب الحكمة، أي جوهرها، وجمعناه من كلمات الله وكلمات الأنبياء والرسل القديسين وضبطنا معانيها على سيرة وحياة ربنا يسوع المسيح الذي أعلن لنا الحكمةَ، ووهبنا لا أن نتعلم كلماتِ حياةٍ فقط، بل أن نرى الحياةَ بذاتها، ولذلك وضعنا كل فصل من الفصول تحت عنوان مناسب، واستخدمنا كلمة رأس، لأننا ندرك أن الرأس أي البداية أو الأصل هي مفتاح الحياة كله. كما قيل إن رأس الحكمة مخافة الرب، ولذلك وضعنا رؤوسًا كثيرةً، وهي كلها في حقيقتها رأسٌ واحدٌ، هي الحكمة، أو الرأس الذي منه تنمو جميع أعضاء الجسد، أي البيعة المقدسة، **فمُد يدُكَ وكُلْ من ثمرة الحكمة لكي تعيش حياة مخافة الرب**، وتسلكُ بفطنةٍ بين الناس، فتقتني معهم السلامة والطمأنينة، وتصبح المنارة الكائنة أمام الناس.

الرأس الثاني

# من أجل صعوبة الأيام،
# وفيها شرحُ الأمانة المقدسة

لا ترتعب إذا رأيتَ البيعةَ تُهدم، ولا تَخَف إذا رأيت الأتقياءَ يُقتَلون ويُضطَّهدون. فلقد صدق لسانُ العطرِ بولس الرسول وقال: "وجميع الذين يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيح يسوع يُضطَّهدون" (٢ تيمو ٣: ١٢). وقال أيضًا: "قد وُهِبَ لكم في المسيح يسوع لا أن تؤمنوا به فقط بل أن تتألموا لأجل اسمه" (فيلبي ١: ٢٩).

وليس غريبًا ما يحدث لنا، وإن فاتك هذا الإنذار فقد فاتك رؤية الحقيقة الواضحة، فاضطهادُ الأتقياء هو نعمةٌ من الله لكي يمتحن إيمانهم، وهو أثمن من الذهب والفضة اللذين يُمحَّصان بالنار، فإن كانت هذه المعادن الفانية تُمتحن وتُمحَّص لكي تنال بريق المعادن اللامعة، فلماذا تستغرب إذا مُحِّصَ الإيمان وفُحِصَ ولو بالنار لكي ينال بهاء مجد الابن الوحيد؟ ولقد قال رسول الختان "لا تستغربوا البلاوي الحارقة التي تصيبكم كأنما أصابكم أمرٌ غيرُ مألوف" (١بط ٤: ١٢). وبذلك حذَّرنا من أن نندهش ونتعدَّى بدهشتنا تُخم الإيمان، فنُصابُ باليأس أو بصِغَرِ النفس، فالذين يؤمنون ولا يتألمون هؤلاء لا ينالون بهاء الابن الوحيد، والذين اصطبغوا في المعمودية قد اصطبغوا لموته، فأيُّ شيءٍ غريبٍ إن ساقهم الحنفاءُ للموت وضايقوهم في رزقهم وهدموا كنائسهم وقتلوا وسَبُوا واعتدوا؟

إن الذين اصطبغوا في المعمودية للموت لا يجب أن يخلعوا ثوب

المعمودية بالدهشةِ من الأذى الذي يصيبهم. وإن كنتَ قد حملتَ في أعضاء جسدك رشمَ الميرون المقدس، فما هو الغريب إذا مَدَّ الحنفاءُ السيوفَ وقطعوا ذلك العضو أو هذا. وكلُّ عضوٍ فيك يحملُ علامةَ الصليب المحيي، هو عضوٌ مقدَّمٌ للذبح أو للقطع. وأنت يا مَن مُسِحتَ قد صرتَ ملِكًا وكاهنًا ونبيًّا. ملِكًا، لأنك تملك الحياة العتيدة. وكاهنًا، لأن جسدك ونفسك ذبيحةٌ عقليةٌ لله. ونبيًّا، لكي تُعلِّم غير المؤمنين أن دعوة ربنا يسوع المسيح هي دعوةٌ مقدسةٌ للذين يرغبون في أن يحملوا الصليب للمجد وللبقاء. من أجل ذلك قد قيل: لا تفتُر إذا أصابتك النكبات، ولا تحزن إذا حلَّت بك المصائب، ليس لأن الدنيا زائلةٌ، وإنما لأن الله تبارك اسمه لا يريد منّا أن نطمئنَ إلى هذه الحياة حتى لا تجعلُنا الطمأنينةُ نطمع في الدنيا وما فيها.

وقيل أيضًا: إن الآلام خُبزُ الحياةِ الزائلة، والذين يأكلون من هذا الخبز يعلمون زوال الدنيا وما فيها، فالألمُ مُرٌّ، ومرارتُه تجعل الذين يتألمون يعرفون أن كل ما هو منظورٌ في طريقه إلى الاضمحلال. وبغير الألم والمعاناة لا تقتني النفسُ التمييزَ بين ما هو دائمٌ وما هو فانٍ، فإن تألَّمنا آلامًا يسيرةً، فذلك لكي نتعلَّم ونُدرِك أن الآلام التي أصابتنا هي بدايةٌ ورأسٌ من رؤوس الحكمة، ولقد قيل أيضًا: إن الآلام تخلع عن العينين عصابة الكسل (في مخطوطةٍ أخرى: ترفع عن العينين عصابة الكسل)، فمتى رُفِعَتْ عصابةُ الكسل عن العينين، أدرك الإنسانُ أن خيرَ حالٍ ينتهي إليه هو بالعمل وبالجد لكي يتوَّج بثمر أعماله في النهاية.

إن كثيرين قد أصابتهم المحن فتراجعوا عن حَملِ الصليب، وبذلك أصابهم قول الحكمة: "كلبٌ عاد إلى قيئه وخنزيرةٌ مغتسلةٌ إلى مراغة الحمأة" (٢بط ٢: ٢٢). والكلب والخنزير كلاهما يعبِّران عن الطبيعة غير المتجددة في المسيح، فهؤلاء متى رأوا صعوبة الطريق، عادوا أدراجهم إلى السيرة القديمة

مثل الشعب القديم الذي فضَّل قدورَ اللحم والبصل والكرات والثوم على الحرية، وهم الذين قيل عنهم إلههم بطنهم (فيلبي ٣: ١٩) لأن طعم الخبز عندهم أفضل من فرح الحرية. هؤلاء لا يُرجى لهم شفاءٌ إلَّا إذا استطاع سيفُ البلايا أن يستأصل منهم محبة الدنيا، فالذين يطمعون في ملذات هذه الحياة لا يتعلَّمون شيئًا ولو جلسوا على حِجرِ أعظم المعلمين، فالشاب الغني سَمِعَ الحكمةَ من الحكمةِ، ولكنه مضى حزينًا، لأنه كان ذا أموالٍ كثيرةٍ، وهذا ما حقَّقه ربنا يسوع المسيح له المجد، فقد طلب من ذلك الغني أن يبيع كل ما له لكي يقتني عوضًا عن الأموالِ الحكمةَ غيرَ الزائلة، ولكن ذلك المسكين أراد أن يقتني الاثنين معًا، أمَّا ربنا له المجد، فعندما أبصر أشواقه إلى الحكمة أراد أن يُدلَّه عليها ويُرغِّبه فيها حال إنه رآه كمعلمٍ لا يملك شيئًا وليس له أين يسند رأسه، فقد أراد أن يقول له اتبعني لتنال شهوة قلبك. والذين يتبعون الرب لا يمكن أن ينتقلوا معه من مجدٍ إلى مجدٍ إلَّا إذا تجرَّدوا من أموالهم، لأن التجرُّد من المقتنيات يزيد في القلبِ اليقظةَ، وحياةُ الفقر تُعلِّم العقل الهدوء، لكن ليس هذا هو المنتهى، وإنما غاية الفقر والتجرُّد أن يصفو فكرَ الإنسان فيتعوَّد على البصر الجيد، ويُبصر كيف هو طريق الحق، وكيف هو طريق الباطل. ولكن ذلك المسكين الذي بلا حكمة، والذي حفظ الوصايا كلها وقضى حداثته في الطاعة، عندما كاد أن يقترب من الثمرة المرجوة تخاذل ولم يمد يده، ولذلك قيل: لا تكن مثل ذلك الشاب إذا كنتَ شابًا تحفظ وصايا الرب وتستبقي العالم في قلبك، لأن أحدهما سوف يطرد الآخر في النهاية.

وقيل أيضًا: إن الذين يتَّكلون على الأموال يفقدون الحكمة لأن الاتكال على الأموال لا يجعل النفسَ مهيَّئةً لاقتناء التمييز، أمَّا أنت فيا مَن تَبعت الربَّ ودعاك هو إلى أن تسير معه الطريق كله، لا تَخَف بل اقتنِ شجاعةَ الإيمان وسِر، فكلُّ خطوةٍ تخطوها تُقرِّبُكَ من ربنا يسوع المسيح، وكلُّ محنةٍ حارقةٍ تجعلك في النهاية تتنقى أكثر فأكثر، فتتجلى بالحكمة الحقيقية.

أرني إنسانًا استطاع أن يقتني المعرفة الحقيقية بالأموال وأنا أُريكَ مِن حياة وأقوال الذين سبقونا أن كثيرين اقتنوا المعرفة الحقيقية بالتجرد من المقتنيات. ليس فقط الطوباوي القديس أنطونيوس مصباح الرهبنة المنير، ولكن أيضًا في زماننا تُجّارًا تاجروا بالحكمة الحقيقية فربحوها وتركوا كل ما لديهم وسلكوا طريق الحياة الحقيقية، فاقتنوا المعرفة الحقيقية، ولكن التجرد هو أمر ضروري لمن كانت أموالُه كثيرةً.

أمَّا إن كنتَ رقيق الحال فمطلوبٌ منك لا أن تتجرد من أموالك لأنه ليس لك أموال، وإنما أن تتجرد من الحزن على أنك لم تُصِب قدرًا من المقتنيات. فإن كنتَ رقيق الحال فلا تحزن.

وإن جاءت عليك مِحَنٌ كثيرةٌ فصارت حياتُك أصعب، فلا تبتأس، بل انظر إلى الذين عاشوا من قبل عندما فقدوا كلَّ شيء ولم يفقدوا الله، مثل أيوب الذي صار مثالًا للصابرين، ومثل ذلك الشعب الذي تشتَّت في وسط شعوبٍ وفَقَدَ كلَّ شيءٍ، لكنه لم يفقد الاسم الحَسِن ولم يرغب في أن يغيِّر اسمه مُتَّكلًا على رحمة الله التي ستُعيده إلى اقتناء المواعيد التي أعطاها الله لإبراهيم.

وإن كنت مسكينًا تعيش على الصدقة، فطوباك، فقد صار مولدك للحياة الحقيقية سهلًا، فقد جرَّدك الفقرُ من كبرياء الحياة، وجرَّدك الفقرُ من الخمول والكسل، فها أنت تسعى لتطلب الصدقة من الناس، وإن لم تشقَ في طلبها لا تأكل خبزًا، ولكنك مثل الكلِّ لستَ غريبًا عن تعلُّم الحكمة، وإنما تستطيع أن تتعلمها متى رَغِبتَ في أن تلتصق بالحكمة المتأنس يسوع المسيح ربنا.

ليس مِن فارقٍ بين رجلٍ أو امرأة، شيخٍ وشابٍ وحَدَثٍ، فالكلُّ إن لم يُتقِنوا الحكمة فَقَدوا حتى الحياةَ الطبيعية حسب الجسد، فالذي لا يتعلم أن يميِّز بين الحيَّةِ والحمامةِ، وبين السمكة والعقرب، يفنى ويَبيدُ بالجهل، والذي

لا يتعلم متى ينام ومتى يقرأ ومتى يصمُت ومتى يتكلم لا يخسر الناس فقط، بل يخسر حياته وتُبيده المنازعات أيضًا.

طوبى لمن أدرك إن آلام الزمان الحاضر هي دواءٌ حقيقيٌّ يبعثُ في القلوب اليقظة، وفي الضمائر الإحساس الخفي بالباقيات.

وطوبى لمن اصطبغ وتحوَّلت عنده الصبغة إلى جراحاتٍ حقيقيةٍ لأنه في النهاية ينال من الله الثمرة المرجوة من الصبغة ومن المسحة. وطوبى لمن يتعطَّف عليه الرب، فيُعمَّد بدمه لأنه قد اقتنى في جسده سمات المسيح الظافر. وطوبى لمن لا يحزن إذا تألم، لأن الآلام سوف تعطيه أن يرى إن الثوب الأبيض يتدنس بالكسل، ويظل ناصع البياض إذا حَرِصَ عليه مرتديه. فكيف تقتني الحرص وأنت غارقٌ في متاع الدنيا (في مخطوطة أخرى: في اقتناء متاع الدنيا). لأجل ذلك كله علَّمنا الآباء أن نقبل الآلام بفرح. **فبداية اقتناء الحكمة هي أن تفرح بالآلام**. لا تقُل في قلبك كيف أفرح؟ لأن الذي يتعلم من الآلام التمييز بين الباقيات والفانيات يرى الباقيات، فيفرح لأن الذي يضمنها هو الرب وليس العالم ولا رؤساء العالم الذين يبيدون.

طوبى لمن يشربون كأس الألم، لأن في قطراتها بذار الحكمة، وبمياه الألم تنمو فتثمر ثمر الحياة المرتَقَبة. وطوبى لمن يتألم ولا يكتئب لأن تعزية الله لا تُعطى للمكتئبين من أجل الخسارة، وإنما تُعطى للمكتئبين الذين يتطلعون إلى خيرات الدهر الآتي ويجدون أنهم فارغون منها. وطوبى لمن اصطبغ بصبغة الموت فاقتنى منها التمييز، لأن معموديتنا هي معمودية الحكمة.

الرأس الثالث

# في أن صعوبة الأيام
# لا تنال من الأمانة التي نتلوها في البيعة

إن بعضَ الناس من الذين لم يُتقنوا الحكمةَ، عندما رأوا صعوبة الأيام تساءلوا كيف أن الرب يسوع هو الملك؟ وإن كان مَلِكَ الحق، فكيف يسمح للشرير بأن يُظهِر ذلك السلطان وتلك القوة؟ وكيف يفتك بالمؤمنين؟

يا ابني لا تحتقر تأديب الرب ولا تَخُرْ إذ وَّبخك (أم ٣: ١١، عب ١٢: ٥). إن الذين يقرأون كلمات الأنبياء يعرفون أن الله هو السيد والملك الذي لا يملك معه آخر، ولكن ذلك السيد والملك سَمَحَ للغرباء لا بأن يحملوا الشعب إلى السبي فقط، بل وأن يهدموا الهيكل ويخلعوا الحجارة، بل هو بنفسه قال الحق أقول لكم إن حجرًا لا يبقى هاهنا على حجرٍ (لو ١٩: ٤٤)، فهل كان هذا نقصانًا لسطوة الملك العظيم الذي لم يَخَف من أن ينزل أحيانًا إلى الحرب ليحارب؟ هل هُزِم الرب لأن الشعب حُمِل إلى بابل؟ ألم يكن له قصدٌ في أن يُؤسروا ليتعلموا كيف يعيشون حسب وصاياه، ولكي ينقلوا إلى الأُمم الأخرى معرفة الإله الواحد؟

إن الرسول يقول: "أنت تؤمن أن الله واحدٌ، وحسنًا تفعل، والشياطين يؤمنون ويقشعِّرون" (يع ٢: ١٩)، فلماذا ذَكَرَ الشياطين بشكلٍّ خاص؟ لأننا نحن البشر نؤمن بإلهٍ واحدٍ، ولكننا -بسبب الضعف الذي فينا- نؤلِّه ما هو ليس بإلهٍ بالطبيعة، أمَّا الشياطين الذين علَّمونا هذه الغواية، فأنهم يرون الفساد الذي انحدرنا إليه، ويقشعِّرون من نتيجة غوايتهم، ويقشعِّرون بالأكثر

من الدينونة التي ستأتي عليهم. ولذلك، وهم يتوقَّعون يوم القضاء في رعدةٍ، يعلمون إن الملكَ واحدٌ، أمَّا نحن فبسبب محبتنا للفانيات، نظن أن هناك ملكًا آخر غير يسوع، أو أن القدرةَ وسِرَّ الإثم هما تحت سلطانٍ آخر.

لا تفقد إيمانك بالله، ولا تتحول عنه لئلا تضيع، ولكن اعلم إن الملك الحقيقي لا يؤدِّبنا فقط، ولكنه يكشف لنا -بافتراء الحنفاء- عن صدق الإنجيل، فهم يلجئون إلى المال للإغراء وإلى السيف للتهديد والوعيد وإلى القتل. فالمسيح له المجد لا يجعل علينا سوى أن نقتني هذا التمييز، فكيف تصل النفس إلى اعتقادٍ ثابتٍ بالخوف أو بالوعيد؟ وكيف تقتني النفسُ إيمانًا صادقًا بالله إذا أجزلت لها العطاء وأعطيتها الجواري والأموال؟ فإنهم عندما يفعلون هذا، يُثبِتون ليس كلمات الإنجيل فقط، بل كلِّ نقطةٍ فيه، فانظر إلى الدنيا وإلى الأحداثِ ككتابٍ مفتوح تقرأ فيه عن شراء ذمم الناس بالمال، فتتعلم صِدق دعوة الانجيل، وتقرأ كيف يفضِّلون النساء والجواري الحِسان على أسرار البيعةِ، فتفطن إلى أن كلمة الرب لم تسقط، وإلى أن الشرير قد نَصَبَ شِباكَه على وجه الأرض، وأن الذين ينجون منها قلائل.

لا تقل في قلبك إن المسيح ليس هو الملك، فالذي سبق وأخبرك عن سقوط الأقوياء بالمال، وعلَّمَكَ أن الإيمان الحق لا يُقتنى بما في هذه الدنيا، بل بالتضحية بالذات، هو الطبيبُ الحقيقي والحكمةُ الحق الذي جاء وعلَّمنا شريعة الحق.

لا تيأس أن تركك أخوك وذهب إلى الحنفاء، فهو قد فعل أمرًا نراه مرسومًا واضحًا منذ قصة الخليقة الأولى في سفر الخليقة. فنحن الذين وُلِدنا خارج الفردوس لم يَعُد لدينا الفرح الحقيقي بالله، فنريد أن نتعزَّى عوضًا عنه بأمورٍ تافهةٍ صغيرة نطلبها في شراهةٍ، ونقسوا على الآخرين لكي نحصل عليها، بل نغشُّ ونخدعُ لكي ننال أكبر قدرٍ منها .. أليست هذه قصة دوَّنتها أسفارُ الكتب

الإلهية وسجَّلتها في صورٍ شتى حتى يفهم الذين لا يفهمون؟ أليست هي قصة قايين وهابيل وإبراهيم ولوط وأبناء يعقوب، ليس فقط يوسف، بل والباقين أيضًا؟ أليست هي قصة انقسام المملكة في أيام ابن سليمان الشرير؟ أليست هي قصة أخاب ونابوت؟ وأخيرًا، أليست هي قصة السيد البريء الذي بلا عيب مع تلميذه يهوذا الاسخريوطي الذي سلَّمه بقبلةٍ وباعه بالدنانير؟ فأيُّ شيءٍ جديد؟ إن أُمور الدهر تسير كما كانت قديمًا، وتوالي العصور لا يلاشي قوة الشر ولا يغيِّر من أهدافه، أمَّا مقاصدُ الربِّ، فهي ثابتةٌ ومُلكه من جيل إلى جيل، فلا تقُل إن الربَّ قد نسيَ البيعة أو إنه تخلَّى عن شعبه، وإنما لأننا لم نَعُد نقرأ الإنجيل بالحكمة. كُتِبَ الإنجيلُ بأحداث الزمان حولنا لكي نفيق من غفوتنا ونلزم شريعته ليلًا ونهارًا، فيترآف علينا.

إن يسوع الملك الحقيقي مَلَكَ على خشبة الصليب، هو متألِّمٌ ومُمَّجدٌ في آنٍ واحدٍ، فلا تنظر إليه على جبل طابور فقط، ولكن تطلَّع إليه وهو على الجلجثة معلَّقًا. لقد جلس عن يمين العظمة في الأعالي بعد ما صنع بنفسه تطهيرًا لخطايانا (عب ١: ٢ - ٣)، ولكنه يقول لشاول الطرسوسي "لماذا تضطهدني؟" (أع ٩: ٤). أغريبٌ إن ثار أحدٌ على الملك! أغريبٌ إن عصى أحدٌ إياه! ألم يحدث العصيان في المواضع الروحية السماوية عندما سقط سطانئيل ومعه عددٌ من طغمات الملائكة؟ ألم يكن الرب سيدًا حقًا عندما تمرد عليه هؤلاء! لا تيأس لأن الملك الحقيقي لا يُعاقِب الأعداء بسرعة، **فالإسراع في العقوبة دليلٌ على الخوف**، ولكن الإبطاء في العقوبة دليلٌ على قوة حكمة الخالق الذي يترك فرصةً للعصاة لعلهم يعودون إليه، ولكي يعلِّمُهم بطول حبل الصبر أنهم لا شيء، فلعلهم بصبره يتضعون. إن الأسد وحشٌ عظيمٌ، متى رأى فأرًا مُكشِّرًا عن أنيابه، لا تتحركُ شعرةٌ في ذيله. وكلما أسرع الفأر لكي يهاجمه كلما شعر الأسد في قلبه بالأسف الشديد لأنه يعلم أن مخلبًا واحدًا من مخالبه يسحق خصمه إلى الدرجة التي تعجز فيها عن أن تميز بين اللحم والعظم.

فانظر الذين عاقَبَهم الربُّ، والذين كُتب عن عقابهم في الأسفار الإلهية أنفاس الله، هؤلاء عُوقِبوا لكي تكون عقوبتهم عبرةً للعُصاةِ والمتكبِّرين.

أَمِن الضروري أن نكتب لك عن نهاية كنعان أو نهاية بابل؟ أمن الضروري أن نسطِّر في هذا الكتاب أسماء الطغاة والجبابرة الذين قلعهم المرض وأذلهم الموت وداسهم جبابرةٌ آخرون أقوى منهم؟ لذلك قيل: "إن القوة مثل النار تأكل الحطب فتأكل نفسها". وقيل أيضًا: "لا تَخَف من جبابرة هذه الأرض لأنهم كما نبتوا من الأرض، إليها أيضًا يعودون". وقيل أيضًا "لا تخف من الذين لا يعرفون إلَّا قبضة السيف، فالسيوف لا تدوم في اليد، وإنما خَف مِن الذي يصارعك بالفكر لأن الفكر يدوم في عقول الناس".

وقيل أيضًا: "لا تسأل عن نهاية الأقوياء لأن نهايتهم معروفةٌ، فكما ينبتون سريعًا بالقوة، فسريعًا ما يسقطون بالقوة". إن يسوع الملك الحقيقي يُهيِّجُ علينا أمواج البحر، ويسوع الملك الحقيقي يُريدنا أن نقرأ حكمته مسطورةً على وجه الأرض فنقتني معرفةً أكيدةً بالأمور التي بُشِّرنا بها، إن العزاء ليس في نهاية الأقوياء، وإنما العزاء في أنكَ أنت لم تَسِر في هذا الطريق، ولا اكتوت قدماك بنار القوة. إن الفرح ليس بدينونة الآخرين، وليس بنجاتك من الدينونة وإنما الفرحُ هو بأن الرحمة الإلهية قد أدركتك، وبأنك قد صرت فَطِنًا فأدركت أن الله "لا يُسَرُّ بساقي الفرس وإنما يُسرُّ بالمتواضعين" (مز ١٤٧: ١٠ - ١١).

إن أُلوهية ربنا يسوع المسيح محقَّقَةٌ، اذهب إلى الأسواق فتراها، تراها في طمع التجار وفي شراهة الذين يشترون، أم كيف تفهم هذا الأمر إن كان الناس في الأسواق يبيعون ويشترون بوفرة؟ أليس هذا صدى لقوله الإلهي: "كما كانوا في أيام نوح يبيعون ويشترون ويتزوجون كذلك يكون في أيام ابن الإنسان" (لو ١٧: ٢٦ - ٢٧)؟ لقد سبق فأخبرنا بأن حال الدنيا لن يتغيَّر تمامًا كما لم يتغيَّر حال سدوم وعمورة وحال الدنيا إلى أن بُنيَ الفلك.

هذه أيام ابن الانسان التي يجلس فيها ملكًا في البيعة المقدسة الجامعة الرسولية، فهو لم يَعِدنا بمُلكٍ أرضيٍّ وبملوكٍ يحكمون الأرض، وإنما وَعَدَنا بمُلكٍ سماويٍّ وجَعلَنا جميعًا ملوكًا لله أبيه. فعندما ترى الدنيا لا تتغيَّر، وترى أنك أنت الذي تتغيَّر، فاعلم أن الإنجيلَ حقٌّ، لأن التغيُّر الذي فيك هو بذرة الحياة الآتية، أمَّا الحياة التي تراها بعينيك، فهي كما كانت قديمًا، وكما ستكون في مستقبل الأيام سائرةً نحو الشيخوخة المحتومة، تتهرَّأُ من الداخل، تفترسها قوى الشر، تلدُ الطغاةَ والعبيد في آنٍ واحدٍ. فالرَحِم الذي يلد السيد والعبد ليس رَحِمَ حياةٍ، وإنما رَحِمُ تناقضِ الموت، والشجرةُ التي تُثمر النار ليست شجرةَ حياةٍ، بل شجرةُ موتٍ، فلا تتألم ولا ينقُص إيمانك بالواحد الملك، ولكن القِ بذاتك عند قدميه وقُل له: مباركٌ أنت يا مَن أعتقتني من طريق الضلالة، ويا مَن علَّمتني أنَّ مملكة الشر منقسمةٌ، وأن مصيرها في النهاية هو ذلك المصير المحتوم.

إن يسوع ملكٌ حقيقيٌّ لأنه مَلَكَ عليك، وملكٌ حقيقيٌّ لأنه يغذِّيك من حياته. أمَّا الذين تراهم ملوكًا، فهم ملوكُ الكَذِب، هم يأخذون منك، يأخذون منك ما يستطيعون أن يأخذوا، هؤلاء قال عنهم الملك الحقيقي: "لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن خافوا من الذي له سلطان أن يلقي النفس في جهنم" (لو ١٢: ٥). فالمَلِكُ الحقيقيُّ يعطيك ولا يأخذ، يشفيك ولا يُمرِضُكَ. يُنيرك ولا يضع سلاسل الجهل في يديك. أمَّا مَلِكُ الكذب، فإذا خدعك بوعودٍ، عاد فأخذك إليه وأَسَرَكَ.

إن يسوع الملك الحقيقي يمنحك في النهاية مُلكَه السماوي، ولذلك يقول للرسل القديسين: "حيث أكون أنا هناك يكون خادمي" (يو ١٢: ٢٦)، فأيُّ ملكٍ يفعل هذا؟ ألا يخافون جميعهم على عروشهم؟ ألا يُعاقِبون الخدم لو اشتهوا أن يأخذوا شيئًا من مقتنياته الكثيرة؟ ألا يقتلون الذين يطمعون في

عروشهم؟ ألم يقتل هيرودسُ أطفالَ بيت لحم لأنه سمع أن طفلًا قد وُلِدَ ليملك؟ لذلك لا تَخَف من الذين يقتلون الجسد، هؤلاء بعد أن يقتلوا الجسد لا يملكون أكثر من هذا، ولكن خَف من الملك الحقيقي الذي بعدما أعطاك ذاته وملكوته وجعلك ابنًا، ترذِله، ومتى رذلتَ الكلَّ، فما الذي يتبقى لك لكي تتعزَّى به؟ وعندما يؤخذ منك الكل، لا سيما حياة الجسد وحياة النفس، فبأي شيءٍ تفرح؟ فالذين يطلبون جسدك ليمزقوه قَدِّمه لهم في فرحٍ، والذين يسألون حياتك اعرف أنهم كذبة، فالحياة التي من الله لا يستطيعُ أيُّ مخلوقٍ، ولا حتى الشياطين، أن ينتزعوها من يد ضابط الكل، لا تَخُر عزيمتُكَ إن رأيتَ فَلَاحَ الأشرار، ولا تقُل كيف صُلِبَ الرب على الجلجثة، والشَّرُّ مازال في العالم؟

إن الربَّ فَضَحَ طبيعة الشرِّ وأظهر أن الخطيئة هي التعدي، وبموته أعلن أن الخطيئة خاطئةٌ جدًا، ولكنه لم يُقيِّد حرية الناس، وجعل الاختيار بيد الخليقة لكي تعود بالمحبة إلى الله، لأنه لو أرغم الناسَ على الخير، لَصار مثل الشياطين الذين يُرغِمون الساقطين تحت سلطانهم على ارتكاب الشرور ويستولون على إرادتهم ويُهلكونهم، لكن حاشا لذاك الذي هو كُلِّي الصلاح أن يقود الإنسانَ مرغمًا إلى الخير، إنه الراعي الذي يُخْرِج أمام خرافه يحامي عنها ويدعوها فتتبعه بحريتها طالبةً المراعي الحسنة الخضراء، فلا تفزع إذا رأيتَ الشرَّ يتعاظم، فالربُّ الذي صُلب وقام قَتَلَ قوة الشرِّ عندما أعلن عن تفاهته وعجزه وبُطلِه، فترَكَهَ مثل وحشٍ مطعونٍ ينزف دمًا، وجعله شِبهَ مقتولٍ يُنازع النزع الأخير، والويل لمن يقترب من وحشٍ مطعونٍ، لأنه سيفترسه بضراوةٍ.

إن يسوع الملك، ملكُ الأبرار والصديقين، لم يجعل له في هذه الدنيا مملكةً قائمةً على العنف أو عرشًا تسنده السيوف، فهذه أُمورٌ لا تتفق مع طبيعة الإنجيل، فتمهَّر يا ذا الحكمة واجعل في قلبك التمييز، لكي تميِّز بين ملكوت الاستبداد والظلم المحتاج إلى السيف، وملكوت النور والحق القائم

على المحبة. كثيرون سوف يطلبون ملكوت النور ويغريهم الحق على اتباعه، وتجعل الحكمةُ عذوبةَ طلبها في أفواههم، ولكنهم سرعان ما يرتدُّون لأنهم يجدون أن هذا الملك لا تسنده القوة الظاهرة ولا يحميه السيف.

إن ملكَنا هَرَبَ من أمام هيرودس، وسكن في مصر حتى مات الطاغية، وعندما ذهب يكرز في قرى اليهود والسامريين لم يدخل عنوةً في بيوت الذين رفضوه، ولم يُرسل تلاميذه يحملون السيف، بل قال لهم: "لا تحملوا عصًا ولا مزودًا ولا كيسًا وها انذا أرسلكم كحملانٍ وسط ذئاب" (لو ٩: ٣)، وعندما طلب تلميذاه أن تنزل نارٌ لتأكل السامريين انتهرهما علنًا وقال لهما: "لستما تعلمان من أي روح أنتما" (لو ٩: ٥٥)، وعاد وقال: "ولكنكم ستعلمان متى اصطبغتما بالصبغة التي أصطَبِغُ بها، فما جئتُ لكي أقتل وأنهب وأُدمِّر وإنما لكي أسند الضعيف وأُجبر المكسور وأُحرر المأسور وأرفع العبيد إلى مرتبة البنين والأشراف".

فانظر إن الارتفاع الحقيقي هو ارتفاعٌ إلى عِظَمِ الدعوة التي دعانا إليها المسيح، والغلبةُ الحق، ليست في أن تدوس خليقة الله أو أن تظلم أخيك، ولكن أن تُحبَّ الأعداء وتبارِك اللاعنين، وأن تغفرَ سبعةً في سبعين.

إن الإنجيلَ هو بشارةٌ لخلاص الهالكين، وبشارةٌ للجالسين في الظلمة وظلال الموت، فكيف تظنُّ أنتَ يا مَن جَعَلَكَ الشرُّ خائفًا مرتعدًا أن تتحولَ البشارةُ إلى دينونةٍ وإلى سلطانٍ لقتل المعارضين والرافضين؟ وكيف بعد أن قدَّم الملكُ جسدَه ودمَه ليس للأبرار والصديقين بل للخطاة والضالين، كيف يُجرِّدُ السيفَ والأتباع، وهو الذي يسكب حياته فيهم؟ فأيُّ حياةٍ هذه التي تُدمِّر؟ إنه كَمَن يصوِّبُ سهمًا إلى كبده، وكَمَن يقطع أعضاء لحمه، فإن كان الرسول يقول: "نحن أعضاء جسده من لحمه وعظمه" (أف ٥: ٣٠)، فقد شَرَحَ ذلك السرَّ الفائقَ المخفي في الدهور؛ أن نصير واحدًا معه ليس في مجده

وكرامته فقط، بل في آلامه وموته أيضًا، لأننا لن نُمجَّد إن لم نتألم، لذلك قيل: "**طوبى لمن يقبل آلام الرب، فإنها تصبح مثل رُبُطٍ تحفظه من السقوط، فمتى ثبُت في آلامه ثبُتَ أيضًا في مجده**". وقيل أيضًا: "لا يكن لك قلبان؛ أن تتبعَ ملك الملوك بقلبٍ، وأن تسير وراء العالم بقلبٍ آخر، لأن من له قلبان يخسر السيدين معًا" (راجع مت ٦: ٢٤، لو ١٦: ١٣). وقيل: "لا تظن أن آلام الزمان الحاضر تُضعِف من ملكوت ربنا، بل اعلم أنها تظهره بلمعان يفوق لمعان الكلمات، فليس أفضل من شهادة الدم" (راجع رو ٨: ١٨)، وقيل "لا تستهزأ وأنت في حضرة الملك لئلا تُلقى خارجًا، وتصير مثل الذي لم تكن عليه ثيابُ العرس" (راجع مت ٢٢: ١٢ - ١٣)، فالبَس ثيابَ الخشية وادخُل وليمة المسيح واتكئ لأنك سترى العُرجَ والعُميَ، وهم جمهورُ الأُممِ من الشهداء والمعترفين الذين اتَّكأوا في الوليمة حاملين مجدَ جراحاتهم، ليس لأنهم دخلوا الوليمة بدون الأعضاء التي فقدوها، ولكن، لأنهم عندما فقدوا هذه الأعضاء، نَبَتَت في موضعها أعضاءٌ روحيةٌ جديدةٌ تلمع ببهاء القيامة في ملكوت المسيح.

فإن رأيتَ الأيامَ صعبةً ورأيتَ الناسَ حولك يتسابقون إلى ارتكاب الشرِّ، لا تيأس ولا تفزع ولا تجعل الوَهَنُ يمسك بعزيمتك ويسحقها، بل ابسط يديك إلى ذلك الذي بسط يديه على الصليب واقبل صليب الرب، فيُشرِقُ عليكَ بحسن قيامته، فتتجلى معه في الدهر الآتي.

طوبى لمن يمسك بهذه الرأس لأن منها يتكون جسم الحكمة الكامل.

الرأس الرابع

# إذا لم تجد حكمةً لدى الشيوخ، تعلَّم من سقوطِهم

إنه لأمرٌ غريبٌ ألَّا نجدَ شيوخًا في البيعة يعلِّمون شعبَ المسيحِ الحكمةَ الإلهية. هذا زمانٌ رديءٌ، فليس أردأ من زمانٍ ينعدمُ فيه التمييز بين الخير والشر، وليس أردأ من أن تذهب إلى البيعة موضع الحكمة، فتسمعُ كلمات الجهالة تُلقَّن للناس وتُتلى على منبر المسيح. هذه تجربةٌ صعبةٌ، وصعوبتُها في أن القلعة إذا حوصِرت من الخارج، نجت بصمود الذين في الداخل، ولكن متى تفرَّقت أيدي المدافعين في الداخل، أصبح سقوط القلعة وشيكًا. لكن يا مَن تطلب الحكمة الإلهية، اعلم أن الله يعرض علينا هؤلاء الشيوخ ويفضحهم أمامنا نحن الجُهال لكي بفضيحتهم نقتني حكمةً سماويةً فائقة.

فتعلَّم من سقوط العظماء تمامًا كما تتعلم من نهاية جبابرة الأرض، ولا تُدخِل في قلبك خشيةً من هؤلاء الذين يجلسون على كراسي المعلِّمين فيطمسون أسرار الله، ولا ترتعب إن نطقوا بالقبيح وعوَّجوا المستقيمات وافترسوا قطيع الرب لأن ما يفعلونه هو شهادةٌ صادقةٌ لكلمات الإنجيل، ألا وهي أن الشرير لا يحاصرنا من الخارج فقط، وإنما منذ أن وُلِدَ الربُّ في مزود البهائم وهو شبه مطرودٍ ومُطارَدٍ، فأيُّ أمرٍ غريب أن الذين يمسكون عصا الرعاية والصليب (في مخطوطةٍ أخرى: يرفعون الصليب) يُطاردون قطيع المسيح!

اسمع يا بُني وصفَ الذئاب الخاطفة؛ هؤلاء لهم صورة الرعاة ولكنهم كذبةٌ، تراهم ينشرون الأقاويل والأكاذيب عن الرعية، يدخلون البيوت لكي يقلبونها ويقسِّمونها. لهم صورة الأساقفة الحسني العبادة، ولكنهم كذبةٌ ومنافقون لا يعرفون الوداعة بل القسوة. يمسكون بسيف القطع والحرم والفرز في أيديهم، ليس عن حُبٍّ في الأمانة ودفاعًا عنها، ولكن لقضاء منافعهم الذاتية. هؤلاء تراهم يتكلمون كثيرًا عن العقاب. يهدِّدون ولا يعلنون أسرار الله. يتحدثون عن الشياطين أكثر مما يتحدثون عن الملكوت. يعظون عن السلوك ولا يضعون مفاتيح المعرفة في أيدي الناس. هؤلاء متى صعدوا على المنبر تحكم عليهم كلماتُهم بأنهم لم يذوقوا الرب، ولا عرفوا عنه شيئًا، وأن ما يتكلمون عنه، فهو ما يخافون منه ويرهبونه. يميلون إلى حُب المديح فلا شيءَ في قلوبهم يعزِّيهم، فيسرعون إلى طلب التعزية بكلمات المديح.

وانظر إلى انقسام الشرِّ؛ يهددون الناس بالعقاب ويفرحون بكلمات المديح. والذين يرغبون في أن يُمدحون، عليهم أن يُخبروا الناس عن الأسرار الفائقة، فينالون الإعجاب الحقيقي، ولكن لأن هؤلاء رسلٌ كَذَبَةٌ ورعاةُ سوءٍ يفعلون عكس ما يقولون ويقولون ما لا يفعلون. انقسامُهم ظاهرٌ، لأن الذي يتكلم عن الجحيم أكثر مما يتكلم عن الملكوت، لم يعرف ملكوت ربنا ولا قوته، والذي يَعِظ عن مكائد الشيطان أكثر مما يَعِظ عن قوة الفضيلة والتقديس، لم يختبر عمل الروح القدس ولا تذوَّق حلاوة البشارة. والذي يقطع الناس ويُسرِع إلى المنشار الكبير الأسنان ولا يُضمِّد جراحات الخطاةِ ليس بطبيبٍ بل جزارٍ، لأجل ذلك قيل: "راعي السوء لا تتبعه". وقيل أيضًا: "إذا تبِعتَ راعي السوء، فإنك تهلك بمشورته".

إن الله الكلي الصلاح والحكمة سَمَحَ ودبَّر وجود هؤلاء في البيعة كزوانٍ، لكي بعثرتهم يتم خلاص المؤمنين، ولكي بذلَّتِهم نعرف أن هؤلاء صاروا مثل

مرآةٍ نرى فيها الحياةَ الإنسانيةَ الساقطةَ والجُبلةَ التي تريد أن تكتسي زورًا بثوبِ الحق، فسبيلُنا أن نطلبَ الحكمة عندما تتفرَّس في طلعة هؤلاء، وعندما نتطلع إليهم ونراهم وقد صاروا رسلًا كذبةً في بيعة الحق، فاستمع إلى ما يقولون وراجِع أقوالهم على الأسفار الإلهية، وعلى كُتب آباء البيعة، لكي ترى الناقص والمعوج. ولا ترتعب يا ابني لأن هؤلاء تطول أيامُهم ولا تقصُر لأنهم موضوعون لامتحان الأتقياء. مريرةٌ هذه التجربة، مكروهةٌ أيضًا لدى الرب، ولكنه يسمح بها تأديبًا للبيعة، لأنها لم تُحسِن اختيار المشيرين، ولا فكَّرت كيف تستطيع أن تختار رُعاتها اختيارًا حسنًا مرضيًّا لدى الرب، ولأننا نسمح بوجودِ هؤلاء بيننا، يُعاقِبُنا الرب. يُعاقِبُنا؛ إذ يُغلق كوى السماء أمامنا، ويمنع كلمة الحق عن أن تسكن في قلوبنا، ولكنه لا يرذلنا إلى النهاية لأن الذين ارتدُّوا عن الأمانة في العهد العتيق، ظلَّت بينهم بقيةٌ باقية تطلب الرب. وعندما يقتنصُ الشيطانُ الشيوخَ والمدبِّرين، فاعلم أن زمان الارتداد قد نَشَرَ مخالبه (في مخطوطةٍ أخرى: فاعلم أن زمان الارتداد قد نشب مخالبه في جسد الكنيسة). فخَفْ واعلم أن رجاءَك في صلوات الأتقياء وطِلباتهم. ابتعد عن رعاة السوء، وعن مشيري الشر لئلا تهلِكَ بمشورتهم، ولئلا تخسر الحياة الأبدية.

عظيمٌ هو الرب، ومشورته تثبُت لأن الذين يقتحمون خدمة الرب لا ينجحون بذراعهم، والبِذار ليست بِذارهم، ولا الأرض، وإنما هي من الله، كما قال الحكيم معلِّم كلِّ جمهور الأُمم: "نحن فلاحان نفلِّح كرمة الرب، أنتم غرس الرب" (راجع ١كور ٣: ٩). وكل الذين يقتحمون كرمة الرب، يتعدُّون وصاياه القائلة: "لا يأخذ أحدٌ هذه الكرامة، بل مَن يدعوه الرب كما دعا هارون" (عب ٥: ٤)، فتحقَّق أن الذين صاروا شيوخًا ليسوا مدبِّرين حسنًا، ولا هم رعاةٌ من الله، بل رعاةٌ من أنفسِهم، وتحقَّق من ذلك لأنهم يؤكِّدون في كلِّ يومٍ حاجتهم إلى كلمة التعليم أكثر من حاجة المبتدئين.

فما هي الحكمة في أن تصير أُمور البيعة على هذا النحو المرير؟

في البدء غَرَسَ الربُّ الفردوس طاهرًا صالحًا، ولكن الشرير دخله وأسقط آدم وحواء واستسلم الإنسان لمشورة الشيطان. فالفردوس طاهرٌ وخيِّرٌ لأنه خليقة الله، وبفساد الإنسان وسقوطه واستعباد عقله للشيطان، ظَهَرَ من تناقُض الخير مع الفساد أن الشرَّ عارضٌ زائلٌ وأنه ليس خليقة الله. وهكذا أعاد الربُّ غَرسَ الفردوسَ من جديد، وهو فردوسٌ أعظم مملوءٌ بالأشجار المثمرة والأسرار الخفية، كشجرة الحياة التي هي دم ربنا الكريم عصيرُ كرمةِ داود، وجسده المقدس ميراث الروحانيين، ووضَعَ أشجار المعرفة والقداسة، وكما قال له المجد: إنه بنى سياجًا حول الكرمةِ، وهو سياج الحكمة. لكن العدوَّ والشعبُ نائمٌ ومتكاسلٌ صَنَعَ ثلَمَةً في السياج، ودخل وبَذَرَ الزوان، وتركه الشعبُ حتى نما وصار غابةَ أشواكٍ بلا ثمار.

تمهَّر في معاني هذه الحكمة، لأن الفردوس هو البيعة حسب شهادة الآباء، والأشجار هي أسفار الله والأسرار السمائية، وكلُّ شجرةٍ تعطي ثمرةً لشفاء الأُمم، ولكن الشرير يُلازم البيعة ويحاربُها ويجلب عليها الأوجاع لكي تترك طريق الحياة وتسلك في طريق الشر. وكُلَّما منعت البيعةُ الداخلين خلسةً إلى درجات كهنوت ربنا يسوع المسيح له المجد، كُلَّما كان السياجُ متينًا لا يقوى عليه العدو.

واعلم كم هي نعمة ربنا يسوع المسيح عظيمةٌ، لأنه عندما يعطي البيعةَ نعمةً، فإن هذه النعمة لا يمكن لمن ينالها أن يُسيء استخدامها، ولكن لأن اقتناء الكهنوت صار بابًا للربح القبيح وسوقًا تُباع فيه نعمة الله، فقد هَدَمَ الشريرُ الفائقُ شَرَّه سورَ البيعة، ودخل فيها لكي يمارِس تجارته الفاسدة. الأمرُ ليس جديدًا ولا هو مستغربٌ، وقد سبق وقال الرسول والنبي: "بعد ذهابي سيدخل فيكم ذئابٌ كاسرةٌ لا تُشفِق على الرعية" (أع ٢٠: ٢٩)، ومنذ ذلك

الزمان دخل أريوس ونسطوريوس وغيرهم من الكذبة مثل ماني وصابليوس ورأسهم الساحر سيمون الذي علَّم في الكنيسة بأن الروح القدس يُشترى بدراهم، وأن نعمة الله تُباع.

تحقَّق من أن ضمير الوثني مازال كما هو من الداخل، قد يتغيَّر كلامه فقط، أي صوته، أمَّا معانيه، فهي كما هي. ومعاني الكلام أن الوثني ينحت أصنامه ويصبغها بالألوان، ويبيع ويشتري هذه الآلهة الفاسدة، فلا تقع أنت في هذا الفخ، لأننا إذا كُنّا قد اشتُرينا بثمنٍ، فالذي اشترانا بثمنٍ فائقٍ هو ربنا يسوع المسيح، فلا تظنُّ يا هذا أن الوثنيةَ قُلِعَت من قلب الإنسان أو ضميره، وإنما اعلم أن الذين يبيعون ويشترون ليسوا سوى كهنة أرطاميس الذين أثاروا الشغب على بولس رسول ربنا يسوع المسيح.

هذه هي حكمة الله الفائقة، فهو يضع نعمته مجانًا وبلا ثمن، ونحن الذين لا ندرِك قَصدَه من هذا، لا نعلم أن الثمنَ هو عند الأوثان وكهنتهم، أمَّا المجَّاني فهو عند الله الذي عندما خَلَقَ، برأ كلَّ الأشياء من العدم، وأعطاها مقدارًا من الحياة والمعرفة دون أي وجه حق، فسبيلُ الله ظاهرٌ وطريقُ الحياة مكشوفةٌ، وتعلَّم أنت هذه الحكمة السماوية، واعلم أنه بسقوط هؤلاء، يقيم الربُّ مدبِّرين لشعبه تراهم يخدمون البيعة بمواهبَ وعطايا الروح القدس، وليس بالشرطونية، لأنه عندما يَفسَد الملوك يقيم الربُّ الأنبياء، وعندما يُفسد الناسُ النعمةَ يُسيِّجُ الربُّ حولها، وإذا بحثتَ في ذلك الزمان وجدتَ الذين أقامهم الناس، وهم الذين قيل عنهم: "من ثمارهم تعرفونهم" (مت ٧: ١٦)، فإن كان الإنسان يأخذ عنبًا من الكرمةِ، فكيف لا تكون كرمةً؟ وإن عَصَرَ زيتًا في معصرةٍ وذاقه وعَلِمَ أنه زيتٌ جيِّدٌ، فهل ينكر بعد ذلك أن شجرةَ الزيتون ماثلةٌ أمامه؟ فابحث عن الأشجار المثمرة وتجدها في فقراء ومساكين وتجار وفلاحين يُغدِقُ عليهم الربُّ ما لا يعطيه إلى الذين أقامهم الناس حسب شهوة

قلبهم، فلازِم هؤلاء لأنهم ظِلُّ الحكمة وأشجارُ الله الحية.

إن تمييز هؤلاء صعبٌ، فقد اختلطت الأشواك والأوراق، وشجرُ الحياة بالشجر الميت، ولكن الذي تغذَّى من أسفار الله وتذوَّق نعمته يعلمُ أن الذي بلا ثمن هو من الله، وأمَّا الذي حسب أهواء الناس، ففيه المرارة.

لذلك قيل ابحث عن مُعلِّم الحياة، لأنه ظاهرٌ بحياته. وقيل أيضًا: "ليس بالكلام ولا بحُسنِ الألفاظِ يسكن الحقُّ في قلوب السامعين، بل بقوة الله التي تحفظ قلوبَ السامعين ولا تقسِّم البيعة".

السلامُ، كلُّ السلامِ في طريق الذين اقتنوا الله، أمَّا الخصام والشِّقاق فهو في طريق أولاد بليعال المهلِك الذي يحارب شعب الله. فإن كنت ترى كيف يحارِب هؤلاءُ البيعةَ، وكيف يثلبون أعراضَ الناس، ويغمزون بالكلام القبيح، ويهدمون سِرَّ رحمة ربنا الفائق الذي لا يشاء أن يفضح الخليقة، وحدَّد يوم الفضيحة بمجيئه هو كديانٍ يُعلِن ليس خطايا البعض دون البعض الآخر، وإنما خطايا كل الذين قاوموه. وإذا كان الربُّ قد ثبَّت ينبوع المغفرة والسلامة في البيعة، أي حميم الميلاد الجديد، فكيف يسوغ لنا أن نخوضَ في سيرة الناس، ولو كانوا من الأردياء؟ هل نسينا تطهير خطايانا السالفة، أم صار لنا ضميرُ الديان وقوته؟

انظر كيف يسقط هؤلاء، وكيف يتقسى قلبهم واقتنِ لنفسك حكمةً لكي لا تسقط مثلهم ولا تتبع مشورتهم.

الرأس الخامس

# دوام نعمة المعمودية المقدسة

# حميم الميلاد الجديد

إن الربَّ لم يأتِ لكي يغسلنا عدةَ مرَّاتٍ، بل مرةً واحدةً وبفعلٍ واحدٍ دائمٍ في النفس بقوة الروح القدس.

قبل مجيء الرب بالجسد كان الناسُ يغتسلون كلَّ يومٍ، وما كانت مياهُ هذه الخليقة العتيقة قادرةً على أن تُطهِّرَهم، فالعالم الذي خضع للفساد لا يمكنه أن يجودَ من ذاته بطهارة النفس أو الجسد، لأن النفسَ التي تطهُر تصير على مثال الله، فتحقَّق من أن طهارة النفس ليست من عناصرَ مخلوقةٍ، بل من الله الذي خلق الكلَّ، وجاء وجدَّده بقوته الخالقة الكلمة يسوع المسيح ربنا.

علَّم الشيطانُ الناسَ أن اغتسال الجسد يقرِّبُهم من الله، والله لا يرضى بهذه المياه، لأنها عديمة الحياة الروحانية، ولا تقرِّبُ الخليقةَ العاقلةَ من الله. لقد أمر الله المياه ففاضت منها خلائقُ كثيرةٌ، كما ذكر سفر الخليقة، ولم يأمرها أن تعطي طبيعةً عاقلةً روحانيةً، بل أن تعطي طبيعةً عديمة الإدراك، فكيف يُقرِّبُ غيرُ العاقل، العاقلَ؟ وكيف يجودُ مخلوقٌ غيرُ عاقلٍ بالإدراكِ على مخلوقٍ عاقلٍ؟ لأن الإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله لا يمكن أن يتطهَّر إلَّا بطبيعةٍ روحانيةٍ، وأعلم أن المياه لا تنزع عن الإنسان موتَه الروحي، وإنما القوةُ الروحانيةُ التي من الله؛ قوة حياة الروح القدس نبع التقديس في البيعة هو الذي ينزعُ موتَ النفس ويَهَب الحياة للنفس والجسد، فيطهِّرهما من الموت.

الحميمُ الجديد دُعيَ كذلك لأنه عكس الحميم بالماء، فهو حميمٌ دائمٌ وعملٌ إلهيٌّ وفعلٌ لا ينقطع إلَّا يوم الدينونة عندما يتوَّقف عمل الروح القدس في النفس عندما تُرسَل إلى الجحيم ويقف عمله في الجسد، لأنه لا يقوم بمجد المسيح، بل بعار الدينونةِ وإلى عذابٍ أبديٍّ هو الموت الثاني.

علَّمنا الآباءُ **أن رشم الصليب هو كنز المعمودية الفائق الذي سلَّمه الرسل إلينا، والذي يُذَّخرُ في قلب الإنسان وعلى أعضاء جسده عندما يغتسل بماء الحميم ويُدهَن بالمسحة المقدسة.** وعلامةُ الصليب بذاتها ترشمها أنت بنفسك، وقبل المعمودية لم تكن أنت الذي ترشمه، بل يرشمُكَ به الكهنةُ بصلوات المؤمنين لأنك كنت ميتًا، ولم تكن قد خلعتَ طبيعة آدم الساقطة الفاسدة بشهوات الغرور. لذلك لم تكن ترشم الصليب، ولا كانت البيعة تسمح لك، ليس لأن الإنسانَ عاجزٌ عن أن يُحرِّك يديه وإنما الذي يحرِّكُ اليدَ هو القلبُ، أي الأمانة بأن يسوع المسيح مات وقام، ولكنك بعد المعمودية، ترشم الصليب، لأن كنز الحياة قد صار فيك وقد نلتَ بنعمةِ الخلق الجديد دالةَ البنوة التي تحرِّك يدَكَ إلى مثال النعمة، أي رشم الصليب، لأن الإنسان الذي ينال عطيةً من إنسانٍ آخر، يُرسلُ معها الصك المختوم الذي يحدِّد بها اسمه واسم الذي ينال الهبة. وهكذا، أرسل الله ابنه الوحيد وأعطاه اسمه الذي هو فوق كل رياسة وسلطان، وحدَّد ببشريته اسم الذين ينالون الهبة، وخَتَمَه بالصليب المحيي والمكرَّم من الآب والروح القدس ليصير ختمَ حياةٍ لكل الذين يقبلونه.

فتحقَّق من بشارة الخلاص التي سمعتها في المعمودية المقدسة، لأنك لم تُدعَ عبدًا، بل ابنًا وشهادةُ العتقِ مرسومةٌ على أعضائك، ليس أعضاء الجسد الظاهر، بل الإرادة والفكر، وهي أعضاءُ الحياة الروحانية التي أعطاها الله للإنسان وميَّزه بها عن الحيوان. فالحيوانات تشترك في شكل أجسادنا، ولكنها

لا تشترك في حياتنا بسبب أنها لم تُخلَق على صورة الله.

لذلك، ابسط يديك دائمًا وارشم ذاتك بعلامة الصليب لكي تترجى الآب السماوي وفي يمينك ختم البنوة، وهو علامة المِلك الحي يسوع المسيح وضمان صك التبني.

**احذر أن تُهمل علامة الصليب، لأنك بذلك تُهمل كنزَ الحميم وتصير حياتُك فارغةً. وأمَّا الذين يرشمون ذواتهم بعلامة الصليب، فيرتفعون إلى صورة الله، ويتحرك فيهم الروح القدس** ويدعوهم إلى الاغتسال والتقديس، لذلك قيل "إن الشياطين تفرح بمن رَشَمَ ذاته بعجلةٍ وبدون اعتناء، فهم يُبصرون أنك متهاونٌ في رتبة البنوة، وأنك مزمعٌ أن تقفَ مثل العبد الهارب من سيده. لكن، بشجاعة الأبطال قِف وارشم ذاتك بعلامة الصليب لكي تضع يدك على المحراث ولا تنظر إلى الحياة القديمة، بل تحرث الأرض بأمانةٍ كفلاحٍ صالحٍ وأمين.

لا تنظر إلى مصائب الذين حولك، ولا ترتاع من الفقر والفاقة الذي حلَّ بكثيرين، فالذين لبسوا الصليب في المعمودية لا يخافون من الفقر. يفرحون إذا قلَّتْ عندهم الأموال لأنهم لا يعيشون بها، بل يعيشون بالمحبة ويصبحون تسبحةً دائمة. يُسرُّون بالضيقات والشدائد، لأنهم اعتمدوا ليسوع ولموته، لكي إذا ماتوا معه ينالون القيامة الآتية. فليست الأمانةُ بسورٍ يحمي الإنسانَ من ضيقات الزمان الحاضر، وإنما الأمانةُ هي تُرسُ الخلاص في الحرب الروحية ومقاتلة الأعداء الروحيين الذين يقاتلون الإنسانَ بكل ضراوةٍ ويصنعون أسلحتهم وسهامهم من خيرات الدهر الحاضر كي يُسقِطوا غير الفاهمين.

اضطرابُ أحوال هذه الدنيا تراه في نقل يدك من الشمال إلى اليمين. فالذين قبضوا أيديهم ولم يُعطوا صدقةً ولا تذكَّروا الفقراء والمحتاجين، هؤلاء

يقفون على شِمال المسيح في يوم الدينونة، وبذلك رتَّب الآباء أن نحرِّكَ أيدينا من الشمال إلى اليمين لكي نَحذَر الدينونةَ الآتية، ونعلم أن الحميم الجديد هو من القوة الروحانية التي تَغلِبُ بالصدقة والسؤال عن المحتاجين.

**فإذا جاءت عليك الأتعابُ، فلا تصدِّقُ أنك خسرت المعمودية المقدسة، أو أنك أصبحت غريبًا عن الروح القدس، لأنه لا الشياطين ولا قوات الزمان الحاضر ولا حتى القوات المقدسة تستطيع أن تنزع ما غَرَسَه الربُّ**، وهو الذي قال: "خرافي في يدي ولا يستطيع أحد أن يخطفها مني" (يو ١٠: ٢٨ - ٢٩)، وبعد أن مات على الصليب وقَتَلَ الموتَ وسبى الجحيم وسَجَنَ الشيطانَ، فأيُّ قوةٍ يمكنها أن تغلب الذي له سلطانٌ في السموات وعلى الأرض.

**لا تقُل في قلبك إن الخطية غرَّبتني عن الله، فالخطيةُ التي تغرِّبُ الإنسانَ عن الله هي خطية الارتداد**، ونعمةُ الربِّ في العهد الجديد ليست قائمةً بأشربةٍ وطعامٍ واغتسالات، بل بالرب نفسه الذي هو "ضمانُ عهدٍ جديد" وعهدٍ دائمٍ أبدي، ومن أجل ذلك قيل: "المولود من الله لا يخطئ" (١ يو ٣: ٩، ١ يو ٥: ١٨) خطية الارتداد، فلا ترتعب من ذنوبك مهما كثُرت، لأن الربَّ إنما جاء من أجل أصحاب الذنوب الكثيرة.

ولا تفزع من أجل أن قلبك يضربُك من الداخل، وصوتُ ضميرك يُفزِعُك ويُخِيفُكَ، فهذه هي بقايا الخوف من العقاب التي هي عضوٌّ قتَّالٌ يُحارِبُ النفسَ ليُفزعُها ويجعلها تبحث عن وسائلَ تُرضي بها الرب، وهو لم يرضَ إلَّا بذبيحة ابنه الوحيد.

إن رسول الأُمم، وقد أدرك أن الخوفَ من العقاب هو مرضُ العبرانيين، كَتَبَ لهم رسالةَ شفاءٍ ميَّز فيها بين العهدين. وثبَّت كرامة الحياة الجديدة على ناموس الحروف والاغتسالات والذبائح. وشرح الفرقَ بين الذي يبني البيت،

وهو موسى البنَّاء الحكيم، وصاحب البيت الذي خَلَقَ موسى. وبين كهنوتٍ يمنع الموتُ أصحابه من البقاء، وكهنوتٍ ثابتٍ بقوة الحياة التي غلبت الموت. فبعد أن غلبَ الربُّ الموتَ، ماذا عليك أن تخافه؟ لقد أبطل الحكمَ القديم الذي كان ضدنا، وأقام الربُّ الحياةَ غالبةً، فلا يضربك قلبُكَ مثلما كان يحدث في العتيقة، وإنما ثبِّت قلبَكَ بالأمانة التي لأجلها اعتمدت عالمًا أن الخطيةَ لا تنال من الله، وإنما اللهُ هو الذي نال منها وأشهر عجزها بموته على الصليب، فمات عوضًا عنّا نحن المائتين، لكن قوة الحياة التي لا تنقضي أنهضته. لقد جاءت أوجاعُ الموتِ إليه، فلم يتوجَّع منها بالفساد، بل ألقاها في الجحيم ونهض حيًّا.

فتحقَّق يا مَن أنتَ ساكنٌ في البيعة المقدسة أورشليم السمائية، أن الملك أَمَرَ وفَتَحَ أبوابَ المدينة للعُرجِ والعُمي والمرضى والذين ليس لهم رجاء، وستظل أبوابُ المدينةِ مفتوحةً لا تُغلَق حتى يوم مجيئه. وهو مثالٌ للبيعة التي لا تُغلِق الأسكنة إلَّا في جمعة الصلبوت، وتتركُ بابَ الأسكنةِ مفتوحًا حتى لا يضعُف ضميرُ أحدٍ ويظنُّ أن بابَ الرحمةِ يُغلَقُ في وجوه الخطاة.

مباركٌ مَن تُدرِكُه رحمةُ الربِّ وتسكنُ في قلبه لأنه لا يعود يخاف سوى فقدان الرحمة، فتهلل وسبِّح ومجِّد الذي جاء وسكن في الطبيعة الميتة لكي يرفعها إلى حياة عدم الفساد، وليكن فرحُ المعمودية في قلبك كلَّ يومٍ لأنك بهذا الفرح تقوى وتغلب الأعداء الظاهرين والخفيين. وتحلُّ عليك نعمةُ الربِّ، فيُسالِمُكَ أعداؤك أينما تذهب، لأنهم لا يشُمُّون فيك رائحةَ الخوف، وإنما تصبح رائحةَ السلام الذكية، أي رائحةُ الميرون المقدس مسحة الرب إلهنا والختم الذي لا ينحل.

الرأس السادس

# حضور البيعة والاشتراك في الذبيحة السمائية لنكون في رفقة السمائيين

عندما خلق الربُّ الكونَ وكلَّ ما فيه "كان مساء وصباح"، لأن بداية الخليقة القديمة التي تملَّك عليها الموتُ هي بالمساء، ولكنها تكمُل في الصباح، أي مع إشراقة نورِ يومٍ جديد، أي مخلصنا يسوع المسيح شمسُ العدل. وكَتَبَ موسى في سفر الخليقة سرَّ المسيح، فكلُّ رتبةٍ من الكائنات كانت تُخلَق في مساء كل يوم وتكمُل في الصباح، لأن الخلقَ الأولَ ليس مثل الخلق الجديد، فالخلقُ الأولُ يأتي من هذا العالم، من تراب الأرض مثل آدم الأول الترابي والذي في إثره خُلِقَ الترابيون. هذا هو المساء الذي يشرقُ في أعقابه النورُ. وهذا هو الذي جعل الآباء -بحكمة الله الفائقة- يرتِّبون يوم الرب بالعشية من المساء، أي بحضور الخليقة الأولى الفانية التي يُشرِق عليها الرب، كما قيل عن الخلاص: "فأشرق الربُّ على عسكر فرعون" عندما ظهر نور القيامة، وغرقت كل القوات الشريرة. فالربُّ يُشرِق علينا بنور الخليقة الثانية، أي القيامة عندما يأتي إلينا حاملًا طعامَ الأبد، أي خبز الخلود، جسدُه المقدس ودمُه الكريم.

طوبى لمن يبدأ من المساء بالعشية ويحمل مصباحه في يده ساهرًا مثل العذارى الحكيمات حتى يُشرِق عليه نورُ القيامة في صباح اليوم الثامن.

لقد صار هذا الترتيب، لأن الخليقة القديمة هي بعينها التي يُجدِّدُها الرب. فهو لم يرذل آدم ونسله، بل اشترك في اللحم والدم لكي يُجدِّد الفاسد

إلى عدم فساد ويُلبس الترابي بالمجد السماوي. فإذا لاح لك تحت الثوب السمائي غضنُ اللحم أو ضَعفه، فلا تخُر عزيمتُك لأن الجديدَ ما جاء كلُّه بعد، وأنت مثل الوليد الذي هلَّ مِن رَحِمِ أُمِّه ووُلِدَ، فهو بعد أن فارق ظلمة البطن ودخل إلى الحياة الجديدة ما يزال يذكر أيامه الأولى وظلام البطن. من أجل ذلك رتَّبت البيعةُ أن يبدأ يوم الخلاص بالمساء لكي ينتهي بنور النهار الجديد حتى نذكر النهار الذي بلا ليل، وهو نهار أورشليم السماوية.

اعلم أن العبد بعد أن يتحرر من طوق النِّخاسة، يرى في عُنُقِه آثارَ ذلك الطوق، وحتى إن ضاعت، ففكرُه ما يزال يذكرها. فإن رأيت آثار آدم الأول الميت، أو جاءت على فكرك، فليلهج لسانُكَ بالتسبيح للذي حرَّرك.

أنت في عالمٍ مازال فيه سلطان الظلمة، ومازال خاضعًا لقوة الفساد، وهي قوة المهلِك، فمُد يدك إلى الذي أقام الإنسانية لكي يُقيم قلبَكَ من ذكرى الموت وأوجاعه، واذهب إلى البيعة حيث الطبيب يقدِّم دواءَ عدمِ الموت للموتى، ويعرِضُه عليهم ويطلب من خادمه أن ينادي: "تقدموا تقدموا". فهو ينادي أولًا بصوته المحيي، وبعد ذلك بصوت خُدَّامِه؛ حتى أن مَن يفشل في تمييز صوت الرب، لا يفشل في تمييز صوت خادمه.

وعلى رسم الوليمةِ أقام الربُّ عشاءَ الحياة الأبدية الذي مازال يُسمَّى عشاءً، ليس لأنه أتمَّه في عشية ذلك اليوم في العّلية وإنما لأن الخلاص ما أشرق إلَّا في الظلمة، وظلمةُ العالم لم تتبدد تمامًا، وإنما عندما جاء النورُ ظهرت قباحة الظلمة، فاعلم أن يوم الرب يبدأ بالظلمة لأن الصراعَ لم ينتهِ. لقد غلب الربُّ، وهو وحده الذي قهر الظلمة وقواتها، ولكنه يريد أن يغلب بنا، وهو ما يجعل الحرب مع عماليق من دهرٍ وإلى دهر.

كثيرون يهتمُّون بالاستحمام بالماء كعادة الحنفاء، ويلبسون ملابسَ نظيفةً،

والبعضُ يهتم فيلبس ملابسَ خصَّصها لحضور القداسات فقط. كلُّ هذه الأمور ليست نافعةً لأنها لا تزيد أمانة الإنسان ولا تُقرِّبُه إلى الله. فالإنسانُ ليس هو الذي اقترب من الله، وإنما الله هو الذي تجسَّد واقترب من الإنسان، من لحمه ودمه.

الاستعدادُ قد يُريح فكر الإنسان وقلبه، ولكنه لا يزرع فيه خوفَ الله ومحبته. فالإنسانُ لا يأكل الأسرارَ بجسده وملابسه، وإنما يأكلها بقلبه عندما يميِّز أن هذا هو جسد ربنا بالحق، ليس مثل جسد الناس، وإنما الجسد المحيي. فالأمانةُ هي التي تفتح عيني قلب الإنسان ليُبصِر ليس حياة الجسد، وإنما حياة الروح الآتية من الآب. واعلم أنك عندما تضع الأسرار في فمك، إن لم تضعها في قلبك، لم تنتفع، وهو ما جعل ربنا له المجد يقول: "الجسدُ لا يفيد شيئًا" (يو ٦: ٦٣)، وهؤلاء هم الذين يضعون الإفخارستيا في أفواههم، وقلوبُهم بعيدةٌ عن الله، فلا ينالون من الشكر، أي الإفخارستيا إلَّا ما يملأ أفواههم.

احذر من أن يستعد جسدُكَ، وتترك قلبَكَ بعيدًا عن الله، فالله لا يطلب الجسد، الذي مهما غسَّلته بالماء وغطَّيته بالقماش، فسوف ينحل في التراب ويأكله الدود، ولا تعود تراه إلَّا جديدًا في يوم المجازاة.

لقد قيل: "في يوم الوليمة مع السمائيين اِتَّخذ من مغيب الشمس رسولًا يناديك إلى البيعة، واسرع لسماع كلمة الله واخزِّنها في قلبك لكي تتغذَّى بها في الليل، وليهذَّ قلبُك في أقوال الرب. لا تتشبَّه بالجهلاء العديمي الحكمة الذين يحضرون إلى البيعة ويسمعون كلمة الرب ويُصلُّون الصلوات، وعند توزيع الأسرار يخرجون ولا يتقدمون.

إن كنت تميِّز بين الإفخارستيا، وكلمة الله، وصلوات القداس، فأنت أشبه

بمن يقترن بامرأةٍ ولا يعرف إلَّا جسدها، وأنت تعلم ماذا قيل عن هؤلاء، فقد وَصَفَهم الأنبياءُ والرسل بالزواني. أمَّا أنت، فبعد أن تستنِر بالكلمة ويتقوى قلبك وجسدك بالصلاة وتستعد روحك، اقترب من مذبح الرب لكي يعطيك جوهرة الحياة الغالية، أي جسده.

واعلم وتحقَّق من أنك في ليلة وليمة المسيح لا تنام إلَّا وكلمة الرب في قلبِك، فتكون سترًا لجسدك ونفسك. هي تستر جسدك لأنها تُقدِّسُ قلبَكَ وتجعل الأرواح النجسة بعيدةً عنكَ وتستر نفسَكَ لأنها تخلع النور الذي فيها عليكَ، أي الحكمة الكامنة فيها، فتتعلم من حكمة الأنبياء والرسل أن الذين يقرأون الكلمة الإلهية، إنما ينالون منها غذاءً يجعلهم مستحقين للغذاء الإلهي، وقد ثبَّت سيدُنا له المجد هذه الحقيقة بقوله: "الكلام الذي قلته لكم هو روحٌ وحياة" (يو ٦: ٦٣)، والرسول أيضًا يقول: "إلى من نذهب وكلام الحياة الأبدية هو عندك، أي منك" (يو ٦: ٦٨).

فالربُّ بالكلمة، كشف لنا طريقَ الحياة، وهو طريقٌ روحانيٌّ عقليٌّ تراه النفسُ بواسطة الكلمة، وتسلك فيه طالبةً الحياة، فاذا لم تهُذّ في الكلمة لتنال غذاء الحياة وترتدي ملابس الحكمة، فما هي منفعة الاستحمام بالماء؟ ها أنت تُشبِه الحنفاء، تغتسل وتغسل ثيابك، أمَّا قلبُكَ فلا يغتَسِل، فكيف تنال أيها الإنسان حياةً جديدةً وأنت ماتزال تعتمد على اغتسالاتٍ لم تُفِد الذين مارسوها في العتيقة؟ فاحترس أيها الإنسان لئلا بتهاونك تُفرِّط في النعمة التي زُخِرت فيك في الحميم الثاني، وهي نعمة الروح القدس، ولئلا بالاستحمام المتواتر بالماء تنسى أن الحميم الحقيقي هو بعمل الله الذي تحقَّق الرسول بطرس منه وقال: "إن المعمودية ليست اغتسالًا للجسد من الأوساخ ولكنها تطهيرُ الضمير ليصير صالحًا لأنْ يقول إن المسيح قام من الأموات" (راجع ١بط ٣: ٢١).

أمَّا أنت يا إنسان الله، يا مَن خُلِقت له، وفداك بابنه الوحيد، وجاء لكي يسكن الثالوثُ المساوي فيكَ، فانتبه لمَن هو حالٌّ فيكَ والذي لم يمنح حلوله بالاغتسالات، وإنما بموت ابنه الوحيد وعطية الروح القدس.

ليلمع جسدك ببهاء المسيح وقوة الروح وليس بالماء والصابون. والذين ينالون من كلمة الله إنما يلمعون ببهاء الحكمة وقوة الروح، فلو ارتدوا خرقًا باليةً قديمةً، فهي تسيء إلى مظهرهم وتدعو الناس إلى احتقارهم، ولكنهم في نظر الله والملائكة، قد تقدَّسوا وصارت لهم طهارة الابن الوحيد وفي صحبة السمائيين. هؤلاء يفرحون بطهارة قلوبهم ونقاء سريرتهم فلا يعودون يتطلعون إلى ألوان الملابس الزاهية، وهي بهجةٌ للعيون وتنال مديح الناظرين، ولا ثمنَ لها في نظر الله.

فاجلس وحدك لتصلي أو مع زوجتك والأولاد فرحًا قائلًا مع الرسول: "ها أنا والأولاد الذين أعطاني إياهم الرب" (عب ٢: ١٣)، ورتِّب بيتك لتهدأ الأعمال جميعًا، وتقف كل حركة، وليُسبِّح كلُّ فردٍ الربَّ لأن يومه العظيم قد دخل، فلا تسمح للطعام والشراب والملابس أن تأخذ قِسمًا من الوقت في بيتك، لأن الآباء الرسل علَّمونا أن نهتم بالأمور العالية السمائية، وقال لسان العطر: "اطلبوا ما فوق حيث المسيح الابن جالس عن يمين الآب واهتموا بما فوق لا بما على الأرض" (كو ٣: ١)، فكيف تهتم يا إنسان بما فوق وأنت مشغولٌ بأمورٍ جسدانية لها قيمة عند الذين على الأرض، وليس لها قيمة عند السمائيين؟

أخبرني ما الذي يجعلك شريكًا للسمائيين، هل نظافة جسدك، أم نقاء القلب وتواضع الفكر والمحبة التي هي رباط الكمال؟ وكيف يمكن للطعام والشراب والاغتسالات أن تنقِّي قلبَ الإنسان؟ احترس لئلا تضع نفسك تحت ساغورة (ساجورة) العتيقة وتصبحُ مثل عبدٍ وُهِبَ عطية البنوة، ولكنه لا يريد أن يخلع السلاسل، فلا هو صار ابنًا ولا هو استطاع أن يستفيد من عبوديته.

فلا تعرِّج بين الفريقين، ولا تسلك كعبدٍ وابنٍ معًا، لأنك قد تخسرهما معًا وتكون مثل الذين شاهدوا ربنا له المجد وهو يعلِّم في الشوارع ويَعِظ ولم ينالوا منه سوى طلعته الإنسانية، وبذلك لم يربحوا لا بركة ناموس العتيقة، ولا قوة كلمة الحياة الصادرة منه.

لا تنشغل بأيّ أمرٍ من الأُمور، لأن القلب المنشغل لا يجد ينبوع السلام بسهولة. ولا تفرض الهدوء والسكينة على بيتك دون أن يكون فيه تسبيحٌ، لأن الهدوء يحرِّك العقل الملتهب بالمحبة، أمَّا العقل الفارغ العديم المحبة، فالهدوء يضره ويزيد الأتعاب عليه. والذين يجلسون عند ينبوع الحكمة، أي الأسفار الإلهية أنفاسُ الله، هؤلاء يجدون في الكلمة تعزيةً وشفاءً من السجس، فيُقبِلون على قراءة الأسفار بعشقٍ، وهؤلاء يطلبون الهدوء ويفضِّلونه على الطعام، ويكون الهدوءُ مثل شهد العسل في حلقهم. أمَّا الذين ينشغلون بأمور هذه الحياة الأرضية إلى الحد الذي تجف فيهم الأشواق، فهؤلاء يهتمون كثيرًا بالأمور الجسدانية حتى في حضور القداسات، فهم لا يعرفون من التقديس إلَّا الاغتسال بالماء، وهو لا يَهَب الإنسان القداسة، لأن ماء الحياة هو الروح القدس.

إن بعض الذين سلكوا في طريق ضلالة ماني واحتقروا الزيجة المقدَّسة مثال اتحاد الرب بالكنيسة جسده، وصنعة الخالق في الخليقة الثانية على شبه السماويات، أي الرب يسوع المسيح إلهنا وعروسه السمائية التي تكلَّم عنها جُليان القديس يوحنا الإنجيلي (يقصد رؤيا يوحنا)، فهي العروس النازلة من عند الله، وهي مسكن الله مع القديسين، والذين رذلوا تجسد ربنا يسوع المسيح بقولهم إن الزيجة نجسة، هؤلاء قد قُطِعوا من شركة الكنيسة الجامعة لأنهم سقطوا في ضلالة ماني.

ومع أن ربنا له المجد لم يُولَد من زرع بشرٍ، إلَّا أنه تجسَّد حقًا ووُلِدَ من

امرأةٍ ووُلِدَ تحت حكم الشريعة العتيقة، لأنه جاء وحَمَلَ ليس خطايانا فقط، بل ثقل الناموس، فالحالُ الظاهرُ أن الربَّ بميلاده من امرأةٍ كرَّم الولادةَ ولم يحتقر خليقته، وهو ابن العذراء البتول.

تكلَّم عن كرامة الزيجة وعن عودتها إلى البهاء الأول الذي لم يتدنَّس بالسقوط، فقد قال ربنا في ردِّه على نفاق الفريسيين: "في البدء لم يكن هكذا"، ثم قال بفمه الإلهي إن ما جمعه الله لا يفرِّقه الهراطقة والضالون والزناة، وما جمعه الله ليس على نجاسةٍ وشَرٍّ، بل ما يجمعه الله هو للتقديس وللحياة (راجع مت ١٩: ٨ - ٩). فقد جمع آدم وحواء، وجمع البطاركة إبراهيم واسحق ويعقوب على نساء فاضلات قديسات هنَّ مثال السيرة الصالحة، وجمع الكنيسة جسده عروسةً نقيَّةً من الشعوب والقبائل والألسنة، وجمعها عندما ضم الطبيعة الإنسانية باتحادٍ منيفٍ لا يُعبَّر عنه. فليس في الاجتماع سوى الحياة والخلاص، أما أضاليل المنافقين المستعبَدين للجسد، والذين يظنون أنهم بالقول الشرير عن الجسد يتخلَّصون من نيره، وهل يمكن أن يتخلص عبدٌ من قيوده لو ظل يلعن القيود طوال أيام حياته؟

إن الرب الذي أحبنا محبةً أبديةً لم يأتِ لكي ينقذنا من الجسد، بل ليُقيمه ويُحييه ويمنحه أن يدخل الميراث الأبدي.

ولو كان الجسدُ هو مصدر الشر حسب نفاق ماني، فلماذا نحتفل بميلاد مخلصنا وبعيد الثيئوفانيا؟ ولماذا أعطانا الحياةَ في جسده ودمه الأقدسين؟ احترس من النباتات السامة، لأن الذين يأكلون السُّمَ يموتون مهما كانت لهم صحةٌ وعافيةٌ، فلا تطلب أن يكون لك شركةٌ معهم، ولا تقرأ أقوالهم ولا تسلك في طريقهم، حتى إن ظهر أنه طريقٌ سهلٌ. احذر الشيطان لكي يحترس الشيطان منك، أمَّا إن تركتَ فكرَكَ مثل حمارٍ شاردٍ، فإن أضعف الأرواح النجسة يجده ويقوى عليه ويقوده إلى حيث لا يشاء.

لا تظن أن فراش الزوجية دَنسٌ، أو أن فعل الاجتماع غريبٌ ونجسٌ. إن البيعة الجامعة الرسولية لم تأمر في القوانين المقدسة بأن يمتنع الإنسان عن الاجتماع بزوجته قبل التناول من الذبيحة المقدسة، وإنما استحسن الآباء ذلك عملًا بالوصية المقدسة التي للآباء الرسل، لأن بولس الرسول البتول الطاهر لم يرذل الزيجة، ولا قال عنها كلام الشر الذي يقوله أعداء الإيمان، وهم ليسوا قِلةً، وإنما رغم أنه لم يتزوج، لم يطلب من المتزوجين أن يمتنعوا على سبيل الأمر، بل على سبيل النصح لكي يكونوا في خِدر الصلاةِ ومقادسَ الصوم.

لا تسمع كلام الأردياء الذين يقولون إن سقطة أبينا آدم كانت اجتماعه مع حواء، وإنها فعل الزيجة الطاهر الشريف. فليس في كُتب البيعة مَن علَّم بهذا التعليم إلَّا الخارجين على الإيمان من الهراطقة. فليس في الأسفار الإلهية ما يُحقِّق هذا القول. وكيف يمكن للأسفار الإلهية أن تتكلم عن فعل الزوجية الطاهر وتصفه بالنجاسة (وتَصمه بالنجاسة)، ثم تصف الخلاص الذي لنا على أنه زيجةٌ بين الرب والكنيسة؟

لقد استحسن الآباءُ أن يكون الامتناع عن فعل الاجتماع بسبب الاجتماع بالرب وبالكنيسة. وما لا يجوز قبل التناول من الأسرار الإلهية لا يجوز بعدها. لأننا نتوبُ عن خطايانا ونعترف بها ونشكر الرب على غفرانه العظيم، ولكننا لا نعود إلى ذات الخطايا بإرادتنا لئلا تصبح توبتُنا نفاقًا، وبها نقع في الدينونة الأبدية. فلا الأسفار الإلهية ولا قوانين البيعة ولا حكمة الآباء علَّمتنا بأن فعل الزيجة ممنوعٌ ومحرَّمٌ، وإنما إن كنّا نستحسن ألَّا نأكل، مع أن الطعام خليقة الله، لكي ينمو فينا شوقٌ إلى خبز الحياة السماوي، لا إلى خبز الأرض الذي مَن يأكله يجوع ويموت مثل المن الذي نزل في القديم من السماء، ولكنه لم يَهب الحياة الأبدية للذين أكلوا منه. فإن كنّا نمتنع عن الطعام ونصوم قبل التناول حتى يتهيأ لنا عدم الانشغال حتى بالطعام، فكيف ننشغل بالأمور الأخرى؟

إنَّ الامتناع هو عمل الإرادة النشطة وانفصال العقل عن الرغبات المقدَّسة، ليتطلَّع القلبُ إلى بهاء السموات وشركة القديسين، فاسأل من الآب السماوي عطية التمييز الصالحة كنز الحياة الأبدية لكي تفهم أن الهدوء قبل التناول هو استعدادٌ سماويٌّ عظيمٌ للوليمة الإلهية. وهدوءُ الجسد هو بالانفصال عن كلِّ الممارسات والأعمال الصالحة؛ مثل الأحاديث والأكل والنوم وفعل الاجتماع، وهي ليست بذاتها شريرةً، وإنما المحبة الصحيحة هي حُسنُ اختيارٍ وتفضيل المقدَّس على المقدَّس، والقلبُ الثابت في المحبة يبتعد عن الكلام حتى لو كان شرحَ الأسفار المقدسة لكي يتفرغ للصلاة، والصمت أفضلُ من الحديث في أيامٍ، والحديثُ أعظمُ من الصمت في أيام الشهادة، فلا تكن مثل "بغلٍ بلا لجامٍ"، بل لتكن المحبة دليلَ حياتِك، فهي دليلٌ يُحسِن الاختيار ويدقِّق في التمييز، لا سيما إن كانت محبتك للرب ولأخيك من بني الإنسان صريحةً. واعلم وتحقَّق أن الذين طلبوا الربَّ وجدوه في المحبة، أمَّا في حصار الفرائض، فالمحبةُ اختنقت ولم يعد لديها قوة حياة، بل صارت شَرَكَ نفاقٍ وخصام.

طوبى لمن يهجُر الطعامَ والكلامَ وأحاديثَ الناس لأنه يزمعُ أن يجلسَ مع الملك العظيم. هذا، بلا زوجةٍ من جهة فعل الاجتماع، وبلا أبناءٍ من جهة انفصال القلب عن المشاغل الجسدانية، وبلا حقولٍ أو بيوتٍ قد تجرَّدَ من كل هذه لكي يتقدس فكره ولا يطلعُ على قلبِه فكرٌ غريبٌ أو شاردٌ، لأنه إذ طردَ الأفكار الصالحة والحسنة من قلبه، فكيف يكون في قلبه بعدُ فكرٌ شريرٌ مضادٌ لصلاح الله؟ ومتى نال الحياةَ من الملك يعودُ كسيِّدٍ ظافرٍ، وينالُ بيوتًا وحقولًا وأبناء وبناتٍ مئةَ ضعفٍ وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية. لأن الذي تحرر من كل هذه وانفصل عنها من أجل الرب، متى عاد إليها، يعودُ كسيِّدٍ وملكٍ، وليس كعبدٍ أسيرٍ للقنية ولغيرها. فإذا لم تفهم طريق الحكمة التي يدعوكَ إليها الرب، يصبح اجتماعك مثل انفصالك لأنك لم تبتغِ المعرفةَ الصالحةَ فيما تعمله، بل سعيتَ وراء الفرائض والأحكام لكي تصابَ ببذرة النفاق، أي إرضاء الناس والسير وراء شريعتهم الفارغة.

احترس من أن تعمل عملًا ما لا تجد فيه صلاحًا ولا حكمةً، لئلا تكون مثل من يُرضِ ذاته ويبتغي أن يصل إلى صلاحٍ حسبَ مقاييس الناس، أي البرِّ المرفوض الذي دعاه إشعياء النبي "خرقة الطامث" أي التي بلا فائدةٍ ولا نفعٍ.

إن كنت لا تستطيع أن تخضع للرب بسبب المحبة، فماذا تنتظر من السيد الرحيم الذي سَلَكَ معنا بمحبةٍ؟ كيف يؤدِّبُنا بالفرائض وهي لم تَخلِق في العتيقة أبناءً بل عبيدًا تعلَّموا من ثقل الناموس كيف يخترعون طرقًا ووسائلَ لكي يهربوا من العمل بالوصية؟

اقتنِ شجاعة المحبة وأنت تتعلم جوهر محبة الرب، وكيف يريد أن يغنيك بعطاياه السماوية.

لذلك قيل: "محبة الرب ليست بالكثرة من الفرائض، بل بتحرُّر الإنسان من الأهواء". فلا تظنُّ أنك تحب الربَّ بالامتناع عن الاجتماع بالزوجة، وإنما تستطيع أن تحب الرب حقًّا إذا تحرَّرتَ من الأهواء وأقبلتَ على الذبيحة بأمانةٍ تامةٍ وتعلَّمتَ كيف يكون العطاء الصالح. ومتى نلتَ هذا العطاء الصالح أدركتك نعمةُ الربِّ فأدركتَ مع مُعينَتِك كيف ومتى يجوزُ الامتناع. ولأن الاثنين جسدٌ واحدٌ، وهما اثنان أيضًا، لم تضع البيعةُ قانونًا بهذا الأمر، بل تركت الاتفاق ليكون هو المرشد والقانون لكي لا يكون هذا سببًا للسجس بين الشريكين، فلا يمتنعُ طرفٌ ويرغبُ طرفٌ، وحتى لا تصير شريعة الله ينبوعَ شِجارٍ وصراخٍ وانفصال.

لقد قيل: "الاعتدالُ هو الطريق الملوكي الذي يخلِّص كثيرين". هذه هي حكمة الآباء، لأن الملك العظيم لا يطلب منّا القيامَ بأعمالٍ فوق طاقتنا، فهو لم يأتِ لذلك الأمر، ولا دعانا لأن نكون في سخرةٍ، بل طلب منّا أن نسلكَ أمامه في المحبة بلا لوم، ومَن يسلكُ في طريق المحبة يسلكُ حسب قدرته وجوهر محبته، وكُلَّما زادت المحبة، كُلَّما صار الطريق أوضحَ وأسهل.

الرأس السابع

# كيف نستعد روحانيًّا حسب الشريعة السماوية؟

إن إلهنا الصالح مُدبِّر كلِّ الخليقة، الذي يُشبع الجياع ويضبط كلَّ الكائنات بكلمة يمينه، هو الذي مدَّ يدَه نحونا بالسلام بمجيء ابنه الوحيد يسوع المسيح. وهو الذي عالج الأمراض القتَّالة التي فينا، فلا تظن أنك تُرضيه بأعمالٍ مجيدةٍ، فهو الذي يعول الكل. ولا تتوهم أنك تستطيع أن تظهر أمامه بعد أن تجمع كل ما عندك من وسائل تطهير واغتسال، فهذه لم يطلبها الرب في العهد الجديد، لأنها شريعةٌ سماويةٌ تصقل الطبيعة الترابية وتعطي لها ماء الحياة الإلهية، أي الروح القدس الذي وحده يحوِّل الإنسان الترابي إلى إنسانٍ سمائيٍّ.

فإن كان قصد الشريعة السمائية أن نصير سمائيين مثل آدم الثاني، فكيف تظن يا مَن تجد سعادتك في أعمال العبيد، أنك بأعمالك تصير سمائيًا؟

لا يجعل الإنسانُ سمائيًا إلَّا الروح القدس الملك السمائي الذي يحوِّل الترابيين إلى شركةٍ معه.

إن كان إلهُنا قد لبس الناسوتية لكي يحوِّل الناسَ إلى أبناءٍ لله وإلى ملوكٍ وكهنةٍ لله الآب، فما الذي يمكنك أن تفعله وهو الذي وجد رضاه في ابنه وحده؟ أمَّا نحن، فقد ضللنا جميعًا، لا يوجد فينا صلاحٌ بالمرة، وكلُّ صلاحٍ نظنُّه فينا هو من الواهب الخالق الذي شاء فوهَبَ لنا كلَّ الخليقةِ، بل والعالم الآتي

أيضًا لأنه قيل عن الإنسان: إن الله أخضع كلَّ شيءٍ تحت قدميه، ولم يجعله محتاجًا إلى ما يعطيه كرامة الملك، بل وهبه بسخاءٍ. فلا تظن يا هذا إنك إذا قدَّمت الكون بما فيه أنك تُرضي الله أو تحوزُ دالةً عنده. لا تجعل هذا الفكر يسكن في قلبك لئلا تظن أن الكون هو مِلكٌ لك أنت وليس مِلكًا لمن خَلَقَه ويعوله. فإن كان الأمر كذلك، فاجعل عينيك على طريق الحياة وليس طريق الموت، وطريقُ الحياة هو أن تحب الربَّ إلهك من كلِّ قلبك، فلا تترك بغضةً أو عداوةً لأخيك مهما كان.

وطريق الموت أن تَقسِم قلبَك إلى قسمين، قسمٌ للشيطان والرذائل، وقسمٌ للرب وشريعته الفاضلة. فقد كشف الربُّ بفمه الإلهي هذا الزيف بقوله: "لا يستطيع أحد أن يخدم سيدين" (مت ٦: ٢٤)، فالقلب المنقسم شاردٌ، لا تصلح معه كلمة التعليم ولا يستفيد بما يُقال له ولو صُبَّت الحكمةُ في كأسٍ وشربها.

نقاءُ القلب هو الثوب الملوكي الوحيد الذي تظهر به أمام الرب، والذي قال هو عنه بفمه الإلهي: "أنقياء القلب يعاينون الرب ولذلك لهم الطوبى" (مت ٥: ٨)، من أجل هذا اعلم أن نقاء القلب لا يأتي إلَّا بعلامة الصليب، أي جحد الذات، فهو الذي يُطهِّر ضمير الإنسان وينقِّي عينيه، فيُبصر طريقه جيدًا. أما الذي ما يزال سجينًا في أفكار قلبه، فهو مثل طائرٍ بلا جناحين يتطلع إلى الأفق، ويظنُّ أنه سوف يُحلِّق في الأجواء، بينما هو مسكينٌ لا يقدر أن يتحرك ذراعًا واحدًا.

من أين تنبع الشرور؟ حقَّق ربُّنا الطبيب الوحيد الذي يعرف ضعفات البشر وأمراضهم الخفية أنه من القلب تنبع كلُّ الشرور، فإذا لم تهتم بقلبك وغَلَبَك الاهتمامُ بنظافة الجسد، فكيف تقف أمام محب البشر الملتهب بنار محبته الربانية، وأنت مثل غصنٍ جافٍ بلا ثمر؟

ضع في قلبك أن تجعل الصليب، أي معموديتك أمام عينيك، لكي يُنقِّي الصليبُ فِكرَكَ. والصليبُ ما هو الوشم ولا قطعةً من خشبٍ يصنعها نجارٌ، وإنما هو الحياة المعلَّقةُ بكلمة الله، كما قيل عنه: "وترى حياتك معلَّقةً أمام عينيك". وقد عُلِّقَ الربُّ على الصليب ليصير أمام الخليقة التي تطلبه مثل منارةٍ ومصباحٍ، فحقَّقَ بذلك أنه "نورُ العالم"، وأن كلَّ مَن يمشِ خلفه لا يتوه في الظلمة البرَّانية، لأن الظلمةَ لا تقف أمام النور، ولا تتجاسر على الوجود حوله. ومن أجل ذلك، أُطلب أنتَ النورَ الحقيقي يسوع المسيح الذي غرس الصليب شجرةَ حياةٍ تُطهِّرُ القلبَ من محبة الذات. فآدم عصى وتكبَّر، ولما صارت ذاتُه ضخمةً عنده، ولذلك اشتهى أن يصير مثل الله، لأنه لم يرَ في الكائنات الأخرى مَن هو جديرٌ بأن يتشبَّه به، وقد كان من العدل أن يسألَ نفسه: كيف يُصبح المخلوقُ الذي يستمد حياته من الله مثل الله؟ وكيف يتحول الطينُ إلى نار اللاهوت؟ ولكنه من أجل ضخامة ذاته عنده واعتبارها شيئًا عظيمًا، وهي حقًّا كذلك ولكن ليس من دون الله المبارك، فقد سقط في تيه الخيالات وتعب القلب، وأصاب الإنسانيةَ بذلك الجُرح المميت. ومنذ ذلك الزمان، وكلُّ إنسانٍ يُولَد وفيه هذا المرض الخبيث الذي هو الموت. وحقَّق الرسولُ ذلك بقوله: "في آدم يموت الجميع وبإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت" (رو ٥: ١٢).

ولماذا مات الإنسان؟ لأنه عندما تاه عقلُه وتصوَّر أنه مثل الخالق المبارك القدوس، في تلك اللحظةِ عينها، وَصَلَ إلى حافة العدم، وكادت رجله أن تسقط، لولا رحمة ضابط الكل الآب المُشفِق، لأن آدم صار مثلَ إنسانٍ أراد أن يحمِلَ جبلًا على يديه وهو غيرُ قادرٍ على حَملِ نصف أردب، ولكن لما مدَّ يده وشاء أن يحمل هذا الحِملَ الثقيل، تَلَفَت يداه، وصار له عَطَبٌ مخيفٌ، وهو الموت. إنه مثل قطعة قماش ربطوها في حَجَرٍ ثقيلٍ وجذبوها، فتخرَّقت واختفت ملامحُها. ولمَّا نَظَرَ الإنسانُ ما حلَّ به، صَعُبَ عليه الأمر، فَدَخَلَه حُبُّ

الذات من تلك اللحظة، وصارت ذاتُه مفضَّلةً عنده أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، وَسَدَّت عليه منافذُ الرؤيا. فالعينُ صارت لا ترى إلَّا ذاتها، والعقلُ لا يُحبُّ إلَّا فكرَه الخاص، والإرادةُ لا تميلُ إلَّا إلى هوى النفسِ فقط. وهذا جعل تعزيةُ الناسِ بالله أقلَّ، والاهتمامُ بالكلمة الإلهية معدومًا، وبالجملةِ دبَّ العَطَبُ والفسادُ في الإنسان.

ولما جاء ربُّنا له المجد، أخذ جسدًا، وعلَّم الإنسانَ -بالتجسُّدِ- كيف لا يهتم بذاته، بل يجحدها. لأن الذي لا يجحد ذاتَه لا يُحبُّ محبةً حقيقيةً.

وعلَّمه أيضًا -بالصليبِ- كيف يغلبُ محبةَ ذاته، وذلك بأن يقبل أن يموت. وكلُّ مَن مات مع الرب وصُلِبَ معه وفيه أيضًا، نَزَل إلى مياه الأردن، أي مياه الحميم، فهذا الإنسان ينال حياةً جديدةً تفيضُ من الربِّ بقوةٍ أكثرَ مِن قوةِ الفساد التي فاضت من آدم أبينا الأول.

وعندما نموت مع المسيح في المعمودية كما قال الرسول في رسالته إلى رومية، نخلعُ الطبيعةَ العاشقَةَ لهواها ونموت عنها، فينمو فينا حِسُّ الفضيلةِ وتعود الحياةُ الأبديةُ؛ نعمةُ شركة الروح القدس تجد راحتها فينا. والإنسانُ الذي يطلب نعمة الحياة الأبدية، فهذا يجد السلام في العطاء، لأن عقل الإنسان الساقط ملوَّثٌ بالزمنيات، يعشقها ويُحبُها، أمَّا عقل الإنسان الذي صُلِبَ مع الرب في المعمودية، فهو الذي يتأمَّل الأبديات ويطلبها ولا يجد العزاء إلَّا فيها.

وهكذا، تعلَّم أنت يا إنسان الله من آدم كيف تلوَّث قلبُه، واطلب النقاوة لأنك لا تنال باستحقاقٍ جسدَ ودمَ ربنا إلَّا بعد أن تموت حياتُك. كيف يعطيك هو ذاتَه، وأنت تَضِنُّ عليه بذاتِكَ، هو يقدِّمُ حياتَه قربانًا وأنت لا تقدِّمُ شيئًا، بل تتجاسر وتقدِّمُ جسدًا مغسولًا بالماء وقلبُك غارقٌ في الكراهيةِ ووَحلِ العداوةِ وظلامِ الجهلِ بشريعة الحياة.

الموتُ عن الذات وعن أشواقها إلى اللحمِ هو عِطرُ الاستعداد للإفخارستيا، فالإنسان الذي يتعطَّر بهذا العطر تُبصِرَه الملائكةُ فتفرح به، تراه فتلتفُ حوله، لأنه يحمل صورة المصلوب يسوع المسيح ربنا. والذي يموت عن ذاتِه، يُدرِكُ كيف سقط آدم، وكيف أحبَّ الجسدَ واتَّكلَ فكره على اللحم والدم، فصار المنظورُ عنده أعظمَ من غير المنظور.

بقيةُ الشّرِّ الأول هي تفضيلُ الخليقةِ على الله، ومحبةُ الجسد أكثر، والاتكالُ على القوة المنظورة، والافتخارُ بالجسد وأعماله، وهو قِلةُ الحياء وانعدام الخوف، والهربُ من قول الحق. هذه هي النجاسات التي لا يمكن للماء أن يغسلها، وإنما حميمُ الروح القدس الذي سَكَبَه اللهُ علينا في المعمودية المقدسة.

استعد أنت بطهارةِ قلبِك، وفتِّش فكرَك ولا تجعل الشرَّ مخبوءًا فيه حتى تدخل وليمةَ الملك العظيم وأنت في بهاء الحياة. والشرُّ يختبئُ ليس في صورة الفكر وخيالاته، فهذه هي الفروع، وإنما أصلُ الشجرة هو شهوة العيون والحياة حسب كبرياء إبليس، واعتبار أن شهوات الجسد لازمة للوجود وبدونها الإنسانُ ميِّتٌ.

اختبئ يا إنسانَ الله من هذه الشرور، ولا تجعلها في قلبك لأنها هي الموتُ بعينه. هلُمَّ الآن وانظر ماذا جَلَبَت شهوةُ العيون على آدم وحواء. ليست الشهوةُ في العين، وإنما أصلُها في القلب، ولأن القلبَ غيرُ مستقيمٍ، رأى الشجرةَ فصارت عنده شهيَّةً ولم يختشِ من الخالق الذي لم يَضِن عليه بشيء.

وأمَّا الكبرياء، فهي تفضيلُ الإنسانِ لحياته عن حياة الآخرين، وهي السقوطُ التام في الموت، وهي أصلُ كلِّ الرذائل. قبَّحَ اللهُ الكبرياءَ لأنها أسقطت رئيس

طغمات سمائية من رتبته. من أجل هذا، كلُّ الذين يطلبون الكبرياء، إنما يطلبون التغرُّب عن الله. لماذا يرفضُ اللهُ المتكبرين؟ لأنهم يرفضون النعمة والمعونة ويظنون أنهم آلهةٌ قادرون على كلِّ شيء. هؤلاء إذ ضمُّوا أيديهم ولم يبسطوها طلبًا لمعونة الرب، يطرحهم الرب في بحر عدم الاهتمام حتى يغرقوا في لججٍ ومصائبَ كثيرةٍ، ولكن إن مدوا أيديهم إلى الله، فهؤلاء يجدون عنده رحمةً.

من أجل ذلك علَّمتنا الكنيسةُ أن نرفع أيدينا إلى فوق، طلبًا لمعونة الله وإشهارًا لعجز بشريتنا عن البقاء في الصلاح. كما علَّمتنا أن نمد أيدينا أيضًا دلالةً على عجزنا، نحن نقف مثل الشحاذين أمام الملك الواهب الحياة. وانظر كيف يقفُ الكاهنُ على باب الأسكنة، وبعضُ الشيوخ يستند على باب الأسكنة مثل شحاذٍ. فلا تظنُّ أنك بالاتكال على ذاتك تنالُ شيئًا.

أنت تقترب من السِّرِّ المجيد، أي سِرِّ ربنا، جسده ودمه، هو تنازَلَ عن حياته لأجلك، فكيف تتناول يا مَن تتكل على القماش والزيت وزينة الجسد، ولا تبسط يديك أو ترفعهما طلبًا للمعونة؟

واعلم أن الصلاةَ ليست ترديد الكلام مثل الأُمم، وهو ما نهانا عنه سيدنا، ولا حتى ترديد الكلام بفهمٍ، وإنما هي الطلب الحقيقي الصادر عن احتياج.

# الباب الثاني

الرأس الأول

# في أن البيعة هي جسد المسيح الواحد

بعد سقوط آدم تمزَّقت الطبيعةُ الإنسانية وسقطت مثل قطعةِ زجاجٍ تهشَّمت وتبعثرت. فالروحُ صارت تفكر في حياتها السمائية قبل السقوط والأسرار الحلوة التي كانت تشاهدها، ولكنها عَشِقَت الجسدَ ولذَّاته الدنيئة ووجدت فيها متعةً. والعقلُ الذي كان يتأمل الإلهيات ويجد فيها سعادته، وَجَدَ أن الإلهيات صارت صعبةً وغيرَ مفهومةٍ لأن بَصَرَ العقلِ ضُرِبَ بالخيالات الفاسدة، وانحلَّت قوة الإدراك ولم يَعُد الإنسانُ قادرًا على أن يرى الأبديات الباقيات، فانحطَّ فكرُ الإنسان وسَقَطَ وفَقَدَ إدراك الأبديات، وصار يتطلع إلى الأرضيات بلذةٍ وشغف. فانظر مقدار الانحطاط الذي آل إليه آدم، والذي انتشر في كل الناس، حتى الذين لم يشتركوا معه في المعصية، هؤلاء تعلَّموا الشَّرَّ من الذين عاشروهم، وحتى الرضعان الذين لا يميِّزون بين الخير والشر ينشأون وهم على سمة آدم في تفضيل الترابيات والاهتمام بالأرضيات، فتظلَّمُ البراءةُ التي فيهم شيئًا فشيئًا لأن العقلَ صارَ بلا شركة مع الله فانتهى إلى الموت، أي فُقدان الحسِّ والحركةِ بشوقٍ نحو الله خالقه.

أمَّا ما آلت إليه الإنسانية، فقد كان شرًّا فظيعًا لا مثيل له، لأن الإنسان صار عدوًّا للإنسان، وصار مآل الإنسانية إلى أن تقتل نفسها في الحروب والخصام والمنازعات، وبالإضافة إلى هذا سادت الأرواحُ الشريرةُ على كلِّ الجنس البشري، لأن العقل الذي لا يعرف الله يصيرُ بالضرورة أليفَ الشيطان وصديقه، ولا يجد في الخير أيَّ سعادةٍ، فيصبح مثل المُهلِك.

لأجل هذا تحنن الله وتجسَّد وجاء من السماء، أي بلا زرع بشر لأن الأرض لا تُنبِت سوى الأرضيات ومآلها إلى الفناء. وَحَلَّ في بطن البتول القديسة والدة الإله، وتأنس وصار مثلنا في كلِّ شيءٍ بلا خطية. لأن القدوس متى حلَّ في وسط النجسين، تصير نجاستُهم كلا شيء.

واعلم أن اتحاد اللاهوت بالناسوت هو اتحادٌ قائمٌ على إرادة الإله الخالقة التي أبدعت كلَّ شيءٍ من العدم، فهي لا يمكن أن تُغلَب من ضَعف الطبيعة الإنسانية وإنما العكسُ صحيحٌ، فاللهُ غالبٌ وهو وحده القادرُ على أن يحوِّل الشّرَّ إلى الخير، ويُشرِق بنوره في الظلمة حسب قول الإنجيلي يوحنا.

ولما جاء ربُّنا الإله من الإله من السماء، فقد شاء ألَّا يُولَد مثل سائر أبناء آدم، لأنه كيف يمكن لمن جَبَلَ آدمَ بلا فسادٍ في البدء أن يتجسَّد ويُولَد من آدم الميِّت الفاسد الخاضع للشيطان؟ ولكنه، بالروح القدس، أخذ جسدًا مثل أجسادنا بنفسٍ عاقلةٍ حُرةٍ مُريدةٍ، وعندما هيَّأ جَسَدَه، أخذه واتَّحد به اتحادًا أُقنوميًّا فريدًا لا مثيلَ له.

وكيف كان التجسُّد إصلاحًا وميلادًا جديدًا للجنس البشري؟

ألا ترى أن انعدام الروابط بين الإله المتجسِّد وذرية آدم هو بقاءُ الابن الوحيد متجسِّدًا بلا أخوةٍ وأخوات؟ فإن كان قد جاء لكي يشاركنا، فأين تتم هذه الشركة إلَّا في البيعة الجامعة الرسولية التي يضمُّ إليها كلَّ الشعوب والقبائل والألسنة ويُصيِّرُهم أخوةً وواحدًا مثل أعضاء الجسد الواحد؟

ولأن ربَّنا تجسَّدَ، دُعيت الكنيسةُ جَسَدَه، ودُعيت البيعةُ لأنها مُباعةٌ له، أي صارت مثل القِنية، ودُعيت كنيسةٌ لأنها مختارةٌ وواحدةٌ، فهي جماعةٌ ذات قلبٍ واحدٍ وجسدٍ واحدٍ هو جسد ربنا يسوع المسيح الواحد من اثنين؛ لاهوتٌ من الآب وناسوتٌ من العذراء حسب التدبير. وبقولنا: لاهوت، أشرنا

إلى أزليته. وبقولنا: ناسوت، أكَّدنا تجسُّدَه. وبقولنا: ربٌّ واحدٌ يسوع المسيح، شجبنا أريوس ونسطوريوس المنافقين. لكن ذلك الاتحاد الفائق بين اللاهوت والناسوت هو خِطبَةُ الجنس البشري بأسرِه، لأن يسوع المسيح ربنا يجمعُ في ذاته كلَّ البشرِ كما جَمَعَ آدمُ الأول كلَّ ذُريته، ذاك على مقتضى الطبيعة، أمَّا ربُّنا فعلى عمل[1] السماء وقوة النعمة. ولما جاء ربُّنا يسوع وتجسَّد، أقام الكنيسةَ بيتَه السمائي الواحد الذي هو مختارٌ من الأرض، ولكنه ينال قوة السمائيات، لأن الذي أقام الحياةَ ليس مثل الذي غَرَسَ الموت وسلَّم الإنسانية إلى عدوها الشيطان.

فالبيعةُ بناءٌ إلهيٌّ وليست بناءً إنسانيًّا، فالإنسانُ الذي يريد أن يتعلم أسرار الله عليه أن يرى كيف أن الدار الخارجية تفتح على قدس الأقداس، أي الأسكنة موضع الغفران.

والذين يأتون من الخارج يجدون في البيعة القسم الأول حيث يقف الشعب، والقسم الثاني، أي هيكل الرب ومذبحه، لأن ذلك التقسيم دلالةٌ على النعمة وعلى نزول ربنا من عند الآب واتحاده بنا مثل اتحاد الرأس بالجسد. فالرأسُ هو هيكل الرب حيث المذبح الذي يُوضَع عليه القربان، والجسدُ هو الدار التي يقف فيها الشعب، لأن البيعة مثل جسد الإنسان تنتصبُ على الأرض في شكل آدم الجديد.

ولأن ربنا يسوع المسيح هو واحدٌ معنا بالجسد، وَضَعَ الآباءُ ترتيبَ السِّتر الذي يفصل الأسكنةَ عن الدار، لأن السِّترَ يُشيرُ إلى أن الأسرارَ الفائقةَ تُعلَن في القداس عندما يفتح الكاهنُ السِّترَ، فندخل السماء، أي موضع الابن الوحيد.

أمَّا حِجابُ الهيكل، فقد وُضِعَ لكي يحجب المذبح، ليس بسبب الأخطار

(١) أي على حسب تدبير السماء.

التي تتعرض لها الأسرار من الحنفاء، وإنما لكي يعلم كلُّ مَن يدخل أنه لا يدخل بيتًا أرضيًا، بل يتمهَّل لكي يتأمَّل كيف هو داخلٌ وسببَ دخولِه.

ولأن ربَّنا يسوع المسيح هو قائمٌ معنا على الدوام، لا تُغلَقُ الأبوابَ إلَّا في جمعة الصلبوت كما أشرنا.

وحسب ترتيب البيعة، لا يدخلُ الأسكنةَ إلَّا الشماس والقس والأسقف، وما دخول الشعب إلَّا تهاونٌ سبَبُه أن لا تخرجُ الأسرارُ إلى الخارج حتى يُعلِّم الشمامسةُ والخدامُ، الذين يريدون أن يتقربوا، فلا تنظر إلى أعمال هذه الأيام، بل ابحث في كُتبِ البيعةِ وأنت تجد أن الذين يحضرون القداسات كانوا جميعًا رجالًا ونساءً وصبيانًا وأطفالًا يتناولون الأسرار الإلهية. أمَّا في هذا الزمان، فإن الذين يحضرون ويتقربون هم قلة.

ولأن المعصيةَ مزَّقت الطبيعة الإنسانية، وجعلت كلَّ إنسانٍ ضد أخيه، أقام الربُّ الكنيسةَ جسده، لكي يصالح الكلَّ ويعطي لكلِّ الذين يرغبون في الاتحاد به والشفاء من الانقسام وحدةً روحيةً. ولأجل ذلك، رُتِّبت البيعةُ من الداخل ليكون البناء مثل ترتيب الأسرار، ففَصَلَ الآباءُ بين ثلاثة مواضع، الموضع الذي فيه المذبح ويُقرَّب فيه القربان، والموضع الذي تُعلَن فيه كلمة التعليم، وهو باب هيكل الرب، والموضع الذي يقف فيه الشعب، وهو الدار الخارجية وموضع المعمودية المقدسة.

فالبناءُ من الداخِل مثل البناء الروحي. فالداخِلُ إلى البيعة لا يدخلُ القدسَ من دون أن يمرَّ على المرحَضة ليغتسل كما كان يفعل الكهنة قديمًا، ولكن الاغتسال كما شرحنا، ليس بالماء وإنما بالروح، وبعد ذلك يتمهَّر بكلمة التعليم، ثم يتفرَّس في هيكل الرب موضع الغفران.

البيعةُ هي بناءٌ إلهيٌّ لا يدخله الإنسانُ إلَّا إذا تقَّدس لكي يسلك بوحدةٍ

مع غيره من الذين تقدَّسوا، لأن الذي قدَّسَ والذين تقدَّسوا هم من أصلٍ واحدٍ، أي من جذرِ داود وأصل يسى ربنا يسوع المسيح الذي ضمَّ إليه الكلَّ في وحدةٍ واحدة، وبعد أن ينقِّى الجميعَ من المعصية الأولى، ويغسل الطبيعة الفاسدة ويطهِّرُها في جرن المعمودية، يأتي بها إلى موضع التعليم وإلى موضع الأسرار، لكي يحيا الإنسان على مجاري ماء الحياة، أي الأسفار ويأكل من شجرة الحياة فيُشفى.

هذا ترتيبٌ إلهيٌّ لأنه لا يتطلَّعُ على الأسرار إلَّا من ينالُ قوةً من الأسفار الإلهية وتسري فيه قوة كلمة الله.

واعلم أن كلَّ الأسرارِ تُمارَس خارج الأسكنةِ، ولا يُمارَس في الأسكنةِ إلَّا السِّرَّ الفائقِ، سِرُّ جسدِ ربنا ودمه، فهو وحده الذي يقدَّم على المذبح وفي هيكله، لأنه سِرُّ الرأس، أي المسيح، أمَّا باقي الأسرار فهي تُقام خارجَ الأسكنةِ لأنها سِرُّ اتحاد الرأس بالأعضاء، فهي نابعةٌ منه مثل الأعصاب والعظام واللحم كقول الرسول بولس، وتُعطى للأعضاء من أجل رِباط الكمال واتحادهم بعضهم ببعض وبالمسيح. وكلُّ شيءٍ يُقام خارج الأسكنة هو سِرُّ اتحاد البيعة، حتى الجنازات. أمَّا عند خدمة الأسرار، فتُفتَحُ ستارة الهيكل لكي ندخل السماءَ عينها.

ومِن السماء تأتي بشارة الإنجيل أثناء خدمة القداس، لأن المسيحَ رأسُ الكنيسةِ أعطى سِرَّ الإنجيل المقدس للذين يسمعون كلمة التعليم بفَهمٍ، وهو الأمرُ الذي يجعل الكاهنَ يرفعُ الإنجيلَ فوق رأسه صارخًا: "مبارك الآتي باسم الرب، سبِّحوا الرب لأنه بالمجد قد تمجَّد". فعبارةُ العتيقةِ تُعلِن قبلَ قراءة الإنجيل أن الربَّ غَلَبَ الانقسام وعَبَرَ بالشعب إلى أرض الموعد ودَخَلَ إلى داخل ميراثه بين الأُمم عندما أقام الكنيسةَ. ولنفس السبب يُقال: "سبحوا الرب لأنه بالمجد قد تمجَّد"، وهي تسبحةُ غَلَبَةِ العدوِّ وانتصارِ الملك الحقيقي

الربُّ الآتي بالجسد على فرعون الحقيقي، أي مَلك الإثم الشيطان عدو جنسنا. وكما ذكر يوحنا الإنجيلي في الجُليان أن الربَّ غَلَبَ وقَهَرَ مبغضيه، فيخرجُ من صهيون الذي يردُّ الفجورَ، وهو علامةٌ على النعمة الفائقة التي أخذناها فيه؛ قَهرُ الأرواح الشريرة المعاندة.

والغلبَةُ التي أعطاها الربُّ على الصليب تجعلُ الشماسَ يتقدم الإنجيل رافعًا الصليب مناديًا للشعبِ أن يقِف ويرى خلاصَ الربِّ، ليس بقتال السيف، وإنما بسماع كلمة الحياة بقوله: "قفوا بخوفٍ واسمعوا الإنجيل المقدَّس". ولأن كلمةَ الربِّ حيَّةٌ وقادرةٌ على أن تخترق النفس والجسد وتكشف كلَّ نيَّاتِ الإنسان الباطن، وتُعلِن نواياه الحقيقية له، فالإنسانُ يرى في قراءة الإنجيل حُكمَ الديان العادل على موتِ الإنسان العتيق وفساده، والوعدَ بتجديد العتيق. وهذا هو السيف الذي به نغلب، لأنه سيف روح الله.

في الزمان السالف كانت المعموديةُ عند الباب، لأنها البابُ الحقيقيُّ لدخول الكنيسة، وبدونها لا يدخلَ أحدٌ إلى البيعة، ولكن صعوبة الأيام جعلت السابقين علينا يفضِّلون أن تكون عند المذبح على الناحية اليُمنى. وقد عدَّلَ الآباءُ في ترتيب البيعة اعتمادًا على رؤيا[1] حزقيال عن نهر ماء الحياة الذي ينبُع من على يمين المذبح ويخرج إلى الخارج من تحت عتبة الأسكنة، وهو مثال الحميم الجديد الذي بالروح القدس. وعندما قرَّرَ الذين سبقونا أن يغيِّروا ترتيب البيعة من الداخل، فقد اعتمدوا على كلمة الله الحيَّة، لأن ترتيب البناء يجب أن يكون كمثال الأسرار الإلهية.

وأمام الأسكنة يُوضَع سراجُ الربِّ، أي المنجلية التي تُتلى من عليها الأسفار، لأنها تنير عقل الإنسان وقلبه وتؤهِّلُه لتناول الأسرار الإلهية.

---

(١) قول الرب.

واعلم أن الكلمة تسبق الأسرار في كلِّ شيء، لأنها **أولًا:** تُخبِر عن عمل الرب. **وثانيًا:** تُزيل ظلمة الخطية من النفس، وتجعل نعمة الروح القدس تُشرِق على الإنسان، فيتطهر. من أجل ذلك وضعَ الآباءُ المنجليةَ كسراجِ الرب أمام المذبح، لأن الترتيب الإلهي هو قيام عهد الرب معنا بالوعد الذي في كلمة الله الحية الأسفار، وبالذبيحة التي بها دخلنا قدس الأقداس، أي السماء بعينها.

ووضعُ المنجلية والمذبح في البيعة هو ترتيبٌ قديم تسلَّمناه من سيدنا نفسه الذي بعد أن قرأ الأسفار في المجمع[1] قدَّم نفسه ذبيحةً على الصليب قربانًا للآب السماوي، فصار بذلك رئيسَ كهنةٍ. وإذا قرأ الإنسانُ الأسفارَ حسب وصية الرب نفسه: "فتشوا الكتب" (يو ٥: ٣٩)، استطاع أن يدرِك الأسرار ويفهمها. والذي يدخل البيعة يرى الأسفار قبل أن يرى الأسرار، لأن درجة الموعوظ تسبق درجة المعمَّد.

وهكذا، بسرٍّ فائقٍ يتم اتحاد المؤمنين بقلبٍ واحدٍ في المعمودية المقدسة، وبفهمٍ واحدٍ في كلمة التعليم، وبإرادةِ محبةٍ واحدةٍ في سرِّ الأسرار جسد ربنا يسوع ودمه.

تأمَّل ذلك البناء المحكَم الذي أقامه الربُّ، لأن الذين اعتمدوا ونالوا طبيعة الأبناء يتعلَّمون كأبناءٍ حكمةَ الحياة الجديدة في موضع التعليم، ولا يأكلون إلَّا من شجرة الحياة، أي جسد ربنا يسوع المسيح ودمه، الذي كلُّ مَن يأكل منه يحيا إلى الأبد. فتحقَّق كيف نرتبط بالرأس الواحد الذي أسَّس البيعة، والذي أسس الأسرار، وشرح الأسفار، وأنهضَ الطبيعة المائتة الغارقة في فساد الخطية إلى حرية مجد أولاد الله. ترتيبٌ حكيمٌ لا يفهمه إلَّا كلُّ مَن ذاق حلاوة الأسرار واكتسى بمجدها، ومَن يفعل ذلك إلَّا الذي يخلع الطبيعة الفاسدة العتيقة؟

---

(١) المجامع.

الرأس الثاني

# كيف نميِّز الخُدَّام الساقطين؟

إن مقدار كرامة خدمة الرب في قوله المبارك: "حيث أكون أنا يكون خادمي" (يو ١٢: ٢٦). وخدمةُ الربِّ مجدٌ عظيمٌ ظَهَرَ في العتيقة بشكلٍ نوراني مرئي للعينين الترابيتين، حتى أن الشعب ارتعب وطَلَبَ من موسى أن يضع برقعًا على وجهه لكي يغطي مجدَ الرب، لأن الشعب نفسه لم يكن قد أخذ نعمة الروح القدس واستحال عليه أن يرى بهاء الرب ومجده الذي شعَّ من وجه موسى بشدة.

أمَّا في البيعة المقدسة جسد المسيح، فإن كلَّ أمجاد الابن الوحيد وتقديس الروح القدس قد وُهِبَ لها من لدُن الآب ضابط الكلِّ، فصار بذلك فيها بهاءٌ يفوق ذلك الذي أخبَرَت عنه العتيقة، لأن الله لم يكن يسكن في وسط الشعب كما يسكن الآن في البيعة، إذ لم يكن ذلك الشعب جَسَدَه، فالابنُ الوحيدُ لم يكن قد تجسَّد، ولا انسكب المعزِّي على كل البشر. وكيف لا تكون الكنيسةُ بيتَه أشرفُ وأبهى من كلِّ آيات العتيقةِ، وهو ما حقَّقه الرسول بقوله: "وبيته نحن"، لأننا صرنا كذلك حجارتَه الحيَّةَ التي نحتها الربُّ نفسه بالصليب، ونفخ فيها نسمة الحياة فصارت حيَّةً، وربطها ببعضها في رشم الميرون، فهو الأربطةُ التي تجمع الأعضاء في وحدةِ وائتلافِ الجسد الواحد، ثم كساها بلحمٍ جديدٍ هو جسده المقدس، وقد سبق النبي فرأى البيعةَ ملقاةً في جبانات الأُمم في الوادي المظلم المملوء بالعظام اليابسة، ولكن الروح تطلَّع عليها وعَبَر، فصارت العظامُ الميتةُ بشرًا كساهم الروحُ بلحمٍ جديدٍ هو

جسد الرب المخلِّص ومحيي الكل، لأن اللحم القديم كان نجاسةً ولعنةً بسبب الموت وانحلَّ في التراب، أمَّا اللحمُ الجديد، فقد جاء به الربُّ من السماء، جسده المقدس المولود بلا زرع بشر، وهو ما جعله سمائيًّا وواهبَ الحياةِ لكلِّ الخلائق.

الذين قاموا مع المسيح يطلبون مجد المسيح، ولا تعودُ أمجادُ العالم بكل ما فيه تُغري قلوبَهم بالابتعاد عن الرَّب الذي أحبُّوه، وهم من أجل ذلك يطلبون المجد الذي لا يفنى، ويسعونَ وراء الربِّ حاملين الصليب في طريق الآلام. ومع ذلك، فهو النير الخفيف الذي يخضع له الإنسان عن رغبةٍ لا عن رهبةٍ، فهو حياةٌ لكل مَن يطلبه.

فإن كانت البيعةُ هي بناءَ الله، ومن جسد ابنه وعظامه، وفيها عطايا الروح الدائمة في الأسرار السمائية التي تُعطي حياةً لكلِّ مَن يطلبها، فكيف يدخلُ الأسكنةَ ويخدم هذه الأسرار إلَّا العالِمين بها الذين تمهَّروا في الأسفار، وتسلَّموا طريقَ الحياةِ من الشيوخ؟ إنه ليس بغضةً لأحدٍ ولا مشاقةَ علَّمتنا الكُتب البيعية أن نختار الكهنةَ ونقيمهم، بل لأجل الاحتراس، فشهادةُ الشعب أعظم من شهادةِ فئة من الشعب، وفراسة الذين يختارون ليست مثل فراسة واحدٍ. وإن كان الروح القدس هو الذي أقام الكنيسة جسد الرب من عظامٍ ميِّتَةٍ، فكيف يخدم هذا الجسد مَن ليس فيه الروح القدس، ولا نال عطية الأُبوةِ من الآب؟ وكيف تصير أُمورُ البيعةِ بلياقةٍ وحُسنُ ترتيب الأسرار السمائية، بينما الذين يحملون الأسرار لا يعرفون عنها شيئًا؟

البيعةُ بِناءُ الله لا يُدرِكُه إلَّا الذين ِمن الله، وهؤلاء تراهم في البيعة وتعرفهم من سلوكهم وأسلوب حياتهم، وإن عَجَزتَ عن هذا، فمِن أقوالهم وبشهادة الشعب يُقامون خُدَّامًا للأسكنة السمائية، لأنهم أتقنوا الأسرار الفائقة عندما كانوا معنا. فإذا وقفوا في باب الملِكِ حَسُنَ عندهم مخاطبة الملِك،

واستطاعوا أن يعلِّموا الشعبَ الصلاةَ الحسنةَ، أي تلك التي حسب مشيئة الله، ونقلوا له نهرَ الحياةِ من دِفافِ الكتبِ إلى القلوب، أي حكمة الله الحيَّة التي إذا قرأها إنسانٌ في الأسفار المقدسة، عاشت فيه المعرفة الحقيقية الواهبةُ الحياة.

التصق بالرب وأنت تعلم بُطلان العالم، فتُسرع إلى البيعة، وداوم على قراءة الأسفار، فلا يطلبُ قلبُك أيَّ أمرٍ من أُمور الخليقةِ، ولا يُغريك جبالُ الذهب على البقاء تحت سلطان الشيطان، بل تظهر لكَ كلُّ الخليقة العاقلة وغير العاقلة أنها بلا الله عديمةُ الحياة، وإنها مثلُكَ تحتاجُ الربَّ مصدر الحياة، ومشتاقةٌ للخلاص الذي سوف يُظهِره الربُّ في نهاية الدهور عند مجيئه العظيم للدينونة.

اهرب لحياتك، ولا تُبقِ في قلبك أيَّ رغبةٍ ذاتيةٍ، حتى ولو بدت لك طاهرةً، لأن هروبك يجعل عينيك قادرتين على تأمُّل رأسَ الحية المختفي داخل ثيابٍ ملونةٍ ظاهرةِ البراءة، وهي الموت. ومتى هربتَ عُدتَ تراها تعدو خلفك بقوةٍ تطلبك لكي تعضَّ كَعبَكَ لتموت، ولكن الربَّ سحقها على الصليب، بل نزل إلى مسكنها الرديء، أي الجحيم وقَلَعَ أسوارَه وحطَّم أبوابه وحملها وألقاها بعيدًا. فإن كان الرب قد فعل كل هذا لكي يخلصك، فلا تخَف لأن هروبَك يُفرِّحُ قلبَه، وهو سيُحدِّثُ الآبَ عنك قائلًا له: ها هو الذين أعطيتني إياهم ولن يَهلِكَ منهم ولا واحد. وبعد هروبِك تعود تتأمل سيرتَك القديمة وتندهش من القساوة وعدم الاهتمام بالأبديات حتى أنك تُنكر على نفسك ما كنتَ تفعله وترتعب منه غيرُ مُصدِّقٍ أنك أنت بذاتك كنتَ تُحبُّ معاشرة الأرواح الرديئة والإنصات إلى مشورتها المهلِكة.

تحقَّق أنك تركت سادوم وعامورة وكل ما لك فيها، ولا تُمسك بشيءٍ يخصُّ سيرتَكَ الأولى الرديئة، بل اقطع عنكَ كلَّ شيءٍ، حتى إذا دخلتَ مسكن الربِّ

وخَدَمتَ في الأسكنة تقولُ بقلبٍ قد قُطِعَ عنه كلُّ أسباب العِلل وتحرَّرَ من الشهوات الرديئة: "أدخلُ إلى مذبح الله الذي يفرِّح شبابي"، وحتى الشيوخ يقولون هذا لأن خدمة الرب هي شبابٌ دائمٌ وفرحٌ بالروح القدس، لأن الروح القدس متى رأى إنسانًا قد أحبَّ الربَّ إلى درجة هوان النفس، يقول ها هو سكني، إني إياه أردته. وتحقَّق من كلام الربِّ الذي قال: ذاك يأخذ مما لي ويعطيكم، فالروح القدس يفرح بخادم المسيح ويعطيه حال سجوده منتظرًا عطية الآب كلَّ ما للمسيح، لأن لا النفس ولا الجسد فيهما قوةٌ للخدمة وللشهادة. ومتى خدمَ إنسانٌ الربَّ لأجل منافعَ جسديةٍ، فإنه يأخذ كلَّ ما للجسد، أمَّا ثمار الروح فلا تظهر فيه.

لا تظن أن الربَّ الرحيم جدًا، والذي أحبَّ الخلائق إلى الحد الذي سمح فيه بموت وحيده عنهم، يُمسِك النِّعم الأرضية عن خُدَّامِه، إنه يعطيها لهم حتى بدون أن يسألوه، وليس في هذا عزاءٌ لهم، لأن الرسل رجعوا بفرحٍ قائلين: يا ربُّ رأينا الأرواح النجسة تخضع لنا باسمك، فقال لهم: لا تفرحوا بخضوع الأرواح النجسة، بل بما هو أعظم، بالأبدي والباقي، أي أسمائكم في سفر الحياة.

يعوضك الربُّ بكل خيرات الأرض فلا تفرح بها، بل افرح بالرب وحده، وتأتي ثمارُ الأرض بوفرةٍ فلا تفرح، بل اجعل قلبك على ثمار الروح فيعطيك الربُّ منها لأنك أظهرت اهتمامًا بها.

الحكيمُ يطلبُ الحكمةَ فيزداد، والروح القدس هو روح الحكمة والمشورة، ومَن يمسحه الروحُ في المعمودية وفي الكهنوت هو الحكيم. ومتى تطلبُ الروحَ يعطيك الربُّ إياه، لأنه تحدَّث عنه ووصَفَه بأنه الخيرات، وهو كذلك لأنه روح الفهم والقداسة والمشورة، هذه هي الخيرات الكاملة التي يشتاق إليها الخادم، والتي يرفع قلبه لأجلها في كل ساعة من ساعات النهار والليل.

إن وضعتَ الله أمامك حَفِظَ حياتك وجعل كلَّ خدمة تقوم بها لأجله مثمرةً، وإن وضعت الله والعالم أمام عينيك، فإنك تخسرهما معًا. تخسرُ الله لأنه قال لا يقدرُ أحدٌ أن يخدم سيدين، ولذلك يُمسكُ عنك المعونة في وقت الشدة، ولا يَسكُنُكَ السلامُ في الاضطراب ولا ترافقُك الرحمةُ لأن قلبك لم يكن مستقيمًا أمامه، وتخسرُ العالم أيضًا من أجل أنك جعلت أمام عينيك أن تنال الخيرات الأرضية، وهي تجارةٌ عظيمةٌ لا ترضى إلَّا بقلبِك كله، ولذلك لا تربح لأنك دخلت بقلبين وتظل مثل الأمواج غير مستقر، وتأتي عليك أتعابٌ كثيرةٌ مِن الله لأنك أدرت له ظهرك بعدما طلبته، ومِن العالم لأنه لا يترك النور الذي فيك، يريد أن يطفئه، ومن أجل ذلك يجلبُ عليك من الأتعاب ما لا طاقةَ لك عليه.

تذكَّر يا ابني أنك إن طلبتَ الأرضيات، لا يمنعها عنك الربُّ لأنه يفتح يديه لشِبَع كل الخلائق من نعمته، فمتى رأيت المالَ يتدفقُ عليك لا تظن أن الربَّ معك، بل ارتعب لئلا يجرفُكَ المالُ معه إلى حيث ذهب غنيُّ السوء.

إن ازدادت الدنانيرُ عندك، فاعلم أن الجوعى والأرامل والأيتام هم أصحابُها الحقيقيون، وإن مَنعَتَ عنهم عطيةَ الربِّ، دَخَلَكَ البُخلُ، فلا يعودُ الروح القدس يقدِّم لكَ المشورة الحقيقية، بل يتركك لمشورة ذاتك ويُسلِّمك لأيدي الظالمين وتتعثر.

عديمُ الرحمة هو عديمُ العزاء الإلهي، وتُسرِع إليه الأمراضُ لأنه يخافها، فيُعاقَب بالذي يخاف منه. عديمُ الرحمة لا يمكثُ في شركة الآب، يفتحُ فاه فلا تسمع في صوته إلَّا كلمات القساوة، وإن قرأ الإنجيل في الكنيسة أو وَعَظَ المؤمنين يتحدَّث كتاجرٍ عن الربح والخسارة، ويصف ملكوت السموات بما هو ليس من الملكوت بالمرة. وإذا جاءت ذكرى الرحمة، يتعب في فهمها ويتعب أكثر في شرحها للمؤمنين.

إياك وحُبُّ المال، لأنه يشغلك عن الرب، ولذلك وَصَفَه معلمُنا بولس بأنه أصلٌ لكل الشرور، ومَن ينشغل يا ولدي عن الرب، فماذا تبقَّى له سوى ذاته، وماذا في النفس إلَّا البرودة والموت؟ ومن ينشغل عن الرب ولو حتى بقلبه، يجد الموتُ في كلِّ طريق، لأن قلبَه الفارغ مثل ينبوع قساوة يُقدِّم له مشورات ميتة، والأتعاب يجعلها تبدو له كما لو كانت خيرات، ولذلك يعجز مُحِبُّ المال عن الحديث عن أسرار البيعة، وإذا تحدَّث عنها وَصَفَها بما هو أقرب لقلبه وعقله، وهو ما وَجَدَته ذاتُه وتعوزُه كلمات الحكمة الحقيقية.

كيف يتحدث محبو المال عن سِرِّ الولادة الثانية، أو سر شركة جسد الرب، وهم لا يفهمون أن الذي مات ودُفِن في المياه واصطبغ مثل الرب في الأردن يفتح أذنيه لمن يدعوه دائمًا: "أنت ابني الحبيب"، ولا تعود أذناه تصغي إلى رنات الدنانير ولا تخطف عينيه.

ومَن يأكل جسد الرب لا يرضى بأن يراه عاريًا أو مريضًا وهو يرفُل في ثيابٍ حسنةٍ ويأكل أفضل الأطعمة. مَن يأكل جسدَ الرب لا يعجز عن رؤية أخاه، لأنه يراه دائمًا في الذي قدَّم له ذاته ولم يبخل عليه بشيءٍ، بل حتى دمه، مَزَجَه لنا في الكأس من أجل الحياة، فكيف يحفظ لنفسه قوتًا ويخبِّئ حقَّ الغريب والأرملة واليتيم والضيف؟

مِن ثمارهم تعرفونهم. وثمارُ البر واضحةٌ، وثمارُ الظلمة مكشوفةٌ لمن له عينين. الراعي الذي لا يقول الحقَّ هو أصلًا لا يعرفه، ومَن لا يعرفُ الحقَّ، ليس له شركة مع الآب والحق ابنه يسوع المسيح.

ها قد وُضِعَ أمامك طريق الحق وطريق الموت، اختر اليومَ مَن تعبُد؛ الربَّ الذي قال كلُّ مَن هو من الحق يسمع صوتي، أم الكذاب الذي يضلُّ الناسَ عن قول الحق.

سوف تقفُ مع عظماء وملوك، لكنكَ تقفُ معهم ليس لأنك مثلهم، أو لأن لكَ ذات السلطان الذي أخذوه من الله، بل لكي تشهد لهم دائمًا كرقيبٍ عليهم، فإذا وَجَدتَ نفسَكَ معهم وداخَلَكَ خوفٌ وحَذَرٌ من جهة الكلام عن وصايا الرب، فاعلم أنك ابنُ الظلمةِ وليس فيكَ نورٌ البتة، لأن الربَّ أقامك كاهنًا له، لا لكي ترتدي الثياب البيضاء وتخدمه في القبة قُدس الأقداس فقط، بل لكي تخدمه أيضًا في الدار الخارجية، حيث يجلس سلطانُ الزمان الحاضر يعذِّب اخوتك ويظلم الضعفاء، فلا ترتعب منه، لأن الربَّ أعطاه لك مثل مريضٍ لكي تشفيه بالكلمة الإلهية، فإذا ارتعبتَ منه، فما هو رجاءك وما الذي تطلبه من الرب أن يحفظ حياتك في هذا الزمان، وهو الذي قال: مَن يطلب ذاته يهلكها، وهو نفسه من لم يعتبر نفسه شيئًا، بل أخلى ذاته وجعل جحد الذات لهذا السبب قانونَ الحياة معه، فإذا خِفتَ كانت ذاتُك بعدُ حيَّةً لا تعرف الذي مات لأجلها وقام لأنه مِن أجل السرور الكائن أمامه مضى إلى الصليب واستهان بالخزي فجلس في يمين الأعالي (راجع عب ٢: ١٢).

الخوف هو الأُلوهة الكاذبة التي طلبها الشيطان ثم أغوى فيها آدم وأسقطه معه، لأن الخوفَ هو محبةٌ مستترةٌ للذات، وهي الشيطان المختفي في الحية.

لا تَخَف مِن مَلِك هذا الزمان، لأن لك ملكًا أعظم منه تخدمه، لكن لا تُكلِّم ملكَ الزمان بترفُّعٍ وكبرياء، ولا تظن أنك أفضل منه لأنك تخدم الملك السمائي، لأن الله رتَّب قيام السلاطين من أجل العدل، وأعطى لهم السيف، ورغم أنه مَنَعَ القتلَ، إلَّا أنه أناط بالسلطان أن يسفَك دماء الأشرار من الناس ليكُن عند الباقين خوفٌ، ولكي يكونَ العدلُ مرهوبًا.

تكلَّم بكل كلام الله، لكن في تواضعٍ ومحبةٍ عالمًا أن الكلمة التي تحملها هي تُدينُكَ أنت، لأن الرب أوصى خُدَّامه قائلًا: "اخرج السارية التي في عينيك لكي ترى القشة التي في عين أخيك" (راجع مت ٧: ٥)، فالخادم الحقيقي

هو مَن يعرض أسقامه على الرب وعلى شيوخ البيعة، ومتى حصل على الدواء يقدر أن يعين المتألمين بمرض الخطيئة.

اكرز بالكلام وداوم على ذلك في وقتٍ مناسبٍ حيث يسود الهدوءُ والسلامُ، وفي الأوقات غير المناسبة عندما تُصبح الطرقُ خَطِرةً ويشتدُ الكربُ بالبيعة. هكذا أوصى الرسول الخُدَّام، فلا تجعل همَّكَ أن تعيشَ في سلامٍ في الأوقات المناسبة، بل افرح بالسلام لأن الله جعل السلام على الأرض من أجل إنجيله المبارك، لكي تزور أعضاء جسده وتُقدِّم لهم ما أقامك الله عليه لخدمتهم. وفي الأوقات غير المناسبة لا تتأخر عن زيارة المؤمنين، لأنهم زرعُ الربِّ، وقد أهاج عليه الشرير رياحًا عاصفةً، فمَن قَلَعَته العاصفةُ مطلوبٌ منكَ. وفي العاصفةِ تعرفُ ماذا زرعتَ وماذا ستحصد في مجيء سيدك المرهوب، ولذلك أوصى الرسولُ الخُدَّامَ بالكرازة حتى في الأوقات غير المناسبة لكي يفهموا ماذا صنعوا بقطيع الرب.

يا ابني إن الربَّ يمسكُ بيدك فلا تتركه لأنه لا يتركك، ولا تحاول أن تكون مثل رفيق السوء الذي ينزع يده عنوةً من يد مَن يُخلِص له، لأنك لا تسقطُ دفعةً واحدةً، بل على عدةِ دفوعٍ، وفي كلِّ مرةٍ يُنذرُكَ الربُّ كما فعل مع سمعان بطرس، فإن رجعتَ إليه مسح دموعك وإن تراخيتَ عاد الربُّ إلى إنذارك.

الخادمُ الساقطُ تراه مشغولًا بكل الأرضيات، يسعى وراء الكرامة، يعطفُ على الذين يمدحونه، ومِن شعبه لا يرضى إلَّا بِعشرةِ الذين يتملقونه، ويفزَعُ من الذين يقولون له كلام الحق، ويحقد على الذين يُوبِّخُونه.

النَّفسُ التي رضيت بالربِّ ميراثًا لها تفرحُ بالتوبيخ ولو من طفلٍ صغيرٍ، لأن زِلة آدم ماتت فيها، والأُلوهة الكاذبة قد نزعها الصليب. لكن النَّفسَ التي

ترضى بالخيرات الترابية متى سَمِعَت التوبيخ، تفزع ويثور فيها تنين الغضب ويزأر فيها الكبرياء مثل وحوشٍ. هكذا الخادمُ الساقطُ إذا سَمِعَ مَن يتحدث عن شروره هاج عليه مثل المُهلِك، ولَعَنَه باسم الرب، مع أن الرب يُرسِل دائمًا الذين يشتموننا لأجل منفعتنا، كما أن الأرواح النجسة تهيِّجُ الناسَ علينا وبشدة لكي نفزَع. واعلم يا ابني أن التجارب لا تأتي عليك إلَّا لنقائك، والأرواح الشريرة تعرف ماذا يضُرُّكَ وماذا ينفعك، لذلك تأتيك دائمًا بما يضُرُّكَ لكي تخور عزيمتك.

الخادمُ الساقطُ هو مَن يساعد الشيطان على تبديد قطيع المسيح، فإذا جلس مع شعبه، يتكلم في الأمور الأرضية ويحكي لهم قصصًا تدور كلها حول ذاته وخوارقه ومعجزاته، ولا يُمجِّد الرب. وهناك خدامٌ مزوِّرون كثيرون يجلسون مع الناس ويتحدثون عن الرب لكي يقول الناس عنهم إنهم بارعون وحكماء، ولكن متى عُرِضَت عليهم المسائل الصعبة، يُحرِّفونها لأجل الهروب من الخجل الذي يلحق بهم.

الخادمُ الساقطُ في كبرياءٍ يفسِّرُ كلامَ الربِّ على هواه، ولا يرضى بما استقر في البيعة من قوانين وتعاليم، لأنها كلها لا تعود تُرضيه ولا تُفرِّح قلبه اللئيم، ومتى كَسَرَ ونَقَلَ تخومَ الآباء يعود إلى أعذارٍ قبيحةٍ عن صعوبة قوانين البيعة، وعن عدم سلامتها، بل يُقيم نفسه حاكمًا ومشرِّعًا أفضل من الآباء الذين لبسوا الروح. ابتعد عن هؤلاء، ولا ترضَ بأن تكون معهم لئلا يظُنُّكَ الناسُ أنكَ مِن شركتهم. احذر منهم كما تحذر كلَّ رديءٍ، لأن الحقَّ لم يَعُد نورَ سبيلهم، وعثرتُهم واضحةٌ.

الخادمُ الساقطُ كثيرُ الكلام عن الدينونةِ، يَصِفُ أهوال الجحيم دون سعادة الملكوت لأنه يعرف ماذا ينتظره، لذلك يُكثِر مِن كلام التوبيخ، لأنه لا يعرف كيف يشرح علاج الأمراض التي أحنت ظهره. متى وَعَظَ يُرعب ضعفاء

القلوب دون أن يعزِّيهم بكلمة رجاء. ولكن مَن سَكَنَ فيه الروح القدس، لا يتحدث عن الدينونةِ بدون رجاءٍ، ولا عن المرض بدون ترياقه، ولا عن الظلمة دون أن يذكر طريق النور.

الخادمُ الساقطُ متى يُهدِّدُ الخطاةَ بالعقاب، لم يعرف رحمة الله، ومَن لا يعرفُ رحمةَ الله مات ضميره من كثرة ما انغرس فيه من أشواك المجد الباطل والربح القبيح والزنى.

لا تظن يا ابني أن قساوة القلب هي ثمرة الابتعاد عن الله فقط، بل هي شجرةُ أشواكٍ يسقيها المجد الباطل لتنمو، ويُسيِّجُ الربحُ القبيحُ حولها، ويبني الزنى سورًا عظيمًا لا تقدر الملائكةُ عن النَّفاذِ منه. من أجل هذا، لا يعرف الذين مات ضميرهم سوى العذاب، فيتحدثون عنه. لا تجلس مع هؤلاء ولا تذهب لطلب مشورتهم لأنك لن تسمع الله مطلقًا يتحدثُ على لسانِهم.

الخادمُ الساقطُ هو مثلُ تلميذِ النبي الذي رأى الأعداءَ فقط، وإذا هم جيشٌ عظيمٌ، لكن النبي طلب إنارة عقله فوجد جيشَ الملائكةِ. ومع أن جيشَ الملائكةِ كان حوله، إلَّا أنه لم يَرَه، لأن قلبه غير متدرِّب على رؤية الإلهيات. هو يرى المركبات والدروع ويراها وحدها لأنها هي رجاؤه، ولذلك قال الوحي الإلهي: يا ربُّ افتح عيني الغلام، وعندما فَتَحَ الربُّ عيناه ذُهِل. ومن أجل ذلك، يعجزُ مثل هؤلاء عن شرح الأُمور الإلهية، ويجعلون كلَّ همَّهم السُّمعةَ والمناصب. ومتى سألهم المؤمنون عن الربِّ جعلوا الطريق صعبًا ووصفوا أهواله.

واعلم يا ابني أن الطريقَ صعبٌ لمن يُحب نفسه، وأن البابَ الضيِّقَ هو جحدُ الذات والكُفر بها، وقلائلُ يجدون الباب الضيق. والربُّ لم يَصِف ملكوته بأنه سَفَرٌ شاقٌّ، بل قال إنه في داخلكم، لذلك يُصَعِّبُ الساقطون كلَّ

شيءٍ، ويجعلون التوبةَ مستحيلةً لأنهم طرحوا الرجاء ونسوا الكلام الإلهي: "هل يستحيل على الربِّ شيءٌ؟"

الخادمُ الساقطُ يُسرِعُ إلى سكين اليأس لكي يقطعَ رجاءَ المبتدئين.

جيدٌ جدًا أن نتحدث عن القتالات التي تأتي علينا، ولكن مَن يجعل عينيه على سهام عدوِّه لا يعرف كيف يحمي نفسه بدرعه. ومَن تحدَّث عن الجحيم هو بلا رجاءٍ، وكيف يكون بلا رجاءٍ إلَّا مَن ترك التوبةَ وطريق الأبرار؟

الخادمُ الساقطُ لا يفرح حتى برؤية الأسفار المقدسة الإلهية، وإن أمسكَ بها يشعر بأنها حجارةٌ ثقيلةٌ وطلاسمُ بلا معنى، فيفزع منها. أمَّا إذا حلَّت نعمةُ الروح القدس في قلبك، ووجدتَ أنكَ تفرحُ بقراءة الأسفار وتشتاق لمعانيها، فاعلم أن زمن زرع الأرض قد حلَّ، وأن الربَّ سيضعُ بذاره الحيَّةَ في قلبِكَ، فاطلب منه بإلحاحٍ أن يجعلَ فيكَ بذرةَ الحياةِ، أي الكلمة الخارقة إلى المفاصل والأعضاء ومفرق النفس والروح، واطلب منه بإلحاحٍ أن يسقي الكلمة الحيَّةَ بماء الحياة، أي الروح القدس لكي تنال منه الحياة التي تجعل بذرتها تعيش. ومتى نَمَت فيك كلمةُ الله أتت بثمارٍ في تعليم الشعب، وفي بيتك، وتفتح لكَ حتى مخازن ثروة الأرض، فتكون قد نلتَ خيرات الحياة السمائية والأرضية، وهو ما وَعَدَ به ربُّنا يسوع المسيح، إذ قال عن الذين يتركون الحقول والبيوت إنهم سيجدون عوضًا عنها (مت ١٩: ٢٩ - ٣٠). لأن الناس متى وَجَدَت طبيبًا حاذقًا بارعًا لا تعودُ تُفكِّرُ إلَّا في دوائه وتطلبه مهما عَظُمَت المشقةُ، ولو كان أجره فوق الطاقة. فإن صرتَ طبيبًا حاذقًا في كلمة الله، أتت، حتى السِّباع المفترسة لتطلب مشورةَ الحياة.

الخادمُ الساقطُ عنده الناس صنفين: عبدٌ أو عدوٌّ، والذين لا يستسلمون له يعاديهم ويحاربهم ويقاومهم ويجعل عينيه عليهم لكي يَثِبَ عليهم مثل

حيوانٍ مفترس. أمَّا العبيد فلا يَفتُرون عن القساوة والظلم لأنهم خضعوا له ونسوا وصية المعمودية المقدسة التي سَمِعوها من الله الآب.

أمَّا الذين وُلِدوا ليسوا من اللحم والدم، ولكن من الله، فهؤلاء هم أبناء الآب السماوي الذي له وحده يخضعون وفي بيعته ينمون على مجاري مياه الحياة، أي الأسفار المقدسة. هؤلاء لا يقعون في عبوديةٍ للإنسان، لأنهم لم يقبلوا مجد الناس ولا يُحبُّون السُّبح الباطل، وأمجاد العالم عندهم مثل تراب الأرض يدوسون عليه بعزةٍ وعزم. هؤلاء هم أبناء الله وأبرارٌ في نظر الآب، لأنهم ما خضعوا لحكم ومشورة الساقطين. يرون الساقطين ويتوجعون لأجلهم ويندبون خدمتهم في البيعة المقدسة دون أن يُشهِّروا بهم، ودون أن يفضحونهم.

أمَّا الخادم الساقط فهو يُشهِّر بعدوه وصديقه على السواء، لا تحلو له إلَّا سيرة الناس والكلام عن أعمال عدو الخير. يُظهِر نفسه مثل ملاك نور وهو شيطانٌ وساقطٌ ومعروفٌ من أقواله وأعماله.

أمَّا خادم الله الأمين، فإن سَمِعَ فريةً، لا يفحصُ عنها ولا يتكلم بها ولا يقبل أن تسكن الفريةُ في قلبه. هكذا كن، لكي تعبُر بحر العالم الهائج بكل ما فيه من مؤامرات ونوء العاصف الشرير.

الخادمُ الساقطُ يقسِّم قطيعَ الرب، ويحصى مَن عليه ومَن معه.

أمَّا الخادم البار، فكلُّ قطيع الربِّ معه. لا توجد بينه وبين أشرِّ الناسِ عداوةً. يُظهِر التعليم الصادق للمخطئين بحلم ووداعة ربنا يسوع المسيح، ولا يتأثر قلبه إذا رفضوه، بل في محبةٍ يطلب لهم الاستنارة، ولا يهددهم بالموت، لأنه اختبر رحمة الله، ويعلم أن الذي رحم الزانية وافتقد اللص في ساعة موته قادرٌ أن يرُدَّ الضالين ولو على فراش الموت.

لذلك، احذر يا ابني أن تكونَ رسولَ موتٍ وعقاب، فالربُّ لم يهدِّد الخطاةَ، بل طلب منهم التوبةَ، ولم يوجِّه كلمات الدينونة إلَّا للمنافقين، أمَّا الزواني فقد قال لواحدةٍ منهن: "مغفورةٌ لكِ خطاياكِ".

الخادمُ الساقطُ لا يجد عنده الدواء للزنى، ليس لأنه زانٍ، وإنما لأنه لم يختبر نعمة الله، فمتى جاء إليه السقماء يصيرون في تعاسةٍ ويأسٍ عظيمين. لا يعرف ماذا يُخبرهم عن محبة الجسد، لأن محبة الجسد عنده حركةٌ طبيعيةٌ مأمونةٌ، ولا يصف لهم كيف يُحبُّون الله، فينسون من حلاوة محبته أسقامَ الزنى، لأنه لم يختبر هذه الحلاوة، ولا عَرِفَ فعلها في النفس، فهي التي جعلت المجدلية تتوب، والزانية تُقبِّل قدمي الرب عندما حلَّت فيها نعمة التوبة. صارت الدموعُ عذبةً أكثر عذوبةً من سِقَم الفِراش، ودنس النفس والجسد.

الخادمُ الساقطُ يميل بطبعه الرديء إلى المجادلات الفارغة، ويُسرِع باتهام الناس، لأنه لم يتعمق في معرفة أمور البيعة وأسرارها. ولأنه لم يفهم الأمانةَ، فهو فاشلٌ مثل صيادٍ مسكينٍ يجمعُ السَّمكَ الميت من على سطح المياه، ولا يعرف كيف يلقي صنارةً لكي يمسك بالحيتان الكبيرة، فابتَعِد عن طريق هؤلاء، لأن الذين يمسكون السَّمكَ الميت لا يمكن أن يصيروا صيادين، ورائحة عفونة موتهم وصيدهم الفاسد، تجعل الأوفياء لله يهربون منهم.

أُطلُب علومَ البيعةٍ واقرأ في كُتُبِها، ولا تبرحُ أسفارُ الحكمةِ عينيك لأن الربَّ يرى ماذا أعددتَ له من أدواتِ حربٍ، فإن رآك يَقِظًا صاحيًا أرسل لكَ نعمته في الوقت المعيَّن، وجعلكَ قائدًا لجيشه، أمَّا إن طلبتَ أنت رئاسةَ قوات الربِّ وأنت لا تُحسِنُ القتالَ ولا تفهم أصوله ولا تدرَّبت عليه، فإن القائد العظيم متى رآك لا تُحسِن أن تكون جنديًّا من جنوده، فكيف يَقبلُ منكَ أن تقودَ جيشه؟ هو بنفسه يستهينُ بكَ ويُرسِلُ عليكَ المحن والبلايا حتى تُصبح فضيحةً، مثل فضيحةِ مقاتلٍ ادَّعى معرفته بفنون المبارزة، وعندما نَزَلَ ساحةَ

القتال، وَجَدَه النَّاسُ جاهلًا مُدَّعيًا ذا فمٍ كبيرٍ ويُحسن القتالَ بلسانِه، فصار بذلك فضيحةً.

تجنَّب يا ابني طريق المُهلِك، لأنه لا يقبل إلَّا العبيد، أمَّا الذين يرفضون سيادته ويطرحون سلطانه، فهؤلاء يُصبِحون أعداءً له. فلا تكن مثله، واطرح عنك كلَّ اهتمامات الباطل، وجَمعِ الأتباع، لأن الربَّ لم يرسلنا لكي نجمع الناس حولنا، وإنما أرسلنا لكي نشفيهم من الموت والانقسام، فلا تُفسد عمل الرب، لأن مَن يُفسد هيكل الله يُفسِدُه الله عندما يسلِّمه للهوان والموت الأبدي.

# الباب الثالث

# شرح القداس الإلهي

## لآباء الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

## المنسوب لسمعان بن كليل[1]

(١) تم نشر هذا الجزء في كتاب القداس الإلهي، تعليقات وتفاسير لكثير من أقوال الآباء، جذور للترجمة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٢.

الفصل الأول

# العشية، وهي بداية اليوم الجديد

يخبرنا الإنجيل المقدس بأن ربنا يسوع المسيح له المجد كان يختم أيام أعماله بمعجزات كثيرة في العشية أو في المساء. لقد أسَّس الرب الخلاص بمجيئه في آخر الأزمنة؛ لأنه كان مزمعًا أن يظهر عندما تغرُب شمس العتيقة (العهد القديم) ويأفُل الناموس الموسوي، ولذلك جاء لكي يجدد حياتنا ويظهَر في عتمة المساء لكي يحول ذلك المساء إلى نورٍ كقول النبي: "أنه يكون نورٌ في وقت المساء". وقد أشرق النور "للجالسين في الظلمة وظلال الموت" (متى ٤: ١٦)، ولذلك السبب عينه مع غروب شمس النهار، يبدأ يوم الخلاص بربنا يسوع المسيح. فإذا جاءت الظلمة الطبيعية تذكَّرنا نورَ الحياة الجديدة، ربنا يسوع المسيح له المجد الذي أشرق لنا، ليس بنورٍ من هذه الطبيعة، بل بالنور الحقيقي الذي من عند الآب. وقد أشرق لنا عندما تجسد من العذراء والدة الإله القديسة مريم. وبانقضاء اليوم وحلول العتمة؛ يجتمع الشعب لتذكار الخلاص العظيم، وهو عبورهم بحر هذا العالم ودخولهم أرض الراحة الحقيقية، أي أرض كنعان، وهي أرض الأمم التي بالإيمان يستقرون فيها، ويعيِّدون سبت السبوت، أي يوم قيامة ربنا من الأموات.

مباركٌ من يرتل مزامير الخروج من أرض مصر؛ لأنه يعبر مع ربنا يسوع المسيح ليس فقط بحر العالم، بل بحر مياه التقديس الذي كان البحر الأحمر مثاله.

من أجل ذلك تجتمع الكنيسة وترتل هذه التراتيل الشجية المقدسة بفرحٍ

وباهتمام؛ لأن الشعب يتأمل فيها ميراثه الروحاني الذي أخذه بعبور البحر الأحمر، أي المعمودية المقدسة، ودخوله أرض الموعد مباشرةً. فنحن لم نَسِرْ في أرض التيه (سيناء)، وإنما من بعد عبور البحر الأحمر، دخلنا مباشرةً في ملكوت ربنا يسوع المسيح كملوكٍ نالوا المسحة الملوكية التي اشتاق إليها أنبياء العهد القديم وملوكه، وهي تلك التي تقول عنها أوشية الإنجيل: "إن أنبياءً وأبرارًا كثيرين قد اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروه وأن يسمعوا ما أنتم تسمعونه".

وأعلم أن الرؤية والسمع هي البشارة المفرحة؛ لأننا رأينا المسحة عندما مُسح ربنا في الأردن، وسمعنا صوت الآب يشهد عن وحيده، وهو ما نأخذه نحن في سر التبني، أي الحميم الجديد.

وأعلم أننا نجتمع في البيعة في المساء؛ لأن سفر الخليقة (التكوين) قال كان مساء وكان صباح (تكوين ١: ٥). فالمساء بدأ به كل يوم من أيام الخليقة؛ لأن الرب كان مزمعًا أن يفتقدنا، وأن يخلق من جديد الجنس العاصي والساقط، ويجدد وجه الأرض كقول المزمور (١٠٤: ٣٠).

والذين يجتمعون في البيعة، إنما يبدأون بذكرى عبورهم البحر الأحمر؛ لأنه في مثل هذا المساء تمَّت المعجزة الخلاصية التي بها أغرق الرب فرعون وكل مركباته، وأجاز شعبه إلى الأرض التي أقسم لإبراهيم أنها ستكون له ولنسله إلى الأبد، أي الأرض التي تفيض بالبركة، أي بركة الإيمان، وهي الكنيسة الجامعة الرسولية.

ومتى اجتمع الشعب، فإن الترتيل يصير استحسانًا للخلاص العظيم، وهو ترتيل الهوسات الذي يبشِّر بمجيء يوم الرب، أي يوم قيامته، أو سبت السبوت يوم الأحد لمخلصنا الصالح.

ومتى رتَّل الشعب ذلك، فإن الجماعة يقوى قلبها ولا تعود تنظر إلى الوراء إلى أرض العبودية، بل إلى أرض الراحة والحرية التي وعد بها الآب السماوي. لأن أول الترتيل هو مزمور ١١٦: "يا جميع الأمم باركوا الرب". وهو أيضًا ذات المزمور الذي يرتِّله الشماس في بداية القداس الإلهي عند تقديم الصعيدة؛ لأنه دعوة الآب السماوي للأمم لأن يكونوا شعبه الذي نال رحمة الرب العظمى ببشارة الإنجيل. ويسبِّح بالهوس الرابع، ومتى شكر الرب الصالح على إحساناته؛ يطلب عن تخوم البيعة، فالأواشي تتكرر في كل صلاة؛ لأن مَن يجلس في البيعة الرسولية يعرف أن تخوم البيعة هي السلامة والآباء والاجتماعات، وما يُضاف إليها من توسلات أخرى (باقي الأواشي).

أمَّا عند نصف الليل، فإن صراخ الشعب يرتفع بأن العريسَ آتٍ بقولهم "ننظُر إلى قيامة المسيح، ونسجد للقدوس يسوع المسيح ربنا الذي وحده بلا خطية"، فقد عاينوه قائمًا فيهم بعبورهم من جهة الشمال إلى جهة اليمين، أي من كونهم جداء إلى كونهم قطيع حملان الرب. وهو رتَّب لهم ذلك العبور بتجديد طبيعة الإنسان وإعادة خلقتها من جديد على صورة مجده وبهائه.

وهكذا يخرجون لملاقاة العريس بالتسبيح وببشارة قيامته ودخول أرض الموعد وأرض الراحة. ويجتمعون مع الآباء البطاركة والأبرار والشهداء والنساك وكل الصديقين، ويطلبون بصوتٍ عظيم أن يصلُّوا هؤلاء عنَّا لأن الوليمة السماوية سوف تُقام وسوف نجلس في حضرة الملك العظيم.

## التذاكيات ومديح والدة الإله

وقد رتَّب الآباء أن يُقامَ تمجيدٌ لوالدة الإله؛ لأنها مثال الخلاص وأيقونة حكمة الله المُحاطة بتواضع تدبير التجسد وبهاء الابن الوحيد. وأعلم أن مَن لا يشترك في هذا، إنما ينمو فيه تعليم نسطور المخالف الذي جرَّده الآباء

من رتبته وأنزلوه من مقامه وجعلوه أقل من الموعوظين. وكل مَن لا يعاين سر تدبير التجسد لا يمكن أن ينال درجة الإيمان الحسن ولو ظل طول عمره يرتِّل كل المزامير. فالرب وحده هو الذي أكمل الإيمان ورفع الستار الذي كان يحجب النور ويُبقي على المِثالات، أي معجزات وعلامات العتيقة. لقد ظهر في خفاء نار العليقة ونادى موسى، وكان ذلك مثالًا لنزوله واتحاده بالجسد في أحشاء القديسة مريم، وهو سبب استعمال هذه التسبحة في الكنيسة الجامعة الرسولية.

وأُمور الرب لا تنتهي لأنه إذا صنع أمرًا، فهو يكمِّل بأمرٍ آخر أعظم منه، والاثنان يكمُلان بظهوره المحيي. فقد ظهر في العليقة وأكمل ذلك بالتجسد، وأكمل التجسد باتحاده بنا في الأسرار الفائقة السماوية. والأسرار تكمُل بدخولنا قدس الأقداس، أي أورشليم السماوية، ودخولنا أورشليم يجعلنا نتكئ في حضن الآب السماوي مع إبراهيم واسحق ويعقوب وكل الأبرار والصديقين.

عظيمةٌ هي أعمال الرب ولا إحصاء لفهمه؛ لأنه يبدأ بالخِلقة ويكمِّل الخلقة بالتجديد، ويكمِّل التجديد بالميراث السماوي. من أجل ذلك الأمر تقف العذراء والدة الإله كشاهدٍ حقيقيٍّ على سِرٍّ تجسده، ومَن يتأملها لا يسقط في فخاخ الهراطقة المميتة. وكلما قيل شيءٌ عن والدة الإله، فهو إنما يبشرنا بالتجسد، وأنه حقًا حلَّ في أحشائها البتولية؛ لكي يحل فينا نحن الذين بالمعمودية نلنا البتولية الروحانية. فقد كنّا قبل المعمودية نحيا في الوثنية ونجاستها والخضوع للأرواح النجسة التي استعبدت الإنسان. أمَّا بعد جحد الشيطان والاغتسال الروحاني، فإن نفوسنا تلمع بذات بهاء وطهارة آدم قبل خضوعه للأرواح النجسة وعهده مع الشيطان. هذا البهاء سطع من والدة الإله لما جاء عليها الروح القدس وصارت في حالةٍ أعظم من تلك التي كان فيها آدم قبل السقوط. والسبب في أن النفس الإنسانية كانت مستنيرة ببهاء ابن

الله وبسُكنى الروح القدس، ولكنها لم تكن قد تشرَّفَت بحلول الابن الكلمة المتجسد فيها على النحو الذي تم في والدة الإله. لأن ابن الله سكن فيها بلاهوته وناسوته منذ أن بشَّرها الملاك وأطاعت كلمة البشارة. فصارت فائقةً؛ لأن الكلمة ذاته حلَّ فيها بعد أن طهَّرها الروح القدس وقدَّسها وجعلها السماء الثانية كما نقول في التذاكيات. من أجل هذا نمدح ميلادها الفائق لأنها أُمٌ لكل الأمهات ومثالُ البتولية النقية لكل الذين يسيرون في خطواتها.

وأعلم أن مديح العذراء يكون مثل مرآةٍ للنفس ترى فيه النفسُ جمالَ الإيمان وعِظَم الرحمة الإلهية؛ لأن الساكن في الأعالي قد نظر إلى جنسنا وأشفق عليه، فجاء وحلَّ في الأحشاء البتولية. هذا ترياقٌ ضد اليأس، ودواءُ عزاءٍ، ومرهمٌ إلهيٌّ كلُّ مَن يناله لا يُخزى ولا يعود يتكل على أعماله مهما كانت، بل على الرحمة الإلهية التي أحيّت جنسنا.

وقد رتَّب الآباء اللابسون الروح أن تُقال التذاكيات كاستعدادٍ لتناول الأسرار الإلهية النارية؛ لأن الذين يُزمِعون الاقتراب من السر المجيد، إنما يتطلعون إلى الرحمة الإلهية التي ثبُتت بتأنُّس الكلمة وحيد الآب.

فلنرتل بكل قوة، ونمدح فخر الخليقة الجديدة مريم والدة الإله؛ لأن هذا نافعٌ جدًا لأرواحنا؛ إذ يجعلها تفيق من الغفلات، وتنهض من الكسل، وترتفع إلى عِظَم بهاء العطية الإلهية. ونحن نطلب شفاعة العذراء لكي نكون على مثال طهارتها، وعلى مثال نقائها، ولأن بشارتها كانت قائمة بالكلمة الإلهية: "لأن ليس شيء غير ممكن لدى الله" (لوقا ١: ٣٧)، فلنُصلِّ التذاكيات بفرحٍ لأنها بشارةٌ معتَمَدةٌ لخلاص الجنس البشري.

## عبور البحر الأحمر مع المسيح

أمَّا عِلة اختيار الهوسات التي تُخبرنا بعبور البحر الأحمر، وهي الهوس

الأول مع لُبشه، والهوس الثاني مع لُبشه والذي يُختم بتمجيد الخليقة للثالوث، وإبصالية الفتية الثلاثة القديسين، فهو مثل صعود النفس من أرض مصر ودخولها أرض الراحة، الكنيسة الجامعة. فالنفس المشتاقة إلى الله تهرب من قوات فرعون الشيطان وانشغالات الحياة الأرضية، فتعود إلى حِصن النفس المنيع، أي المعمودية المقدسة؛ ولذلك ترتِّل تسبحة العبور مع المسيح الذي أغرق كل القوات التي تحاصر النفس وتريد أن تأسرها وتمسك بها في أرض العبودية. وبعد أن ترتِّل النّفسُ الهوس الأول مع لُبشه، تتأمل كيف حاصر الربُّ العدوَّ وأغرقه، ثم تمجِّده على أعماله العظيمة؛ لأنه قتل الملوك والعظماء، أي أجناد الشر الروحية التي تقاوم الأمور السماوية (أفسس ٦: ١٢).

ثم تتأمل ذلك كله، وتقدِّم التمجيد اللائق لأن الرب أعطاها أن ترى الخليقة وهي تسبِّح وتخدم الثالوث.

أمَّا أن صراعنا قد يعود من جديد حسب نقاء النفس واستعدادها، فهو ما يجعل النفس تُسبِّح مع الفتية الثلاثة القديسين؛ لأن أتون النار هو مصير القوات المعاندة. أمَّا الذين يسيرون مع ابن الله، فهؤلاء إنما يرتِّلون مع سدراك وميساك وابدناغو.

وبعد أن نفرغ من هذا، فإن عيون النفس ترتفع إلى المن والسلوى في أرض الراحة والهدوء، ميراث إبراهيم الحقيقي، وترى الجالسين في وليمة الملك العظيم ربنا يسوع المسيح، أي المدعوين من كل جنس وقبيلة ولسان، أي مجمع العذراء والملائكة والرسل والشهداء والأبرار من كل مكان ولسان، وهم الذين رآهم يوحنا في الجُليان[1] حاملين أغصان النخيل ويهتفون للحمل مخلِّص الذين يدعُون باسمه.

(١) سفر الرؤيا.

وهكذا تعبر نفوسنا مياه البحر الأحمر مع المسيح، أي هموم هذا العالم تاركةً خلفها أفكار ونيَّات وإرادة أرض العبودية؛ لكي تنال المَن قوت النّفس الحقيقي الذي يُشبِع ويعطي عدم الموت.

## الإبصاليات

وبعد أن نشبع من التسبيح ويتطهر فكرنا بعبور بحر العالم، نتقدم إلى طعامٍ قويٍ مُشبعٍ للنفس، وهو الإبصاليات. ترتيبٌ حكيمٌ رتَّبه الآباء أن تسبق الإبصاليات التذاكيات؛ لأن اسم ربنا يسوع المسيح يفوق كل الأسماء، فهو الذي به اعتمدنا، وتتلوه نفوسنا لكي تحيا. ومتى لازمته النّفسُ مع كل نَفَسٍ يدخل ويخرج، يلازم إنساننا الداخلي حلاوة حضوره الإلهي. فالنّفسُ تعرف اسمَ مَن تحب، وتدعوه باسمه قبل أن ترتمي في أحضانه الإلهية، فلا تعود تعرف اسمًا آخرَ سواه. ومتى ذاقت النفس من هذه الحلاوة، فإنها تعلم أنها تستعد لتكون على مثال والدة الإله، أي تحبل حَبَلًا سماويًا بقبول الابن الكلمة في الأحشاء الداخلية، أي الذاكرة والمخيلة وحركات نية القلب. ومتى حلَّ ابن الله على هذا النحو، قالت النّفسُ التذاكية وهي متنعمةً بجمال هذا الحَبَل الإلهي الفائق الذي لا يحدث حسيًّا، وإنما عقليًّا، وهو علة بقاء الفكر في جوهره الأصلي، أي عدم الموت والفساد.

أمَّا النّفسُ التي تشبع من اسم ربنا يسوع المسيح، فهي تشتاق إلى السر المجيد ولا تفارقه؛ لأن الاسم الحسن يُلهِبُ أشواقها ويجعلها تطلبه دائمًا، وتعطش إليه، وتشبع منه.

فلنرتل الإبصاليات كلٍّ حسب اليوم المعيَّن لها؛ لكي نفوز بهذه العطية الفائقة، وننال رحمة ربنا يسوع المسيح.

الفصل الثاني

# باكر، وهو سَحَر قيامة ربنا يسوع المسيح

مكتوبٌ في الكتب الإلهية أن المحبة هي كمال الناموس، وأنها ترضى بكل شيء. وقد رضيَ الآباء الرسل والشهداء الظافرين بالعُري والجوع والمرض وأتعاب الجسد والموت بوسائل كثيرة، وأحبُّوا هذا لأن محبتهم كانت عظيمةً لربنا يسوع المسيح. هؤلاء كانوا يقومون باكرًا كل يوم، ويذهبون للبيعة لمعاينة قيامة ربنا يسوع المسيح.

وأعلم أننا نبارك الرب الإله الثالوث القدوس لتجسُّد وموت وقيامة ابنه الوحيد وحلول الروح المعزِّي علينا في الأسبوع على هذا النحو:

أيام الاثنين والثلاثاء، خِلقة آدم وحواء وسقوط الجنس البشري.

والأربعاء، تَشاوُر اليهودِ على المخلص لكي يصلبوه، وهو ما يستدعي صومنا لكي لا نشترك في أي أعمالٍ غريبة تُبعدنا عن ربنا يسوع المسيح.

وفي يوم الخميس، نعترف بالإيمان الأرثوذكسي وبمجيء الخلاص.

أمَّا في يوم الجمعة، فإننا نعترف فيه بموت ربنا بالجسد عنَّا، ولذلك نصوم مثل الأربعاء ما عدا الخماسين المقدسة ونرتِّل لصليبه المحيي وعلامة الخلاص العظيمة التي تتحد بها نفوسنا. وهكذا نجيء إلى يوم قيامة المخلص أي يوم الأحد، بل راحة السبت والترتيل اللذيذ وتأمل الخليقة.

وبعد أن نجوز مع الرب البحر الأحمر، ونسمع مجيء صوت العريس،

نعاينه حيًّا من بين الأموات في صلاة باكر؛ لأنه وهو حيٌّ يقودنا إلى الحياة الجديدة ويُنهِض جنسنا الميت. ويكون إن إشراق النور مع بداية يوم قيامة ربنا هو إشراقة الحياة الجديدة التي يطلع عليها نور النهار الجديد، وقد تطهَّرت بالتسابيح، وتذوَّقت اسم الخلاص وشبعت منه، فاستعدت أن تسمع بشارة الإنجيل المقدس، أي مجيء ربنا يسوع المسيح لكي يبشرنا بالقيامة.

وأعلم أن كل أناجيل باكر هي خاصة بالقيامة، ما خلا بعض الأيام، وعِلة هذا الترتيب أن الآباء الذين شيَّدوا البيعة، إنما كانوا يعاينون الرب حيًّا عند الغَلَس[1] ويشاهدونه ويتكلمون معه، فصار ترتيب صلوات القداس أن يبدأ بالقيامة وذكرها المحيي.

## الأواشي تخوم البيعة

تعلَّم يا إنسان كيف تحيا لله وحده بالصلاة والطلبة لأجل الآخرين. أمَّا الذين يهجرون الصلاة لأجل غيرهم ويتأملون في حياتهم وحدها ويطلبون لأجل حياتهم فقط، فهؤلاء لا يقتنون شجاعة الصلاة؛ لأن كثرة تأملهم في حياتهم فقط؛ تجعلهم أسرى للوسواس والخيالات، فالقلب الذي لا يخدم غيره لا يخلُص إلَّا بأتعابٍ كثيرةٍ، ولا تنمو قوة الدالة عنده؛ لأنه لم يتذوَّق كيف يتراحم الرب على الخليقة.

ترتيبٌ حَسِنٌ أن نتطهر من محبتنا الزائدة لأنفسنا بأن نطلب عن كل مَن له احتياج، وكل مَن هو غُرسٌ حيٌّ في البيعة المقدسة.

وأعلم أن الأواشي هي حقًّا تخوم البيعة، ليس لأن البيعة محدودة كقطعة أرض، ولكن لأنه حيث توجد البيعة فلا حدود لها، وإنما تخوم البيعة هي حيث شعب البيعة كائنٌ من الخدام وكل ملء الكنيسة الجامعة الرسولية.

(١) الغَلَس؛ ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

وكما كان الرقيب يُقام على الأسوار قديمًا لحفظ المدينة وإنذار سكانها من الأعداء، هكذا يُقام الأسقف والقس والشماس لحفظ تخوم البيعة والدعاء ليل نهار بالطلبة لكي يحفظ الرب البيعة بسلام. وهذه هي عِلة ترتيب الأواشي، فأول كل شيء أن نطلب سلامة البيعة، وبعد ذلك نطلب عن حُسن خدمة الخدام الناظرين كل حين هدوء واستقرار شعب المسيح، وبعد ذلك نطلب عن الاجتماعات الكائنة في كل كنيسة لكي يفتح الرب الإله أمام القاطنين في كل منزل طريق الحياة الأبدية. ولأننا نعاين المسيح قائمًا من بين الأموات، فإننا نتوسل إليه بالأواشي سائلين من قوته الإلهية أن يُحيي الكل. وعندما نتوسل بالطلبة، فإننا نقدم احتياجات الكنيسة وسؤالات أبنائها لكي نجوز هذه السِّحرية ونحن في هدوء وعفاف وطهارة.

الفصل الثالث

# البخور رائحة حياة الابن الوحيد

في العتيقة أمر الله موسى أن يُقدَّم له بخورًا، ولم يكن يُقدَّم في زمن الآباء البطاركة إبراهيم واسحق ويعقوب؛ لأن هؤلاء لم يضعوا أساس خيمة الاجتماع ولا عبدوا الرب الإله حسب الشريعة، لأن الشريعة لم تكن قد أُعطيت، ولا ظَهَرَ الله على الجبل في سحابٍ وضبابٍ ونورٍ ونارٍ ومنظرٍ مخيفٍ أدخل الرعب على قلوب بني إسرائيل.

فإذا كان البخور من القواعد الأساسية التي أرستها الشريعة لعبادة الرب الإله، فإننا نقدِّم البخور للثالوث القدوس كرائحةٍ حسنةٍ طيبةٍ وتقدمةٍ وصعيدةٍ؛ لأن الكاهن الذي استوعب أسرار الخلاص، موسى العظيم قد وضع أساسات البيعة الجامعة الرسولية (القاثوليقية)، فأُعلِن له عن تقسيم الهيكل إلى قدس أقداسٍ، وقدس. وأقام مذبح البخور في القدس وليس في قدس الأقداس؛ لأنه مذبحُ شفاعةٍ ووساطةٍ لدى الله الآب. وهكذا، في كل صلوات الشفاعة والتوسل يُقدَّم البخور عوضًا عن الشعب رائحةً مقبولةً لدى الله الآب، وهي رائحة الابن الوحيد الذي أصعد ذاته بخورًا ورائحةً ذكيةً عن خلاصنا، فاشتمَّه الآب الصالح وقت المساء عندما مات على الجلجثة (الجلجلة).

من أجل ذلك كان البخور يُقدَّم مع التضرعات والصلوات لله حسب خدمة العتيقة، ويقول معلمنا داود النبي: "لتدخل صلاتي إليك كرائحة بخور" (مز ١٤١)، وهو قولٌ ثابتٌ؛ لأن البخور كان يُقدَّم في أوقات الضيق وعند الحصار طلبًا لرضى الرب واستجلاب مرضاته. وقد وقف الكاهن النبيل فينحاس

بالمجمرة وفيها البخور، فتوقف الوباء لأنه أدرك بروح النبوة أن حياة عدم الفساد للابن الوحيد سوف تُقدَّم عنَّا؛ لكي يرفع الله الآب وباء الموت عن الإنسانية. وهكذا صار مثالًا لرئيس الكهنة الذي أصعد ذاته رائحةَ بخورٍ ذكيةٍ لكي يسترضي الآب الصالح.

وكما كان البخور يقدَّم في القدس -وهو الترتيب النبوي القديم- صار يُقدَّم أيضًا في القُدس، أي الأواشي المقدسة التي تسبق دخولنا إلى قُدس أقداس الرب، أي صعيدة وذبيحة ربنا يسوع المسيح نفسه؛ لأنها هي التي بها ندخل إلى قُدس الأقداس، أي حضرة الآب السماوي. من أجل ذلك يطوف الكاهن بالمجمرة حول المذبح أثناء تلاوة الأواشي لأنه يطلب قبول الصلوات والطلبات في وساطة الكاهن العظيم ربنا يسوع المسيح الذي قدَّم ذاته عنا.

أمَّا سبب الطواف حول المذبح، فهو عظة للكاهن والشعب معًا؛ لأن تقديم الصلوات بالطواف هو إعلانٌ على أن المذبح هو الذي يتوسط طلبات وتوسلات الكنيسة الجامعة (القاثوليقية)، وإننا به نبدأ وإليه ننتهي. وكل مَن يقترب من المذبح، إنما لا يقترب إليه بمفرده، وإنما معه توسلات وسؤالات الكنيسة. وهذا هو معنى العظة للكاهن الذي يطلب عن الكنيسة، وللشعب الذي يتوحَّد معه في الطلبة، والكل واقفٌ عند مثال الاتحاد السري، أي المذبح الإلهي الذي أقامه الروح القدس في الكنيسة الجامعة (القاثوليقية). وهكذا يذكر الشعب أن هذا هو الذي قالوا له: أكسيوس. أكسيوس. أكسيوس. أكسيوس عندما رُسم وأُقيم لخدمة المذبح، وأن هذا هو الذي اختاروه لكي يُقدِّم ويتوسل عنهم ويخدم مذبح الكنيسة الجامعة (القاثوليقية) في كنيستهم التي هي كنيسة الله التي اقتناها بدم ابنه الوحيد.

ولذلك السبب أيضًا يُقدَّم البخور أثناء الطواف بالمذبح؛ لأن الذي أعطى الخدمة المقدسة الشريفة هو الكاهن الحقيقي ربنا يسوع المسيح، وهو الذي

بحياته الغالبة للموت والفساد يقف في وسطنا مُعلِنًا برائحة حضوره، قيامتنا وغلبة الفساد بالبخور المختار الذي يُقدَّم عنّا في كل صلوات التوسل، وفي كل طقوس البيعة مثل المعمودية ومسحة الميرون والأكاليل والجنازات وسائر الطقوس الأخرى.

واعلم أننا نرفع البخور أثناء قراءة الكتب الإلهية؛ لأن البخور شهادةٌ على حقيقة تجسد ابن الله، وأن التجسد هو ختم الوحي المبارك الذي أُعطيَ للأنبياء في العتيقة كلمةً نبويةً، ووُهِبَ عيانًا وحقائق ظاهرة لمسها الرسل بأيديهم كقول الإنجيلي يوحنا (١ يوحنا ١: ٣).

ومتى رأيت البخور سبِّح بفكرك مَن جاء وتنازَل وأخذ صورة العبد لكي يرفع العبيد من مزبلة العبودية إلى شرف وكرامة البنوة السماوية. هذه رائحة الحياة الجديدة التي أدخلتنا في شركة السماويات ومع السماويين.

واعلم أيضًا أننا في خدمة العهد الجديد نجلس في وليمة السماويين، وأننا معهم نقدِّم التسبيح والشكر للثالوث القدوس الذي افتقدنا بمجيء الابن الكلمة في الجسد وميلاده من العذراء وموته وقيامته وصعوده إلى السماء، ثم مجيء البارقليط المعزي. هذه هي رائحة البخور الحقيقي. ولما وُلِدَ سيدنا وربنا له المجد من العذراء أدرك المجوس أنه الكاهن الحقيقي فقدَّموا له البخور؛ لأن حياته قد أشرقت بالنور والفرح، إذ جاء بميلادٍ بلا زرع بشر، ومِن بتولٍ لم تعرف رجلًا فوُلِد على خلاف الطبيعة لكي يؤسِّس ميلادًا جديدًا للبشرية على خلاف الطبيعة، أي ليس من الزواج ولا من زرع الرجل ولا من امرأةٍ كقول الإنجيلي يوحنا (يو ١: ١٣).

هذا هو البخور المختار الذكي، ورائحة حياة إلهية سماوية آتية في الجسد لكي تطهِّر الطبيعة الإنسانية من الفساد والموت. أمَّا عندما مات ربنا، فقد انفصلت نفسه الإنسانية عن جسده، ولكن لاهوته لم ينفصل قط لا من

نفسه ولا من جسده. وهكذا فاحت رائحة الاتحاد السري، أي أقنوم الابن الكلمة الذي لبس طبيعتنا لأن جسده لم يرَ فسادًا بسبب اتحاد اللاهوت به، أمَّا نفسه، فقد أنارت الهاوية وجعلت العالم المظلم يرتعد، وأصعدت معها آدم وبنيه من الجب الأسفل، أي المواضع المظلمة التي كانت فيها النفوس مأسورةً. وهكذا عطَّر الربُّ الهاويةَ بعدم الفساد؛ لأنه حلَّ فيها ولم يقدر الموت أن يمسكه، رائحة غلبة وخراب للهاوية.

ولمَّا قام ربنا وإلهنا، فقد عادت نفسه واتحدت بجسده، فقام حيًّا معلِنًا نهاية موت الإنسانية ومبشِّرًا بالفرح الحقيقي، أي فرح القيامة المقدسة. وهكذا أباد الفساد وأذل الشيطان وكسر الهاوية ورفعنا لله أبيه من الجب الأسفل وأظهر الحياة القاهرة الموت.

لذلك، عندما يقدِّم الكاهن البخور، فهو يضع خمسةَ أيادٍ: للميلاد والصليب والقيامة والصعود وحلول الروح القدس المعزِّي. خمسةُ ينابيعَ فاضت بالحياة الغالبة. وبعد قيامته صعد إلى السماء ولم يترك جسده الذي أخذه من العذراء، بل حمله معه ودخل به أمام عرش الآب، وهناك رآه يوحنا الحبيب في سفر الرؤيا (الجليان) في شكل حَمَلٍ.

واعلم أن الرب لم يتحول إلى حَمَلٍ بعد صعوده، وإنما اختار الرب أن يعطي هذه الصورة السرية من أجل الذبيحة التي أقامها في البيعة؛ لأن يوحنا رآه مثل حَمَلٍ مذبوحٍ (رؤيا ٥: ٦ ، ١٢)، وهكذا شرح لنا أن الصعود لم يكن نهاية الخلاص، بل نهاية ما عمله الرب لأجلنا، وبداية ما نناله نحن مِن اشتراكٍ حقيقيٍّ في الأسرار السماوية العظيمة، أي ميلادنا على مثال ميلاده، وموتنا معه، ودفننا وقيامتنا على مثال قيامته، واتحادنا بالروح القدس الذي حلَّ وطهَّر الأحشاء البتولية، ومَسَحَه في الأردن، وقرَّبه للآب قربانًا عنّا (عبرانيين ٩: ١٤)، ثم أقامه من الموت وأصعده إلى السماء، وبعد ذلك سكبه الابن الوحيد مثل غنيمةٍ عظمى على الكنيسة، فقد فاز الابن الوحيد بما لا يمكن أن يفوز به

بشرٌ، لأنه ليس ابن البشر فقط، بل ابن الله أيضًا الواحد وغير المنقسم من بعد الاتحاد إلى اثنين.

ولما فاز بعدم الفساد لأجلنا من قِبل الاتحاد، وبعدم الموت من قِبل القيامة، وببداية سماوية من قِبل ميلاده من الروح القدس ومن العذراء القديسة مريم، سكب الروح القدس الذي اشترك في كل هذه، ووزَّع الروحُ هذه علينا، وأضاف إليها المواهب الروحية السماوية التي يوزِّعها حسب إرادته كقول بولس الرسول (١ كو ١٢: ٧ - ١١).

وعندما يقدِّم الكاهنُ هذه الخمسة الأيادي، فهو يعترف بالإيمان الأرثوذكسي معلِنًا أن الرب افتقدنا وأفاض علينا الحياةَ العديمة الموت الغالبةَ الفساد.

وقد سبق وقلنا إن يوحنا الحبيب رآه في صورة حَمَلٍ؛ لأنه واقفٌ مثل الذبيحة الطاهرة عديمة الفساد عنَّا وعن جنسنا يشفع فينا بجلوسه عن يمين الآب، وعلى عرش مجده.

وكلما قدَّم الكاهن البخور أثناء التوسلات، فهو يعرِّفنا مسبقًا أن الطلبات مقبولةٌ، لأن حياة ربنا هي التي تشفع فينا وتجعل صلواتنا تدخل إلى قدس الأقداس بلا مانعٍ ولا عائقٍ.

ومِن بعد الإنجيل لا يلمس الكاهن البخور ولا يمد يده إليه حتى قوله: "تجسَّد وتأنَّس"، وعند الطلبة من أجل الراقدين. وعِلة ذلك أن الحياة التي يشير إليها البخور سريًا تكون معلَنةً بكلمة الله والصلوات، أمَّا بعد ذلك، فإن الذي يقدِّم لنا ويعلِن حياته هو الربُّ نفسه، ويكون أنَّ مَن اشتم رائحة عدم الموت في مواعيد كلمة الله وعاين القيامة بالاعتراف الرسولي (قانون الإيمان)، هو الذي ينال قوة وإشراق حياة الابن الوحيد عندما يضع ذاته عنّا ذبيحةً مقبولةً لله الآب.

وأنت يا مَن ترتِّل مؤكِّدًا أن الابن الوحيد وُلِدَ من العذراء وقد رأيت ذلك في المجمرة[1] التي تخبر باتحاد اللاهوت بالناسوت، تراه هو ذاته ليس رؤية العين، وإنما رؤية الروح التي يعلنها الروح القدس للفاهمين، ولذلك يتوقف المثال متى جاء النور.

أمَّا عندما نقول "تجسَّد وتأنَّس"، ويضع الكاهن البخور، فهو اعترافٌ بالأمانة الأرثوذكسية، أي اتحاد اللاهوت بالناسوت؛ لأن هذا هو أساس السر المجيد. وإن لم يكن ربنا هو أقنوم الكلمة والابن الوحيد ما كان قد قال: "إن مَن يأكل جسدي ويشرب دمي له حياة أبدية" (يوحنا ٦: ٥٤)، فأكلُ الجسد وشُربُ الدم هو اتحادٌ بالابن المتجسد، واتحادٌ بلاهوت الكلمة واهب الحياة. هذه هي عِلة تقديم مثال الاتحاد، أي المجمرة لكي يصعد منها البخور الذكي معلِنًا لنا حياة الابن الغالبة الموت.

وكذلك أيضًا عندما يقول: "وَضَعَ لنا هذا السر العظيم الذي للحياة"، فهو يأخذ من ذات البخور الذي قدَّمه عند قوله: "تجسَّد وتأنَّس"؛ لكي يُعلن السر الواحد، أي حلول الابن الوحيد وكينونته على المذبح وقيامه عنّا نحن المذنبين.

ومتى تمَّ السر، وحلَّ الروح القدس، لا يُقدَّم البخور في الأواشي بعد استدعاء الروح القدس؛ لأننا لسنا أمام المثال، وإنما أمام السر الكامل.

أمَّا عِلة تقديم البخور في الطلبات التي تُقدَّم عن الراقدين، فاعلم أنها بشارةٌ للأحياء، وأن الربَّ قد ضم هؤلاء إلى مجده، وأنه يأخذهم كراعٍ صالحٍ إلى المياه الحية وأنه يغذِّيهم في أورشليم السماوية.

---

(١) الإشارة هنا إلى اللحن الكنسي "المجمرة الذهب....".

الفصل الرابع

# كيف تقدِّس طقوس البيعة حواس الجسد؟

لمَّا سقط الإنسان الأول، انقسم عقله وانقسمت النفس وصارت تنفصل عن الجسد بالخطية حتى يكمل انفصالها بالموت. وصارت الأهواء تُقاتِل النفس، فتظن هي خطأً أن هذه الأهواء نابعةٌ من الجسد، ولكنها بالحقيقة نابعةٌ من المخيلة التي تنشط بسبب فراغ النفس من حضور الله فيها، وتبحث في كل اتجاه عن الأُمور غير النافعة وتخلقها لذاتها صورًا وتُجسِّم أمامها ما تريده دون أن تدرك أن هذه الأُمور تُزيد من ابتعادها عن الله وتُزيد من انقسامها الداخلي.

وبسبب السقوط صارت حواسُ النّفس معطلةً؛ لأنها عدمت النور الإلهي، أي الروح القدس الذي يرشدها وينيرها وصارت النفس -وقد أهملت حواسها الداخلية- تظنُّ أن حواسَ الجسد، وهي السمع والشم واللمس والرؤية هي حواسها الأساسية التي تعتمد عليها، فأهملت حاسة التمييز التي كانت فيها أصلًا على مقتضى الطبيعة واستنارت بالروح القدس، فصارت بلا تمييز حقيقي؛ لأنها اعتقدت أنها بدون الروح القدس تستطيع أن تُقدِّر لذاتها ما هو الخير، فوقعت البشرية بسبب سوء التمييز في شِرك الوثنية، وأهانت ذاتها بعبادة المخلوقات دون الخالق. لأن العبادة الوثنية أزالت من النفس الإنسانية قدرتها الطبيعة على التمييز، وجعلت النّفس عديمة الإدراك، فلا هي صارت تعبُد الخالق، ولا صارت تدرك الفرق بين الخالق والمخلوق.

وقد رتَّب معلمنا الرسول بولص في رسالته إلى رومية كيف كانت

البشرية في أول عهدها بعد سقوط آدم تعتمد على معرفة الله من الطبيعة (رومية ١: ١٩)، ثم عدمت هذه المعرفة (رومية ١: ٢١)، وفنيَ التمييز بقوله: "وبينما هم يدَّعون أنهم حكماء برهنوا بادعائهم على أنهم جهلاء، وذلك لأنهم أبدلوا مجد الله الذي لا يضمحل بما يشبه الإنسان وصورته الذاهبة إلى الاضمحلال حتى أنهم عبدوا الطيور والزحافات والدواب" (رومية ١: ٢٢ - ٢٧)، عند ذلك تركهم الله لكي يفعلوا ما يشاءون، فكانت النتيجة الحتمية أنهم أهانوا ذواتهم وانحطُّوا وصاروا مثل الحيوانات التي يعبدونها (رومية ١: ٢١ - ٢٤).

تلك هي الأسباب الحقيقية، وعِلة وضع الطقوس الكنسية على النحو الذي نراه في البيعة. ذلك لأن الطقوس ترفع العقل والحواس من الحياة السفلية الأرضية إلى حياة سماوية عاقلة مستنيرة بالروح القدس. الطقوس تنقل الحواس من الإدراك الأرضي إلى إدراك السماويات، أي أسرار البيعة المقدسة.

واعلم أن الإنسان عندما خُلق على صورة الله وحسب مثاله كان قادرًا على رؤية الله ومخاطبته وسماعه. وبسبب عدم وجود شجار بين النفس والجسد، كان اتحاد الإنسان مع جسده لا يجعله يفرِّق بين ما هو مرئي بالعينين وما هو مرئي بالنظر؛ لأن عدم انقسام قوى النّفس الداخلية جعل ما تراه النّفس بقواها العاقلة واضحًا صحيحًا حتى أن العينين كانت تشارك بالتركيز على ما تراه النّفس، وهذا هو المعنى وراء الكلمات في الأسفار الإلهية عن رفع القلب ورفع العينين؛ لأنهما فعلٌ واحد في حالة اتحاد النّفس والجسد، وفعلين مختلفين في حالات الانقسام.

وكانت قوى النّفس العاقلة مثل المخيِّلة والذاكرة والإرادة تعمل كلها في وحدة واحدة بلا انقسام، لأن الموت لم يكن قد قبع في مخيلة الإنسان، ولم تكن الإرادة تنفر من الصلاح والخير، بل تتأمله في الآب والابن والروح القدس، وتدرِك أنها بدون الثالوث عاجزةٌ بلا حياة، فتنجذب بقوة التشبُّه بالله

الذي خُلقت على مثاله إلى المحبة والخير بلا فزع وبلا اضطراب. وسوف نصير على هذه الحالة بعد أن نتقدس، وينـزع ربنا يسوع المسيح قوة الموت الكامنة فينا، ويحرر المخيلة من فزع الفساد والانحلال، ويصبغها بقوة القيامة وبصبغة عدم الموت؛ لأنه يكشف لقوى النّفس كيف كسَّر الجحيم وحطَّم متاريسه وأهان القوات الشيطانية التي تملك في الظلمة البرانية؛ لأنه فضحها وجعلها كلا شيء.

أمَّا قبل التجديد، فقد كانت النّفس تنظر إلى ذاتها فلا ترى فيها صورة الله، إنما ترى فيها الموت، وترى فيها الصورة الفاسدة التي آلت إليها بسبب السقوط، وترى أيضًا إنها عاجزةٌ عن الصلاح وأسيرةٌ في يد العدو الشرير ومحدودةٌ بحدود الموت. ولمَّا أدركت هذا، لم تكن قادرةً على العودة إلى الله؛ لأن الموت الذي سكن فيها وصار قوة دمار وخراب، جعلها تنفر من الله نفسه، وجعل المخيلة تخلق -من الفساد والموت الذي فيها- صورًا فاسدةً ميتةً بلا قوة حياة لأنها نابعةٌ من الموت.

واعلم أنه، حتى الكلمة التي ينطقها الإنسان، لم تعد قادرةً على أن تكون وعاء الطهارة والفطنة، بل صارت أوعية الفساد والموت، وصار كل ما ينبع من الإنسان الميت بالضرورة ميتًا أو ملوثًا بالموت. هذه هي عِلة شريعة التطهيرات في العتيقة؛ لأن إفرازات الجسد ولمس الجثث وما إليها صار مثل علامات تحذير للإنسان بأنه يعيش تحت سلطان الموت، وأن النجاسة التي فيه نابعةٌ منه، ومن الأشياء التي يتصل بها، وهذه النجاسة ليست كما علَّم المنشقِّين والهراطقة هي شرٌ ومِن صُنع إله الشر، وإنما كتحذيرٍ لعدم طهارة الإنسان، وبأن الخليقة أُخضِعت للبُطلِ كقول الرسول بولص (رومية ٨: ٢٠).

وإذ صارت المستقيمات معوجات، وانحرفت الخليقة عن الله، فقد صار من الضروري تحذير الإنسان ومحاصرة اهتمامه لكي لا ينحرف إلى الفساد.

وهذه هي عِلة زيادات الشريعة وكثرة وصاياها وصعوبة طقوسها. وكما كان الإنسان يعبد الحيوانات عديمة النطق، صارت هي بذاتها ذبائحَ تُقدَّم لله الحي خالق الكل، ومع أنه لا يحتاج إلى ذبائح بالمرة، وقد حذَّر بني إسرائيل مرارًا كثيرةً بواسطة الأنبياء من أنه لا يحتاج إلى دماء الثيران أو لحومها؛ لأنه هو خالق كل الأشياء. ولكن صارت تلك المعبودات وسيلة الاقتراب من الله، وصارت تلك التي يعلن عن أُلوهيتها في الديانات الوثنية هي بذاتها التي تقرَّب قربانًا لله الحي دلالةً على ضعفها، وإرشادًا للإنسان بأن الله خالق الكل، وتحذيرًا لكي لا يقع في الوثنية.

وهكذا صارت طقوس العتيقة قائمة بفرائض واغتسالات وذبائح وصفها الرسول بأنها مؤقتة وموضوعة إلى وقت التجديد[1] (عب ٩: ١٠).

أمَّا طقوس البيعة الجامعة (القاثوليقية)، فهي ليست كذلك، إنها اغتسالاتٌ عقليةٌ تغسل العقل من ارتباك الفكر، وذبائحُ روحيةٌ تقدِّم الإنسان إلى خيرات الثالوث القدوس. ومَن يغسل فكره ليس كمَن يغسل جسده؛ لأن الأول إنما يغسل جوهره الدائم، والثاني يغسل ما هو ذاهب إلى التراب الذي أُخِذَ منه.

وطقوس البيعة تنزع من الفكر التهاون والتراخي والكسل، وتحرِّض النّفسَ على المثابرة وطلب السماويات. إنها تغسل النّفسَ من خطاياها؛ لأنها تقود النّفسَ إلى تأمل السماويات، وإلى إدراك ما نالته في الأسرار. وتفتح الطقوس عيني العقل أي المخيلة وتنيرها وتجعلها تتحرك في اتجاه الخير والحياة، لا في اتجاه الموت والفساد؛ لأن الله وضع المخيلة كعينين للروح ترى بهما الأمور السماوية وتدركها في سهولة وتتعزى بها إذا نالت استنارة الروح القدس.

(١) في الترجمة البيروتية "وقت الإصلاح"، والإصلاح والتجديد بمعنى واحد.

والنّفسُ التي رتَّلت في نصف الليل، وسبَّحت لقيامة المسيح وانتظرته كعريس واعترفت بقيامته، هذه النّفس التي تطهَّرت بالتسبيح، ترى الشمعتين على المذبح، فتعرف من نور القيامة الذي امتلأت به من التسبيح أنها أمام المسيح القائم والحي قاهر الموت وغالب الجحيم، وترى في الشمعتين الملاكين الذين بشَّرا النسوة بالقيامة، فتقبل النّفسُ هذه البشارة التي استعدت لها منذ نصف الليل.

وعلى هذه الحال نرى كيف تغتذي النّفسُ من التسبيح العقلي ومن كلمة الله، وكيف تنهض من سُبات نومها الثقيل متوجِّهةً إلى البيعة سائلةً من رحمة الرب أن تُحسب مع طغمات الملائكة. ومتى سبَّحت مع الملائكة في "الكنيسة بيت الملائكة"، وعاينت فرح القديسين، استنارت وأدركت أنها في بيت الله، وإن الله حاضرٌ مع القديسين، وإنه أتى ليعلِن ذاته في الوليمة السماوية، أي وليمة الإفخارستيا أو الشكر.

مباركٌ مَن يسهر ويرتفع عقله تدريجيًّا ويتغذَّى بالكلمة لكي يستنير، وتحرك التسابيح والصلوات أشواقه الروحية لكي يطلب السماويات. وهكذا تقوم طقوس البيعة على الكلمة الإلهية التي نطق بها فم الرب، وهي الكلمة التي أخذها آباؤنا القديسون وصاغوها في التراتيل والصلوات واعترفوا بها في التسابيح والقداسات، وفي حياتهم (اليومية) وفي المغارات وأمام الملوك والولاة وفي المجامع المسكونية.

والنّفسُ التي تقبل الكلمة الإلهية مثل بذرة حياة، هذه البذرة يغرسها الروح القدس في النّفسِ؛ لأن الروح هو الذي كوَّنها وهو الذي أعطاها للأنبياء، ومتى أخذت النّفسُ الكلمة الإلهية، وسكنت فيها، صارت صلاةً وتسبيحًا للثالوث. وهذا هو سبب استعمالنا صلوات الآباء المجاهدين الظافرين واعترافات الشهداء الذين نالوا الثبات من المسيح، فسكنت فضائلهم ورؤيتهم

الحسنة الطوباوية في صلواتهم التي وضعوها لتدبير البيعة وإقامة الأسرار المقدسة. وعندما تحوَّلت كلمة الله فيهم إلى صلوات، صارت هذه الصلوات هي الاعتراف الصحيح بالإيمان، وصارت الرؤية الحسنة الحقيقية لأسرار الله.

وتقوم طقوس البيعة على أعمالٍ ظاهرةٍ، وهي حركات اليدين والسجود والبخور والحركة حول المذبح مثل الطواف به. وهذه مأخوذةٌ من الأسرار الكنسية، وتُعاد في القداس الإلهي لكي تثبِّت النعمة الإلهية العظيمة. فالاتجاه نحو الشرق يحدث أول ما يحدث في المعمودية بعد جحد الشيطان، وهو تحوُّل النّفسِ من العبادة الباطلة الزائلة إلى عبادة ربنا يسوع بالروح القدس. هذا التحول هو سر وجودنا في البيعة؛ لأن الذين يطلبون العبادة الحقيقية ويسجدون لله بالروح والحق، هؤلاء هم الذي يجتمعون حول المائدة الإلهية مائدة الحياة.

ورفعُ اليدين مأخوذٌ أصلًا من الاعتراف بالإيمان في المعمودية، وصار طقس الصلاة لكل مَن يصلي مِن بعد خروجه من الماء طالبًا المعونة الإلهية.

وهكذا نطوف حول المذبح قبل قراءة كلمة الله؛ لكي ندرك أننا نحن الماثلين أمام مذبحه، إنما نتحول من الاهتمامات العالمية وتجوال الفكر إلى الاهتمامات السماوية التي يُصبح المذبح قلبها، ونطوف بالتهليل وبالبخور لأجل سماعنا المواعيد السماوية التي تُتلى علينا.

وهذا يحدث أيضًا في مواسم أعياد الشهداء والآباء عندما ندور بالعظام المقدسة والأيقونات والصلبان حول المذبح؛ لأنه طواف التهليل بالظفر الذي حقَّقه هؤلاء السُّعداء الأطهار بدمائهم. ولكن أول كل شيء هو أن يطوف المعتَمِد بالبيعة بعد عماده لكي يراه كل الشعب الذي حضر معموديته والذي لم يحضر، ويطوفون بالمرسومين لدرجات الكهنوت بعد رسامتهم لكي يراهم الشعب أيضًا، وبعد ذلك يطوفون بهم حول المذبح.

وهذا هو الذي يجعل هذه الأُمور مُحرِّكةً للنّفس والجسد؛ لأن الإنسان واحدٌ لا ينقسم، واتحاد النّفس بالجسد اتحادٌ كامل حتى أن أحدهما لا يقوى على عمل شيء بدون الآخر. ومن أجل هذا الأمر نطوف بالمذبح متذكرين مواعيد الله ومحبته العظمى ونائلين بهجة الخلاص؛ لأن الإنسان إذا سار في هيكل الله، أدرك أن الخلاص رَحبٌ، وأن مواعيد الله حقيقية؛ لأنه أتى بنا إلى هيكله، وقبل ذلك غسَّلَنا وقدَّسنا في جرن المعمودية المقدس، ثم أدخلنا إلى المذبح السمائي وجعلنا نطوف به متذكِّرين مراحمه الكبيرة. وهكذا تشترك الحواس وأعضاء الجسد في الطِّلبة والصلاة لأن الذين يطوفون بالبيعة في الأعياد حاملين البشارة أو الصليب أو الأيقونات يتكوَّن فيهم الحس الداخلي بأن أقدامهم إنما تسعى لتمجيد الله وخدمة البيعة، وإنها تسير في طريق الحياة غير المعوَّج، وتطوف بالمذبح السمائي قلب الصعائد والقرابين والذي تُقدَّم عليه حياتنا الناطقة.

واعلم أن ترتيب حمل القربان ووضعه على المذبح هو ترتيبٌ حكيم؛ لأنه إظهار الإرادة والنية الداخلية بالرغبة في تناول الأسرار. وما يعمله الإنسان بيديه وعقله إنما هو ما يستقر في حياته الناطقة. وهكذا مَن يحمل القربان ويقف أمام المذبح، إنما هو مَن يضع حياته ذبيحةً حيةً مرضيةً عند الله، أي حياته العقلية كقول بولس (رو ١٢: ١)، وهو يضعها لأنه يُدرك أنه بالصلاة وبكلمة الرب وبالاتحاد السري بالصعيدة الإلهية، سوف يصبح طاهرًا ومقدَّسًا للرب، أي ذبيحةً حيةً مقبولةً بالخدمة السماوية التي يرأسها ربنا يسوع المسيح الكاهن العظيم.

واعلم أن هذا هو قولنا بعد القبلة الرسولية: "رحمة السلام وذبيحة التسبيح"، أي أن حياتنا تنقَّت من العداوة واغتسلت من البغضة، فصارت أهلًا لأن تقدَّم لله في تقدمة ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح، وهذا اتحادٌ كامل.

وبسبب وحدة النّفس والجسد، صار من الضروري أن تقوم النّفس بالطقوس، ليس من قبيل اشتراك النفس مع الجسد أو اشتراك الجسد مع النّفس؛ لأن هذا يحدث مهما كان العمل الذي يقوم به الإنسان. ومن يأكل الطعام يتذوَّق بفمه وبفكره يميِّز الأطعمة ويختار منها ما يناسبه وبإرادته يضبط الحنجرانية[1]. ولكن الطقوس هي انشغال الحواس الداخلية والخارجية، وترتيب صعود الفكر إلى معاينة الأسرار لكي يكون صعوده سهلًا وبلا تعب، ولكي تكُفَّ مشاغبةُ الحواس ولا تعطِّل العقل. وهكذا يكون أن مَن يحمل البشارة ويطوف بها حول المذبح يُدرِك أن البشارة المفرحة تعلِن أسرار البيعة، كما أن المذبح يشرح محتويات البشارة، ومع أن العقل يتعلم هذا، إلَّا أن الذين يسجدون عند سماع كلمة الإنجيل ويُقبِّلونه، إنما يقتنون الخشية والخضوع لله؛ لأن الذي يُقبِّل الإنجيل، إنما يفهم كيف يكفُّ عن الأفعال الرديئة، ويكون أن العينين ترى البشارة، والفم يُقبِّلها والعقل يخشع والقلب يخضع ويرتفع إلى طاعة الوصية الإلهية.

طوبى لمن يقف منتبهًا في البيعة، ويحترس بفكره؛ لأنه ينال خيرات كثيرة لا يمكن النطق بها.

وهكذا تتقدس حواس الجسد؛ لأن العينين ترى، والفكر يفهم، والفم يأكل الأسرار، والقلب يرتفع بالرؤية الروحانية إلى الاتحاد السري. الجسد يسجد أو ينحني والإرادة تقتني الخضوع. القدمان تسيران في البيعة أو تطوف بالمذبح، والثقة بمواعيد الخلاص تزداد؛ لأن حركة القدمين تغرسُ في الحس الداخلي رجاء تذوق المواعيد السماوية.

وتقدِّس الطقوس العقل الداخلي؛ لأنه ينشغل بالترتيب، ويرتفع بالتأمل. والانشغال بالترتيب لا يجعله يفكر في الاهتمامات الباطلة، وإنما يفكر فيما سوف يفعله، وهذا يحصر الانتباه في الصلاة وتأمل الثالوث القدوس.

(١) الحنجرانية، ترجمة مباشرة من القبطية، وتعني شهوة الطعام ولذة التذوق.

الفصل الخامس

# درجات الارتفاع العقلي
# نحو الرؤية السماوية

القداس الإلهي هو طريق الكاملين لمعاينة الثالوث القدوس، وهو طريقٌ يبدأ بالكلمة الإلهية وبالصلاة وبالتسبيح ويتدرج صاعدًا إلى الاتحاد السري بابن الله وبالآب وبالروح القدس.

الدرجة الأولى: هي الانتباه واليقظة، ويصعدها الذين يواظبون على التسبيح وسماع كلمة الله باشتياق وتأمل أسرار الخليقة الأولى، أي خضوعها للخالق. هذه الدرجة تبدأ بالعشية ونصف الليل وباكر حتى قداس الموعوظين، وفيها تتهيّأ النّفس إلى استقبال الرؤية، فتغتسل من أدران الإهمال وتتنقى من حس الابتعاد عن الله؛ لأنها تُسبِّح مع الخليقة غير العاقلة، وتدرك سلطان الله الخالق وقوته الإلهية التي تضبط كل الأشياء، وهذه قوة حياة لأن الخضوع والطاعة لضابط الكل هو عتبة ملكوت الله.

الوقوف: هو القيام من الموت، وهو انتباه العقل واهتمام الروح.

الجلوس: هو مشاركة العروش السماوية في الجلوس عن يمين الآب.

السجود: هو طاعة كاملة للرب.

"لنقف حسنًا"، أي حسب صلاح الرب الذي أقامنا من الأموات.

"لنقف بانتباه"، أي ليكن لنا يقظةٌ لنعرف السر السمائي الفائق الذي

يؤهِّلُنا للخلاص. ولنطلب روح الذي أقام يسوع من الأموات لكي يعطي لنا قيامة العقل لكي ندرك ونفهم أسرار الملكوت.

## القيام بكلمة الله

عند سماع كلمة الله في رسائل الرسول بولس والرسائل الجامعة، لنقترب بفرح مِن الذي يحمل كل الأشياء بكلمة قدرته (عب ١: ٣)، لأننا من أجل هذا الأمر نطلب شفاعة القديسين (الهيتنيات) لكي ننال ذات الاستنارة التي نالها هؤلاء[١].

## الشاكيناه (سحابة المجد الإلهي) قبل قراءة الإنجيل

وقبل قراءة الإنجيل وبعد أوشية الإنجيل، يضع الكاهن بخورًا كثيرًا لكي نرى الرب الآتي على سحابة المجد الإلهي لكي يُبشِّرنا بالخلاص. الإنجيل هو بشارة الخلاص. هكذا يجيء الرب إلينا لكي يبشرنا بكلمة الحياة وبشارة الخلاص.

واعلم أن الطواف حول المذبح ببشارة الإنجيل (الإنجيل الذي يحمله الشماس) هو بشارة الخليقة كلها بالخلاص؛ لأن المذبح المقدس هو قلب البشارة بالحياة الأبدية، وهو مركز كل شيء، ويجب الطواف حوله عند قراءة الأسفار المقدسة (سر البولس والكاثوليكون والإبركسيس)؛ لأن هذه الأسفار هي الكلمة الإلهية التي تُبشِّر بالحياة الأبدية التي تُوهَب لنا في السر السمائي، المَّن العقلي أي جسد ربنا يسوع المسيح ودمه الكريم.

(١) راجع صلاة "يا رب المعرفة ورازق الحكمة".

الفصل السادس

# الأواشي بعد الإنجيل

في الأزمنة السابقة كان الموعوظون يقفون في خدمة القداس الإلهي، وكانت هذه الصلوات تُقال بعد العظة من أجل منفعة هؤلاء الداخلين للإيمان، ولذلك وجب أن يبقى هؤلاء لسماع الطلبات لكي يدركوا معنى الانضمام لكنيسة الرب جسده المقدس ولكي يشتركوا في الطلبة مع المؤمنين.

الفصل السابع

# صلاة الصلح

ولا يجوز التناول بدون مصالحة؛ لأن الذي يشترك في الأسرار المقدسة وفي قلبه وجدٌ وحِنقٌ هو مثل يهوذا الخائن الذي بقُبلةٍ باع سيده.

ويغسل الكاهن يديه معلِنًا أنه تطهَّر من خطية خيانة الأمانة، وإنه مستعد روحيًّا وجسديًّا للصلاة وتقديم الذبيحة العقلية.

وحسب ترتيب البيعة، يُرفع الابروسفارين؛ لأن سلطان الموت قد أُبيد بموت الرب، ويمسك الكاهن اللفافة المثلثة مؤكِّدًا أن مشورة الثالوث هي التي ختمت سر موت الرب وقيامته. ويرفع الشماس الصليب معلِنًا المصالحة بدم المسيح الحَمَل الحي الذي لا يموت.

ويضع الكاهن لفافتين على يده معلِنًا أننا نحيا في الزمان الذي يجب أن نستر فيه أجسادنا العارية من نعمة الله مثل آدم. وبعد صلاة الصلح يضع اللفافة التي معه على يده اليسرى، ويأخذ اللفافة التي على القربانة بيده اليمنى ويرشم بها الشعب بمثال الصليب قائلًا: "الرب مع جميعكم"، مؤكِّدًا تجسُّد الرب، وتقديم ذاته قربانًا للحياة الأبدية. ويرشم الخدام، وبعد ذلك يرشم ذاته مؤكِّدًا اتحاد الواقفين عند المذبح بالصليب المحيي الذي به نشكر الآب، وبه نرفع قلوبنا بدم الوسيط الوحيد ربنا يسوع.

## أيها الجلوس قفوا

ويصيح الشماس منذرًا الشعب بأن يقف، ليس جسديًّا، بل روحيًّا، أي لكي ينتبه؛ لأنه مزمعٌ أن يشترك مع القوات السمائية في التسبيح.

أمَّا عِلة رشم الشعب باللفافة التي على الكأس، فهي ظاهرة لأن الرب يسوع قدَّسنا بدمه الكريم، وبموته المحيي أعطانا قوة الاشتراك مع القوات السمائية في تسبيح الغلبة والخلاص.

الفصل الثامن

# أساس الخلاص

وبعد التسبيح مع القوات السمائية يقف الكلُّ في انتباهٍ؛ لأننا ندخل الفردوس الذي طُردنا منه بتجسد الرب وموته المحيي وبقوة الروح القدس. فقد عبَرنا مع شعب الله بحر التقديس في العشية، ولذلك نقف عند أرض كنعان، أي أساس الخلاص بتجسد الرب وموته المحيي. وهنا يقرِّب الشماس البخور عند قول الكاهن: "تجسَّد وتأنَّس"، معلِنًا أن رائحة الحياة التي للمسيح قد نُشرت في العالم كله. وعند قوله: "لأنه فيما هو راسمٌ أن يُسلِّم نفسه للموت عن حياة العالم"، يضع يديه على البخور مؤكِّدًا أن الحمل كلمة الله هو الذي أصعد ذاته رائحةَ بخورٍ للآب وقت المساء على الجلجثة وفتح باب الفردوس وأنعم لنا بشجرة الحياة، أي جسده المقدس.

الفصل التاسع

# التقديس

ويرفع الكاهن القربانة إلى فوق لكي يراها الشعب، ويضع يده على الاسباديقون ويقول: "أخذ خبزًا على يديه"، مؤكِّدًا أن الرب هو الذي فعل ذلك، وأن يديه الإلهية هي التي تحمل الخبز، وهي التي ترشم، وهذا هو سبب رشم القربانة بعلامة الصليب، وعندما يرشم بعلامة الصليب يقول: "وشكر"، مؤكِّدًا أن الشكر يقدِّمه الكاهن العظيم ربنا يسوع المسيح، وأن الصليب المكرَّم هو ختم الشكر وهو ختم البركة والتقديس.

وبعد ذلك يقسِم الكاهن القربانة من أعلى إلى أسفل مشيرًا إلى سر نزول الرب من السماء وتجسده، ويقسم الثلث القبلي والثلثان البحري مؤكِّدًا أن الابن هو الذي تجسد، وأن الآب والروح القدس اشتركا بالإرادة والمسرة، ولكن أقنوم الابن هو وحده الذي اتَّحد بالطبيعة الإنسانية بشكلٍ فائقٍ. ويمر بإصبعه على حافة الكأس كله، ثم يرشم ثلاثة رشومات مثل تقديس القربانة، ولكن هنا يحرك الكأس نفسه مثال الصليب شرقًا وغربًا وبحري وقبلي؛ لكي ندرك أن الخلاص شمل الخليقة كلها.

الفصل العاشر

# استدعاء الروح القدس

وبعد أن ندخل إلى أرض الموعد، أي حياة ربنا يسوع المسيح الذي هو أرض كنعان الحقيقية، أي ميراث القديسين السمائي، يطلب الخديم (الكاهن) روح الآب السماوي لكي يجعل الخبز والخمر اللذين خُتما بعلامة الصليب المحيي، جسد ودم ربنا يسوع المسيح، وذلك تحقيقًا للمواعيد العظمى؛ لأنه هو الذي رتَّب رتبة التدبير الإلهي، أي الحبل البتولي، وهو الذي كوَّن الناسوت في أحشاء القديسة مريم، وهو الذي مَسَحَه في الأردن معلِنًا إياه "المسيح الرب". وهو الذي من جهته قدَّم ذاته على الصليب فداءً لجنسنا (عب ٩: ١٣). وعند قوله: "وهذا الخبز يجعله جسدًا مقدسًا"، "وهذه الكأس أيضًا دمًا كريمًا للعهد الجديد" يرشم ثلاثة رشومات مؤكدًا أن تدبير الخلاص هو تدبير الثالوث المقدس الواحد بالجوهر.

الفصل الحادي عشر

# ميراث المسيح

ويشير بيديه إلى الجسد المقدس والدم الكريم قائلًا: "هذه التي اقتنيتها بالدم الكريم الذي لمسيحك"، معلِنًا أن الكنيسة هي ميراث المسيح. وعلى هذا النحو يُظهِر أعضاء جسد الرب في طلبات سلامية، وهي الطلبة من أجل الآباء وكل الخدام وكل الشعب. ويقول الكاهن في كل طلبة: "اذكر يا رب ..."، ليس لأن الرب ينسى، بل معلِنًا للقوات السمائية أن هذا هو جسد الرب، أي الكنيسة، ويطلب السلام والخلاص للكل؛ لأن هذا هو ذكرى الرب يسوع المسيح إلهنا رأس الكنيسة جسده. وهنا، بالروح القدس، يقدِّم أعضاء جسد الرب إلى الرب نفسه الذي تزوَّج الكنيسة وجعلها جسده في سر الزيجة الإلهي كقول بولس الرسول. ويصبح الكاهن مثل رئيس المتكأ يقدِّم أعضاء جسد الرب للرب نفسه، ويطلب بركة مواعيد الله الصالحة لكل شيء على الأرض حتى يأتي إلى مجمع الآباء القديسين، وهم أعضاء جسد الرب الذين ظهروا ظهورًا حقيقيًّا وسلكوا بالقداسة ونالوا المواعيد. وإذا بدأ بذكر الآباء الذين معنا، فهو ينتهي بذكر الآباء الذين رقدوا واستراحوا في الرب مؤكِّدًا أن الميراث الواحد هو الميراث الكامل والأبدي الذي ينتظر الجميع، إلى قوله: "وأيضًا فلنشكر الله .." ويرفع الجسد المقدس جسد الرب الذي يحمل كل هذه الأعضاء المقدسة. ويرشم الجسد بالدم مؤكدًا أن الجسد هو بالدم، والدم هو بالجسد، ذبيحة واحدة سمائية غير مائتة إلهية.

الفصل الثاني عشر

# رتبة القسمة المقدسة

نحن نقدم هذه الصعيدة "من أجل كل حال وعلى كل حال وفي كل حال"؛ لأننا من أجل حياتنا وشفاء أجسادنا وأرواحنا، وفي كل أحوال الحياة لا سيما تلك التي أسَّسها الرب، أي أعياد الخلاص السيدية، وغيرها من رتب الكنيسة الشهداء والنساك وكل محبي المسيح. وفي كل حال؛ لكي يجمع الرب أعضاء جسده المقدس ويجعل الكل واحدًا.

واعلم أن رتبة القسمة المقدسة تبشِّر القائمين في الكنيسة المقدسة برتبة الخلاص، لأن تقسيم جسد الرب هو إبراز أعضاء جسده، تلك التي كوَّنها الميلاد البتولي ومسحة الأردن والصليب المقدس والقيامة المجيدة، ونالت المسحة الإلهية. ولذلك يصير تلاوة الكلام المناسب، أي كلام البشارة المقدسة حسب المناسبة الخلاصية.

وعندما يقسِّم الجسد المقدس، فهو يفرز أعضاء الرب التي نالت المواعيد الإلهية حسب بشارة الإنجيل المقدس بالميلاد من فوق مثل ميلاده، وبحمل الصليب وبالبذل والموت مثلما مات هو، فهذه هي أدوات الحياة التي ينطق بها الكاهن، وهو يقسِّم الجسد المقدس ويجعل القسمة على رمز الصليب المحيي، وينقل هذا الرمز من الثلث إلى الثلثين دون فصل؛ لكي يصير الجسد كله معلنًا سريًّا بالصليب، ولكي إذا نطق بكلام القسمة وقسَّم الجسد يُعلِن صليب الرب سريًّا قبل أن يأخذ الاسباديقون، ومتى أخذه يضعه في الكأس مقلوبًا مثل الحمل الذي يُذبح بعد أن يوضع على ظهره، ويكون في الكأس

ميراثًا للخُدَّام، ولا يُعطى للشعب، ليس عن احتقار لأنه لا يوجد جزء في جسد الرب أعظم وأقل، بل لا يجوز لنا أن نتكلم عن أجزاء، بل نتكلم عن جوهرة؛ لأن جوهرة واحدة مهما كانت هي ذات القيمة مثل الكل.

الفصل الثالث عشر

# التسليم الذي لا يُقال جهرًا

بعد تناول الأسرار المقدسة نشرب قليلًا من الماء؛ لأننا نحن وُلِدنا من الماء الحي أي مياه الروح القدس في سر الحميم المقدس وسر الميلاد الثاني. والبسطاء من الناس يظنون أن هذا هو احتراسٌ لكي لا تبقى القرابين في فم المتناول، ولكن الحكماء يدركون أن شُرب المياه هي عودتنا إلى مياه الحياة، أي الروح القدس الذي بعد أن تطهَّرنا بالدم الكريم، نصير فيه، في نهر الحياة الكامل التقديس، أي أُقنوم الروح القدس الواهب الحياة والمحيي لكل مَن ينال الأسرار المقدسة.

وكما أننا ندخل الكنيسة ونسجد عند المذبح المقدس، أي في ذات الموضع الذي أخذنا عنده القربان المقدس والدم الكريم بعد معموديتنا، فإننا نعود إليه قبل كل صلاة لكي نقدِّم الشكر والتسبيح على الفداء والخلاص الذي وُهب لنا في يسوع المسيح ربنا. وهو ذات الموضع الذي نشرب عنده المياه الحية، وهو ذات الموضع الذي نأخذ منه خبز البركة الذي كان يرمز إلى ذبائح الآباء عند تقديم الحَمَل، والذي يوزَّع على الشعب لأنه صائم، فلا يتعب من أجل عدم الأكل. وهكذا نأكل من هذا الخبز بعيدًا عن الهيكل المقدس لكي يستقر في ضمائرنا أن ذبائح العتيقة لم تدخل هيكل ربنا يسوع المسيح، وإنما الذي دخل هو الحَمَل الحقيقي ابن الله الحي.

وأمَّا قولنا بأن تقدمة الكنيسة هي "الحَمَل"، فهذا معروف لنا لأن الرب يسوع هو فصح الحياة الحقيقية، وهو حَمَلُ الله، وهو الأعظم والأكمل ولم

يكن تقديمه وموته حسب رموز العتيقة، بل حسب قوة الحياة في الروح المحيي، أي حسب روح ربنا يسوع المسيح.

يجمع الرب أعضاء جسده في وليمة الحياة الأبدية، أي سر الأسرار الذي يتم بشركة وصُحبة الرب يسوع المسيح، وهو ما يجعل الكاهن يمر بالبخور في كل البيعة مقدِّمًا هذه التقدمة السمائية للرب، ثم لوالدة الإله والقديس يوحنا المعمدان والآباء الرسل وسائر طغمات الكنيسة. وإذا سلَّم البخور إلى الكاهن الشريك أو صافحة يلمس يديه أولًا بظهر يده ثم ببطن يده معلِنًا أنه قدَّم البخور للرتب السابق ذكرها، للملك المسيح، وللملكة الحقيقية، وكل أعضاء الجسد الحي، أي رتب البيعة، وفي كل مرة يلمس يد شريكة في الخدمة يذكِّره بأنه قدَّم البخور لهذه الرتب المقدسة، وهذا التسليم لا يُذاع ولا يُقال لأننا في الأزمنة السابقة كنّا نقوم بتقديم البخور أثناء وجود الموعوظين الذين لم ينالوا الصبغة، وكان هذا التعليم مثل غيره لا يُذاع ولا يُقال جهرًا، وإنما كُتب هنا من أجل الفائدة. وبعد التناول يرشُّ الكاهنُ المياه معلِنًا امتلاء الكنيسة من مياه الحياة أي الروح القدس.

تم شرح القداس الإلهي للأب العالم الفاضل سمعان بن كليل

يا رب ارحم القائل والناسخ والقارئ والعامل بما فيه

الحقير في كهنة بيعة القديس مار جرجس بالريدانية

القس غبريال بن هبة الله الشطانوفي

وبارك على والديه واحفظ لنا الاسكيم المقدس.

الباب الرابع

# معاني رشم الصليب

## في الحياة الروحية،
## وطقوس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية

الفصل الأول

# كيف تجعلنا طقوس البيعة مسيحيين؟

## (مقدمة كتاب حكمة الآباء المصريين)

واعلم يا مَن دُعيت إلى شركة ملكوت ربنا يسوع المسيح، أنك كنت غريبًا عن الله بسبب ولادتك خارج فردوس الله. وهذا ما يجعل جحدك لكل الحياة والأفكار البرَّانية الغريبة عن الله وعن حياة عدم الموت، هو أمرًا واجبًا قبل التغطيس في مياه الأردن (جرن المعمودية). ومتى تجرَّدتَ عن هذه الحياة ودبَّ فيك الحس الروحاني القديم الذي يخلقه فيك الروح القدس، واتحادك بموت المسيح ربنا وبصليبه، فإنك تُدهن مثل هيكل الله بدُهنٍ سماوي هو الميرون، وتنال اسم المسيحي، ويكون أنك من بعد خروجك من مياه المعمودية، ونوالك المسحة السمائية أن ترفع عيني قلبك إلى الله؛ لأنك تصير هيكل الله الحي، لا من حجارةٍ وخشبٍ، بل قلبًا جديدًا خُلِقَ لك من الماء والروح، وروحًا جديدًا مستنيرًا بسُكنى اللاهوت.

وكُلما تقول اسم ربنا يسوع المسيح، فأنت تحفظ هيكلك وتصونه، ولذلك رتَّب الآباءُ الإبصاليات[1] على اسم ربنا يسوع المسيح لكي تنادي اسم الخلاص وتحيا نفسك بقوته الإلهية التي صارت فيك. فالروح القدس ينادي ضميرك لأنْ تطلب ربَّ الخلاص، ربنا يسوع المسيح، ويحرِّك يديك لكي ترشم ذاتك بعلامة الصليب؛ لأن الرشم هو قوة المعمودية الخفية والذخيرة الكامنة فيك والتي تمد يدك إليها لكي تنال معونة السر الكامن فيك.

(١) راجع التسبحة السنوية حيث توجد إبصالية هي بمثابة دعاء لاسم ربنا يسوع في كل أيام الأسبوع.

واعلم أيضًا أنك دُعيت لأن تكون هيكل الله؛ لأن جسدك، إنما يتكوَّن بذرةً جديدةً حيّةً لا يقوى عليها الموت بسبب المعمودية والميرون، وبسبب اشتراكك في الجسد المحيي الذي تأخذه من المذبح، وهو الذي يجعلك قادرًا على أن تدوس عتبات الجحيم بلا خوف؛ لأن ربنا يسوع المسيح قد داسها وحطَّمها وتركها بلا قوة. وهكذا، كل مرة ترشم ذاتك، إنما تمسكُ بالمسحة الإلهية التي وُضِعَت عليك وقدَّستك، ويكون أمرُكَ أن تتكلم بكلام الله الصالح كرائحةِ بخورٍ صادرةٍ من جوفك، وأن تتصرف كما تتصرف وأنت واقفٌ أمام المذبح؛ لأنك بيعة الله الحي وهيكله المقدس. فأيُّ إنسانٍ يجب أن تكون في القول وفي الفعل وفي الفكر الجُوَّاني الذي في قلبك؟ فلا تدخلك أقوالٌ أو أفكارٌ برَّانية، بل ليكن قلبك الداخلي مملوءًا من حكمة الآباء وحُسن تصرُّفِهم. ذبائحُ حمدٍ تُقدِّم قبل وبعد تناول الطعام، وتأكل بفرحٍ، الرديءَ والجيدَ من الأطعمة؛ لأنها خيرات الله. وفي هيكل الله، ليس كله ذهبًا وفضةً، بل حجارةً وخشبًا. وهكذا، ليكن اختيارك بكل هدوء؛ لأن الهدوء يحفظ للجسد عفته ويلجم اللسان تمامًا إن كان يرافقه هدوء الفكر.

وأنت يا مَن صرتَ هيكلَ الله، ليكن مذبحُكَ مستعدًا، أي قلبك ومجمرتك، أي حرارة الروح القدس، وبخور الحمد، والأقوال الحسنة. وزيِّن ذاتك بأيقونة الحكمة، فهي التي يراها المؤمنون وغير المؤمنين. وأقم سور الصوم حول هيكل حياتك، واجعل على السور مَن يراقبه، أي حواسك الداخلية. وفي كل ساعة قل: "يا ربي يسوع المسيح"، وأضف إليها ما تشاء، لا سيما تراتيل ومزامير داود؛ لأنك متى فعلت ذلك، أدركتَ أولَ طريق حكمة الآباء الحسني العبادة.

واعلم أنك قبل المعمودية، كنتَ إناءً للشيطان وبعيدًا عن الله. أمَّا بعد أن جَحَدت الشيطان، وغطست في مياه المعمودية، وصُبِغت بالصبغة الروحانية،

ودُعيت إلى ميراث الملكوت السماوي باسم الثالوث القدوس، فإنك منذ لحظة نوالك نعمة التبني الروحاني وخروجك من الماء، تصير هيكل الله على ثلاثة وجوه:

**الوجه الأول**: هو أنك تحمل اسم المسيح؛ لأنك مُسحت في المعمودية وبالميرون المقدس.

**الوجه الثاني**: أنك تُدعى مسيحيًّا منذ اللحظة التي يقول فيها الكاهن: "أُعمِّدك يا فلان باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد"، وأنت، أو الإشبين يقول: "آمين". وهكذا يصير اسمك من بعد المعمودية مسيحيًّا، وهو الاسم الجديد، أي الممسوح بالروح القدس.

**الوجه الثالث**: أنك تصير هيكلًا للروح القدس، وهذا يجعلك تحيا بالروح القدس، وتنطق باسم الرب إلهك الآب والابن والروح القدس، ولا يفارق هذا قلبك حتى يوم الدينونة.

الفصل الثاني

# شرح رشم الصليب

وكلُّ هذه الأسرار الفائقة نابعةٌ من رأس الاعتقاد، أي الصليب. وكلُّ مَن يضع يده على جبهته، إنما يلمس أول موضع رُشِمَ به بدُهن الموعوظين، وهو بذاته الذي رُشِمَ عليه بدُهن السماويين، أي مسحة الميرون. والرأس هو الذي ينحدر من الآب، ولذلك يحمل ختم البنوة والذي منه كل الأبناء يولدون، يُذكَر أولًا، وهو سبب ختم التبني الذي يُوضع على الرأس أولًا، علامة الفداء كقول بولس (أف ١: ١٣).

وإذا نَقَلَ يده اليمنى إلى أسفل يقول: "والابن"، معترفًا بأنه نزل إلى مياه المعمودية، وصُلِب مع ربنا له المجد. ثم يضع يده على كتفه الشمال معترفًا بأنه جحد الشيطان وكل قواته المرذولة، وفكَّ العهد القديم معه بعدم السلوك في خطايا الأُمم. ثم ينقل يده إلى الكتف الأيمن عندما يقول: "والروح القدس"؛ لأنه واقف منذ لحظة خروجه من جرن المعمودية عن يمين الآب، بل هو جالسٌ مع الرب عن يمين الآب كقول المزمور: "الرب عن يميني ولذلك لا أتقلقل"، وكقول بولس: "أجلسنا معه في المواضع السماوية"، أي البيعة المقدسة.

وبعض المؤمنين في الصعيد يرشمون ذواتهم بعلامة الصليب بالإبهام، والبعض بالسبابة. وفي مصر بالإبهام والسبابة والوسطى. وفي الإسكندرية يرشمون بكل أصابع اليد. وليس لدينا تسليمٌ خاصٌّ بهذا الأمر، ولا يصعب على الذين يؤمنون أن يدركوا أن قوة رشم الصليب ليست بعدد أصابع اليد، ولا

تعمل بكثرتها أو بقلتها، وإنما بالنية الداخلية وبقوة الروح القدس التي تحرِّك النفس إلى النقاوة بسبب موت وقيامة ربنا التي وُهِبَت لنا في المعمودية.

## الصليب هو جوهر الإيمان

عندما تتفرس في بناء البيعة تتحقق أن رأس كل الأسرار والاعتقادات والطقوس، هو الصليب المقدس الذي الكل كائنٌ به. فهو رأس الديانة النصرانية وسراج الأرثوذكسية. هو علامة الملك المسيح رأس الجسد، أي الكنيسة. وهو الرُّبُطُ والمفاصل التي تجمع كل الأعضاء في الجسد الواحد، الكنيسة المقدسة. وهو شجرة الحياة التي أعطت عدة ثمرات، مَن يأكل منها يحيا إلى الأبد.

رتَّب الآباء الرسل علامة الصليب كرأسٍ لكل الأشياء من قبل ومن بعد دخولنا مياه التقديس في الأردن. لأن قبولنا هو بالصليب الذي نلبسه في المعمودية، ومسحة الروح القدس قائلين مع كل رشم: "مع المسيح صُلبت فلست حيًّا بعد، بل المسيح حيٌّ فيَّ" (غلا ٢: ٢٠). وكل مَن يرشم الصليب هو كل مَن دُفِنَ ومات وقام مع المسيح، فصار المسيحُ حيًا فيه.

وإذا كان رشم الصليب هو جوهر الأمانة ورأس الاعتقاد؛ لأن الذي صُلِبَ مع الرب قد لَبِسَ صليبه، وقوة قيامته كما يقول أمير السلِّيحين بولس: "لست أنا الحي، بل المسيحُ" حيٌّ فينا، وهو قد صار كذلك من قِبَلِ تجسُّده الطاهر وموته وقيامته. واعلم أنه قَبلَ الموت على الصليب لم يكن الرب فينا، أي ساكنًا في طبيعتنا. فقد سكن في تلك العجينة المعتمدة التي أخذها من والدة الإله مريم العذراء، وطهَّرها بالاتحاد الشريف، وجعلها خميرة الحياة الجديدة عندما أقامها إلى عدم الفساد بالقيامة، وأدخلها في حضرة الآب.

وأنت يا مَن تغطس في مياه الأردن، أي جرن المعمودية المقدسة، تنال هذا جميعه. تنال به الاتحاد بالآب وبالروح القدس، وتنال قوة قيامته، وهو

ما حقَّقه الرسول بقوله: "أعرفه وقوة قيامته وشركة آلامه". وقد ذكر معلمنا ذهبي الفم أننا ننال قوة القيامة قبل شركة الآلام لكي لا تقوى علينا قوة الألم، ونفقد رجاء الحياة الجديدة. فإن كنت قد لَبِسْتَ الصليب في التعميد، وصار الربُّ القائمُ من الأموات ساكنًا فيك بالحياة الجديدة التي وهبها لك بالتعميد، فهو أيضًا ينقل من مسحته المقدسة الأردنية ويعطيها لك.

الفصل الثالث

# شرح رشم الصليب في سر المعمودية

واعلم أن الإنسانَ قبل قبوله في شركة البيعة الجامعة الرسولية كان غريبًا عن الله، فأتى الكاهن العظيم ربنا يسوع المسيح وحَمَلَ صورته الساقطة وجعله يتَّحد بصورته الجديدة؛ لأنه يفرِّغ الصورة الآدمية الأولى من شكل العبودية القديم، أي إبليس، وينـزع عنها صك العبودية، أي ميلها للخطية وأشواقها لعصيان الله. ثم بعد ذلك يأخذها إلى مياه التقديس، أي جرن المعمودية، وهناك يغسلها من كل أوساخها. وبعد أن تصير بهيةً ونقيَّةً يأخذ من طبيعته الإنسانية التي قهرت الموت وقامت وشدخت الشيطان، ويعطي للإنسان في مياه التقديس.

ثم يأخذ من مياه التقديس ويعطي لها صك التبني عوضًا عن صك السقوط. وهو صكٌ ممهورٌ باسم الآب والابن والروح القدس. وهذا هو السبب في أن الكاهن يرفع المعتمد من الماء ويغطِّسه ثلاث مرات. لكي يعطي له كل أقنوم من أقانيم الثالوث ميراث التبني.

ومن بعد خروجه من مياه التقديس ونواله مجد الحميم الجديد، يأخذه المسيح ويسلِّمه إلى الروح القدس، كمَن يسلِّم وديعةً، فيرشمه الكاهن على أعضائه الجديدة بختم ووشم الروح القدس بسبب وساطة ربنا يسوع المسيح. ويكون بذلك الإناء الطاهر المقدس للثالوث القدوس.

ومن بعد خروجه من الماء ودهنه بالميرون يكون قد صُلِبَ مع المسيح

في المعمودية، وخُتِم بالروح القدس بالميرون. وها هو يعود إلى هذا الاتحاد السِّري بالمسيح المصلوب والقائم من بين الأموات في السِّر المجيد. وهكذا يتم الغرس الجديد، ويتم التجديد.

وهكذا نتدرَّجُ من خلع الإنسان العتيق في المعمودية، إلى نوال رتبة التبني، إلى الجلوس عند مائدة الرب والتناول. ونحن نقترب من كل هذا بقوة الصليب السِّرية التي بها نُقبَل وننضم إلى الكنيسة الجامعة. وبعد ذلك نؤهَّل لكي نلبس الصليب في المعمودية ويتدعَّم هذا بالميرون. أمَّا في السر المجيد، فإننا ننال المسيح نفسه الذي يفرِّغُ الحياةَ الآدميةَ الساقطةَ فينا.

وعندما نُرشم بالميرون السماوي، فإننا ننال المصالحة مع الروح القدس الذي كان فينا وفارقنا بسبب السقوط. ويتم هذا كله بواسطة الكاهن العظيم ربنا يسوع المسيح؛ لأنه هو الذي يقودنا إلى الآب والروح، ليس لأننا غرباء عن الآب، فهو الذي دعانا، وإنما لأن الابن حَمَلَ في ذاته صورتنا الإنسانية، فهو يأتي بنا إلى الآب من خلال ناسوته؛ لأنه هو واحدٌ مع الآب، ولم ينفصل عنه عندما تجسَّد. وبعد ذلك يغسلنا. ومتى تم تجديد الإنسان وصيرورته جديدًا بالمسيح يسوع، وغرس الطبيعة القاهرة للموت فيه، يُمسح بالميرون مسحة الروح الإلهي؛ لكي يؤهَّل للشركة مع الروح القدس وميراث القديسين.

واعلم أن المعمودية هي وساطة ربنا يسوع المسيح الذي بتجسُّده وصليبه وموته وقيامته عمل الخلاص الواحد، ولأنه حمل صورتنا الإنسانية وصعد بها إلى الأعالي، وهناك يظهر أمام وجه الآب لأجلنا، فهناك يقف الكاهن العظيم لدى الآب ويتشفع بناسوته لكي ننال نحن التبني بالصليب. ويختم الكاهنُ بنفسه علينا هذا الختم بوساطته وكهنوته. وحالما نخرج من الماء يكمل الكاهن العظيم عمله، إذ يسكب علينا الروح القدس، فيعود يسكن فينا. وبعد ذلك نلبس الملابس البيضاء ونشترك مع المؤمنين في القدَّاس لكي

يؤهِّلنا الروح القدس الذي تصالحنا معه لأنْ ننال المسيح. وكما أهَّلنا المسيحُ لنوال الروح في المعمودية والميرون، يؤهِّلنا الروح القدس لأنْ ننال المسيح، وفي كل ذلك يؤهِّلنا الابن والروح لأنْ ندعو الله بالآب، أي الآب السماوي، ونبدأ ذلك النداء بقوة السِّرِّ الذي يصير فينا مثل ذخيرة سماوية لا تضمحل تلازمنا بالصلاة الربانية.

## مسحة الموعوظين

واعلم أنك تنال خَتم القبول في الكنيسة الجامعة المقدسة، كنيسة الله برشم الصليب بدُهن الموعوظين؛ لأنك تتصالح مع الله بموت ابنه. وبدون الصليب لا تتم المصالحة. رشم مصالحة واحد على الجبهة يُنير النّفس ويؤهِّلُها لنوال الحميم. وبعد ذلك تُرشم بزيت الاستحلاف من بعد جحد الشيطان؛ لأن الصليبَ شريعةٌ سماوية. وتُرشم من جديد على جبهتك لكي تكون مرعبًا للشياطين الذين جحدتهم، ويكون فكرك غير ميالٍ للشر الأول. ثم تُرشم على يديك، أي عضو الإرادة الإنسانية التي مالت للسقوط. وبعض الكهنة يرشمون على الحنجرة؛ لأنها هي التي ذاقت من الطعام الممنوع، أي الشجرة القديمة. واعلم أن كل خطية مرتبطة بالحنجرة، أي الكلام وخطايا اللسان وتذوُّق الأطعمة، فالصليب يكون شريعة كلام الموعوظ. ويكون أيضًا شريعةً للإرادة الإنسانية.

ويدهن قلبه وظهره أيضًا قائلًا: "أدهنك بدهن الفرح المضاد لكل أعمال الشيطان، ولتُغرَس في شجرة الزيتون الحلوة المقدسة الكنيسة الجامعة الرسولية". ونفس هذا الزيت يسكبه في الوقت الملائم في مياه المعمودية بثلاثة رشوم؛ لأن الماء يأخذ نفس العطية التي يأخذها الموعوظ، وإلَّا كيف تصير طبيعته جديدة بالماء الحي الذي يعطيه الروح القدس عطية الحياة

الجديدة؟ ولنفس السبب أيضًا يسكب من زيت الميرون قبل التعميد لكي يتم القول الإلهي إنها معمودية بالماء والروح القدس. ولكنه يسكب الميرون بعلامة الصليب مؤكدًا أن الروح القدس، إنما سوف يعمل في المياه، وسوف تنال الطبيعة الإنسانية عطية التبني بالروح القدس، ومن قِبَل قوة الصليب المحيي، واتحاد الرب بصليبه وقيامته بفعل الروح القدس؛ لأن عمل الثالوث هو عملٌ واحدٌ.

يقول الكاهن وهو يسكب الميرون: "مباركٌ الله أبو ربنا يسوع المسيح. مباركٌ ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح. مباركٌ الروح القدس المعزِّي". ويرشم صليبًا في كل مرة وهو يسكب الميرون؛ لأن العطية هي عطية واحدة، والقوة هي قوة واحدة، والفعل أي رشم الصليب هو فعل واحد.

## مسحة الميرون

وقد قسَّم عُلماء البيعة جسد الإنسان إلى ستة أقسام:

**القسم الأول:** الرأس وأعضاء الحواس، أي الأنف والفم والأذنين والعينين. وهذه تُرشَم بثمانية صلبان. ويقول الكاهن: "مسحة نعمة الروح القدس"؛ لأن النعمة تحل على هذه الأعضاء بالذات وهي المحتاجة إلى التجديد، ومنها يتكون جسد القيامة.

**القسم الثاني:** القلب والبطن والظهر والصلب: أربعة صلبان. ويقول الكاهن: "مسحة عربون ملكوت السموات"؛ لأن هذه الأعضاء لا تقوم بشكلها الحالي، بل تتجدد، ولذلك هي تنال العربون.

**القسم الثالث:** الكتف الأيمن والذراع الأيمن والكف الأيمن: ستة صلبان.

وتكون لأنها خُلقت في اليوم السادس[1] وسقطت بالعمل في الساعة السادسة. وتُذكِّر البيعةُ الإنسانَ لكي لا تمتد يمينه إلى شيء رديء بعد التعميد، بل تطلب الحياة الباقية. ولذلك يقول الكاهن: "دُهن شركة الحياة الأبدية، آمين".

**القسم الرابع**: الكتف الأيسر والذراع الأيسر والكف الأيسر مثل اليمنى، وعلة الابتداء باليمين هو تذكُّر قوة الرب كقول النبي: "يمينك يا رب بالقوة"، ولا يميِّز اليمن عن الشمال شيءٌ، ولذلك يأخذ ستة صلبان. ويكون المجموع اثنا عشر صليبًا في الأعضاء العاملة بالحركة. وبسبب قوة التعزية والنعمة يقول الكاهن وهو يدهن الجانب الشمالي: "مسحة مقدسة للمسيح وخاتم لا ينحل"؛ لأن الإنسان يسعى بكُلِّيته إلى الله. وينال ختم الحياة الجديدة الذي لا تقوى عليه قوة.

**القسم الخامس والسادس**: وهو الرِّجل اليمنى عضو الإرادة والسعي إلى الكمال، والذي يقوم جديدًا في اليوم الأخير، ويحصِّنُها الميرون بستة صلبان مثل القسم السابق ذكره. ويقول الكاهن: "كمال نعمة الروح القدس ودرع الإيمان". ويقول هذا؛ لأن النعمة كمُلت بتجديد الإرادة وسعي الإنسان إلى الحياة ووقوفه على قدميه في البيعة للصلاة والشركة في الأسرار.

ويكمِّل الكاهن الرشم بالرجل اليُسرى كلها حتى القدم وتنال ستة رشومات. وكما ابتدأ باسم الآب والابن والروح القدس وهو يرشم الرأس وأعضاء الحواس، يكمِّل الرشم بذات اسم الثالوث قائلًا: "أدهنك يا فلان بدهن مقدس باسم الآب والابن والروح القدس". وهكذا تكمل الرشومات وجميعها ستة وثلاثون

(١) اليوم السادس هو يوم سقوط آدم، وهو لذلك يوم صلب الرب المحيي، كما سجَّل لنا التسليم الكنسي في صلاة الساعة السادسة: "يا من في اليوم السادس، وفي الساعة السادسة سُمِّرتَ على الصليب من أجل الخطية التي تجرَّأ عليها أبونا آدم في الفردوس". فاليوم السادس هو يوم خلق، ويوم سقوط، ويوم صلبوت، وهو ما دوِّن عندنا ويكاد يكون مجهولًا، ولهذا السبب يرتبط صوم يوم الجمعة لا بصليب الرب فقط، بل وأيضًا بالأكل من الشجرة.

رشمًا مثال الرشومات على الجسد المقدس والدم الكريم في القداس الإلهي؛ لأنه جسد حقيقي ودم حقيقي كريم لربنا يسوع المسيح.

الفصل الرابع

# لماذا نرشم الصليب عندما نقول: "يا رب ارحم"؟

ومن بعد المعمودية والميرون تُسلِّمُنا البيعةُ أن نرشم الصليب قبل الصلاة وفي آخرها، وعندما نطلب الرحمة ضارعين: "كيرياليصون"، أو عندما نشترك مع القوات السماوية قائلين: "إك أوواب (قدوس)"، وفي تمجيد الثالوث ذوكصابتري.

أمَّا الكهنة، فيزاد عليهم رشمهم للشعب عند قولهم: "السلام لجميعكم"، وفي تقديس الأسرار وعقد الأكاليل، ومسحة المرضى، وكل أُمور البيعة الأخرى.

وجوهر الأمانة هو كيرياليصون "يا رب ارحم". ولا تجوز طلبة سواها في القدَّاسات؛ لأن رحمة الله مخلصنا قد ظهرت ودعتنا إلى أن ننكر الفجور والإثم ونعيش بالتقوى والتعقل والعفاف (تيطس ٢: ١١ - ١٢). وكلما صلَّيت سواء في موضعك أو في البيعة، فارشم ذاتك أينما ذُكرت الرحمة الإلهية؛ لأن الله تراحم وتعطَّف عليك وغسلك من عار الخطية ودنس الموت في الحميم الثاني، أي المعمودية المقدسة الكائنة بالصليب وبالقيامة. والذي اغتسل، تصير له علامة اغتساله الروحي الدائم هي دعاء الآب والابن والروح القدس مشتاقًا إلى الرحمة التي نال عربونها في المعمودية. فقد فاضت آلام المسيح مخلصنا بالرحمة وطهَّرتنا. وهو الذي جعل الآباء الرسل يرتِّبون أن نصرخ ٤١ مرة يا رب ارحم؛ لأن فيها شفاء القلب من القساوة والحس من مرارة الخطية،

كما قال أشعياء: "الذي بجلداته شفيتم" (١بط ٢: ٢٤). فإن كان الربُ قد جُلِد لأجلنا ونبع منه نهر الشفاء والرحمة، فهو صخرة خلاصنا التي ضُرِبَتْ، ففاض منها ماءُ الحياة. من أجل ذلك صارت جلداته مناسبةً رَشمِ ذواتنا بعلامة الرحمة والخلاص؛ لأننا عندما نُجلد ونُمات كل النهار (رو ٨: ٣٦) كقول لابس الصليب بولس الرسول، نعلم أن شفاء الطبيعة الإنسانية من المرض القديم، أي الافتخار والكبرياء لا يكمُل إلَّا بأتعاب الجسد وصلبه. من أجل ذلك نرشم ذواتنا بالصليب متذكِّرين الدواء الشافي، والمرض العُضال لننجو من الهلاك.

والذين يرشمون ذواتهم بالحق هم الشهداء الظافرون السعيدة حياتهم، هؤلاء بالجلد وتقطيع الأعضاء قد صاروا كاملين أنقياء من محبة الجسد، بل حَسَبوا الموت والآلام نعمةً ورحمةً من الله. ولم يفُز هؤلاء بالصليب المجيد إلَّا بملازمة رشمه بالنية الداخلية واحتضانه شريعةً لحياتهم.

تحقَّق إذن من أنك ترشم ذاتك كلما ذُكِرَتْ الرحمة الإلهية، وعند القول الثالث[1] كيرياليصون ارشم ذاتك؛ لأن الرحمة أُعلنت من قِبَل الآب والابن والروح القدس.

فكيف ترشم ذاتك بعجلة أو تتهاون وتنسى الحميم، ويضيع عليك ثمار موتك وقيامتك مع المسيح في المعمودية المقدسة؟

(١) القول الثالث هو يا رب ارحم. يا رب ارحم. يا رب ارحم. وعليه يتم الرشم عندما تقول لثالث مرة يا رب ارحم.

الفصل الخامس

# شرح رشم الصليب عند قولنا: "قدوس"

أمَّا عند قولنا: "إك أوواب، أي قدوس"، فهو ترتيبٌ حكيم وقديم. فقد صالحنا الربُّ مع الكاروبيم المتقلد سيف نار لحراسة طريق شجرة الحياة حتى لا يأكل منها آدم، فيقيم في السقوط إلى الأبد. وهكذا بموت الرب عنّا تصالحنا مع السمائيين، وأصبح وقوفنا أمام المذبح. وعند قولنا: "قدوس"، نرشم ذواتنا؛ لأننا تقدَّسنا من الشرور السالفة، والمعصية الأولى عندما جاء ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح ووُلِدَ ومات وقام، ففتح لنا باب الفردوس الجديد، أي البيعة الجامعة، وأنار لنا طريق شجرة الحياة بنور قيامته. فقد غرس الصليب المجيد، فأفرخ من الموت حياةً، وصار علامةَ خلاصٍ لكل الذين يأكلون منها.

وكانت شجرةُ الحياة كائنةً قبل معصية آدم، وبمجيء ربنا يسوع المسيح كُشِفَت لنا الأسرار القديمة. فقد كان الربُّ الابنُ الوحيد هو شجرة الحياة التي تفرَّعت من حضن الآب وهو معه ولم يزل. وكان يثمر نور الحياة الذي شَهِد عنه يوحنا (يو ١: ١ - ٣). فكان نور الكلمة يغذِّي آدم عقليًا، فيحيا بذلك النور. ولكنه عندما سقط وتعربس (طاش) عقله، وشَخَصَ إلى الموت، دخله بالظلمة وساد عليه بالفساد، وطاش صوابه؛ لأنه طلب الأُلوهةَ من ذاته لا من نور الكلمة، وسعى إليها ليكون مثل الخالق دون أن ينتظر أن ينالها كعطية. ولكن

الرب المتحنن جاء وتجسَّد لكي يعلِّمه أن الحياةَ ليست في ذات المخلوقات، ولا ينالها كلُّ مَن طاش عقله وعَدِمَ الحكمة. ولما مات على الصليب وبذل ذاته، صار من جديد شجرة الحياة العقلية والحقيقية عِوض الشجرة الأولى في الفردوس القديم. ونحن لا نعود إلى ذلك الفردوس؛ لأنه كان كاينًا على الأرض التي أثمرت الشوك والحسك. أمَّا الربُ الصالح المتحنن بكل أحد، فقد أقام فردوسه العقلي وردَّ إليه مضاعفًا كل بركات الفردوس القديم، أي الكنيسة الجامعة. فإذا كان الرب هو نفسه شجرة الحياة التي كانت تُنير آدم إلَّا أنه منع نفسه من أن يأكل منها، أي ينال نورها، فسقط وفقد مجد البنوة وشرف البقاء في نور الحياة، فصار غريبًا وعبدًا للشيطان.

الفصل السادس

# رشم الصليب وموت المسيح وقيامته

ولمَّا أسره الشيطان، صار يطيع أهواء جسده، فطغت عليه أكثر. وجاء الربُّ وشفاه من أهواء الجسد بالتجسد وبالصوم وبطرد الشياطين.

أمَّا عندما مات على الصليب، فقد انفصلت نفسه عن جسده ونزلت إلى الجحيم حاملةً نور اللاهوت الذي سكن فيها واتحد بها منذ أن حبلت به العذراء. فلما رآه الذين في الأصفاد والظلمة الجوانية وعاينوا النور الذي فيه وعرفه آدم؛ لأنه نور شجرة الحياة القديم، صرخَ معلنًا إيمانه به. ولم يكن يدري أنه سوف يرى حبيبه في الجحيم. أمَّا الربُّ فقد أضاءت نفسه بنور اللاهوت الذي فيها؛ لأن النّفس لا تضيء بذاتها ولا فيها نور. أمَّا سيدنا وربنا، فقد كانت نفسه متحدةً بأُلوهيته قائمةً به. ولما رآه الشيطان أدرك أنه أمام الخالق وليس أمام أحد الأموات من بني آدم.

والذين عاينوا النور سجدوا له حسب بشارة آدم لبنيه المأسورين معه. وقد سجد هؤلاء لما عاينوا سجود آدم، ولما أدركوا بهاء الذي حلَّ معهم في الظلمة دون أن يكون مظلِمًا مثلهم. ثم أن الرب الصالح لما بشَّر آدم ونسله بانقضاء الظلام، كشف على الفور علامات الصليب التي حملها في نفسه؛ لأنه أراهم نفسه حيًّا فائزًا بالموت دايسًا عليه، وصارت هذه علامة الصليب التي طُبِعَت في نفسه. ولما عادت نفْسُهُ واتَّحدت بجسده في القيامة، انطبقت علامات الصليب التي في نفسه على تلك التي في جسده، أي جراحات المسامير،

وأضاء الجسد بذات نور النّفس، أي بنور اللاهوت، فصار مرعبًا للشياطين؛ لأنهم شاهدوه إنسانًا مثلنا بلا فساد وبلا موت، فخافوا منه وارتعبوا.

الفصل السابع

# الصليب شجرة الحياة

ولما أضاءت علامات الصليب في النفس والجسد بنور اللاهوت وصارت تلمع ببرق اللاهوت الذي يطبعه الربُّ في الذين يتَّحدون به، أصابت الشياطين الحسرةُ والخذلان. أمَّا الربُّ، فقد نقل عدم الفساد الذي بالاتحاد، والحياة الدايمة التي بالقيامة والمحبة التي من الآب للبشرية، فقد قدَّس الحميم لكل مَن يؤمن، وأنار المسحة التي تؤخذ منه بنور الروح القدس الذي حلَّ عليه في معمودية يوحنا. فصار الروح القدس يشتاق للسكنى في كل الذين يقبلون ختم المعمودية، وينتقل من رب الحياة يسوع المسيح إلى المائتين، ويغرس فيهم برق اللاهوت المخيف من بعد أن يغسلهم من الدنس كله.

وتحقَّق من أن رحمة ربنا جعلتنا قديسين؛ لأن اللوم القديم قد رُفِعَ، والخطية لم تعد تعربس عقل الإنسان وتعدمه التمييز. وشجرة الحياة تتألق دايمًا بعلامات الصليب والقيامة وتمتد فروعها في كل الذين يأتون إلى الرب في سر الحميم وسر القربان. أمَّا الذين يأكلون من ثمرة شجرة الحياة يسبِّحون الربَ قائلين: "إك أوواب" مع الشاروبيم، وعلى الفور يرشمون علامة الحياة والمصالحة وعلامة دخولهم الفردوس العقلي ومشاركتهم الشاروبيم في تقديس الثالوث الفائق.

الفصل الثامن

# الصليب وتمجيد الثالوث

وهكذا نتقدم بدون خوف عند قولنا: "ذوكصابتري"، ونرشم علامة الصليب؛ لأن الثالوث غَلَبَ، فالآبُ تصالح معنا، والابنُ وهبنا خدمة المصالحة، والروحُ القدس ختمها فينا بقوته المحيية. فارفع عقلك لكي تُعاين هذه الأسرار الفايقة، وتُدرك أنك حيٌّ برشم الصليب المجيد الذي به ندخل بثقة إلى المواضع السماوية صارخين بالروح القدس: "أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤).

وكلُّ قولٍ أو صلاةٍ تبدأ بالصليب؛ لأننا لا نخاطِب الآب إذا لم يجذبنا الصليب إليه. أمَّا سبب تمجيد الثالوث بالصليب؛ فلأننا في الفردوس العقلي الذي فيه نرى الآب والابن والروح القدس.

وننادي بعضنا بعضًا في التسبيح والقدَّاسات ونرشم علامة الصليب لكي نرتفع إلى أسرار الملكوت ونعبُر بسعةٍ إلى ملكوت ربنا يسوع المسيح. وهذه السعة هي الصليب، فهو الطريق الخاص الجديد الذي كرَّسه ربنا يسوع المسيح بموته وقيامته.

## لماذا يرشم الكاهن الشعب عندما يقول: "السلام لجميعكم"؟

واعلم وتحقَّق من أن الكاهن يرشم الشعب قائلًا: "السلام لجميعكم"، وهو لا يقدِّم السلام من عنده، وإنما برشم الصليب يرفع عقولهم إلى الذي يعطي السلام، أي الملك المبارك القدوس الذي قال: "السلام لجميعكم" بعد قيامته المحيية. وهو حاضرٌ في وليمته الكهنوتية والملوكية. ويصافح ضيوفه

والمدعوين إلى عشائه عندما يمد لهم صولجان ملكه، أي الصليب المكرَّم الذي يحمله الكاهن؛ لأنه خادم الملك العظيم، ويسير أمام الملك ليُعدَّ الطريقَ أمامه ويرتِّبُ له المائدة.

والمتكلِّم هو الكاهن، لكن الواهب هو ربنا يسوع الذي وصفه الكاهن المُدرِك للأسرار العظيمة بولص بأنه "السلام"، فهو الذي يقدِّم لنا الصليب بيد كاهنِهِ. وهم يقولون بصوت أرضي: "إيريني باسي"، لكن الذي يوزِّع السلام هو الملك السمائي الذي بصوته الإلهي يقول: "تعالوا إليَّ يا جميع التعابى والحاملين الأثقال، وأنا أحملها عنكم فتنالون التعزية".

الفصل التاسع

# رشم الصليب ومسحة المرضى

أمَّا الذين يسقطون في الأمراض بسبب سوء حياتهم وعجزهم وخوفهم من الموت، فهؤلاء أحيانًا يؤدَّبون بالمرض لشفاء النّفس من الشهوة، ومتى كشفوا هؤلاء لشيوخ الكهنة أمراضهم الحقيقية، يأتون بهم إلى البيعة ويشترك الشعب كله في الصلاة لكي يقيم الرب هؤلاء الساقطين بالطلبة والصوم وتضرع الكهنة. وبعد ذلك يرشمونهم بزيت مسحة المرضى الإلهي على جباههم، ويرشمون ذات موضع ختم الميرون؛ لأن قوة الروح التي ختمتهم هي التي تُعيدهم إلى الحياة وتردُّ لهم بهاء العطية الأولى، أي ختم الميرون الذي لا يزول مطلقًا، فهو خَتمٌ ملكوتيٌّ قائمٌ بقوة ربنا يسوع الملك. ولكن بهاء ذلك الختم الذي يحرق الشياطين كَمُنَ بسبب السقطات، أمَّا بالمسحة، فهو يشعُّ من جديد.

ويرشم أيضًا موضع الحنجرة؛ لأن فيها اللسان والنطق، وهي التي منها تصدر أفعال الشر وتُولد فيها الأفكار الخفية التي تصبح جهرانية بالنميمة والسعاية. والحنجرة رَحِم العداوة والوقيعة، وليس عبثًا أن قال القديس يعقوب: "الرجل الكامل هو مَن يُلجِم لسانه بالكمال"، فلا يتكلم إلَّا كلام المحبة الذي يرطِّبُ قلوبَ الناس، ويقضي على الشكاية، ويزيل مرارة السعاية، ويجعل كلمات العتاب بلسمًا.

أمَّا رشم اليدين اليسرى، وبعدها اليُمنى، فهو على ذات موضع الرشم بالميرون. وأعلم أيها الحبيب أن الأسفار الإلهية أنفاس الله كثيرًا ما تدعو

اليد بالإرادة، ومرات تصفها بالقوة. ورشم اليد اليسرى هو طلب شفاء الإرادة الخفية، أمَّا رشم اليد اليُمنى، فهو طلب شفاء قوة الإنسان لكي يعود صحيحًا معافىً وبلا أمراض.

ولا يتم رشم الجسد كله كما يفعل بعض الخارجين، وإنما قد استلمنا من الآباء أن المريض يُدهن على المواضع الجسدانية التي تشير إلى الإنسان الخفي غير الظاهر، وهو الرأس والحنجرة واليدين فقط؛ لأن الروح القدس يسكن فينا بلا افتراق عنَّا حتى يوم الدينونة. وهو الذي أقام مواهب الشفاء للنّفس والجسد حتى تكون إقامته فينا في هيكلٍ مستعدٍ دايم التقديس والشفاء.

الفصل العاشر

# رشم الصليب في سر الزيجة

وعلى كل أحوال الاعتقاد والطقوس، يلزم رشم الصليب؛ لأنه ختم الملك الذي يجعل الرَّجلُ يقدِّم عربون محبته على باب البيعة قبل عقد الأكاليل، مثلما قدَّم الرب صليبه، أي حياته للكنيسة قبل أن يتَّحد بها بالروح القدس. وإن كان ربنا قد قَبِلَ عجينة الإنسانية من العذراء القديسة مريم، وأخذها وأعدَّها لتكون إقامته اللاهوتية فينا، إلَّا أنه رتَّب أن يكون فينا بالروح القدس الذي حلَّ في أحشاء البتول والدة الإله، وجعله جسده المقدس. واعتمد من يوحنا المعمدان لكي يحلَّ عليه الروح القدس لأجلنا، فيأخذه عِوضَ آدم الأول الذي بعد أن أخذ النفخة الإلهية بدَّد العطيةَ بالمشورة النجسة، ورفض ما أعطاه له الابن الوحيد، أي الروح القدس، فمات وتسلَّط عليه الفساد والموت. لذلك قَبِلَ الربُّ الروحَ القدس في المعمودية لكي يكمِّل زواجه بالكنيسة؛ لأنه يعطي لها الروح القدس الذي سبق وأخذه في الأردن بعد أن تقبَّل عربون الزيجة الأبدية، أي الصليب. لأن الذي مات معه يقوم معه، وهو ما يجعل الرب يخلع على الكنيسة ثوب الروح القدس الذي يهبه أُقنوم الابن الكلمة الذي هو مع الروح القدس في جوهر واحد ومساواة مع الآب منذ الابتداء. ولكنه يعطيه الآن لنا من قِبَل اتحاده بالناسوت الذي اتَّحد به لأجلنا. واعلم أن اتحاده بالناسوت جعل سُكنى اللاهوت فينا عطيةً سماويةً إلهية؛ لأن الذي يسكن فيه الروحُ، يصير بسبب هذه العطية، ابنًا لله الآب، ويرتفع من وطي العبيد إلى رتبة الأحرار أي البنين. هو مِن جوهر الآب وكاينٌ معه منذ الأزل،

أمَّا نحن، فبالإرادة والعطية نصير على مثاله صورةً له.

ولذلك حتَّم الآباء أن لا يتم عقد إكليل إلَّا بين مؤمنين بالرب وبموته وتجسُّده. وحتَّم الآباء أن يعطي الرجل امرأته صليبًا تلبسه على باب البيعة لأجل إعلان العقد الإلهي الذي صار بين الرب والكنيسة. وهو الذي سوف يكمُل بالروح القدس، وبرشم الصليب المبارك الذي يكشف عن الطبيعة الجديدة التي تتَّحد بالصليب بطبيعة مماثلة لها، أي طبيعة الرجل والمرأة. فالذي اعتمد في مياه جرن الأردن، وصار جديدًا بكامله لا يتصل إلَّا بنظيره، أي الذي اغتسل في مياه الحميم الجديد واستنار بالكلمة الإلهية كقول بولس الرسول الذي شرح خدمة الزواج الإلهي بدعوة الرب للكنيسة للاقتران به بموته عنها، ولمَّا جاء إلى إكليل الكنيسة قدَّسها وغسَّلها بحميم المياه (أفسس ٥: ٢٥). وبعدما غسَّلها، خلع عليها الروح القدس، فصارت "ممجَّدةً لا دنس فيها، ولا شيخوخة الخطية الفاسدة ولا شبه فساد" (أفسس ٥: ٢٧). لقد غسَّلها بحميم المياه الذي اجتازه هو أمام يوحنا. وأخذ من حميمه وأفاض نهر المياه الحي (حزقيال ٤٧: ١٥)، أي الروح القدس على الإنسانية، فعاشت من بعد الموت.

وهكذا، على الرجل أن يكون حاله من المرأة وسكناه معها مثل سُكنى المسيح والبيعة، أي وحدةٌ بلا انقسامٍ ولا مشاقة. وهذا يتحقق لمن يجعل الصليب شجرة الحياة أمامه ويأكل منها على الدوام، فيقوى جسده وروحه، أي هو وعروسته، وبالحياة الجديدة الآتية من الرب.

وعندما يقول الكاهن: "الرب يجعلكما واحدًا بقوة صليبه المحيي وبعطية الروح القدس"، فالذي يُلازِم ذلك تدوم له نعمة الزيجة ويلبس إكليلَ بهاءٍ دايم أبدي، ولا يخلعه حتى بالنياح؛ لأنه يصبح عذراء المسيح بالتحرُّر من الجسد ويدخل الفردوس بلا خسارة، بل بمجد. ومَن تحوَّل جسده ونفسه إلى خدمة الكنيسة التي اقتناها، أي زوجته المختارة من الله ينال فرح الفردوس الكاين بالاتحاد.

أمَّا المرأة التي تلازم سر الكنيسة، فإنها تكون عذراء بدورها مثل أم النور المكرمة التي أخذت الابن الكلمة في أحشاها، وولدت القديسين والشهداء لا ولادة الجسد، بل ولادة الروح للحياة.

لذلك قيل إذا كانت نفوسنا[1] مرتبطةً بناموس الله، أي الصليب، فلن تقوى علينا قوات الظلمة. وإذا ابتعدنا عن الصليب، ابتعدنا عن الله، فتتسلط علينا قوات الظلمة. وأنت أيها الإنسان الذي تريد أن تخلص علِّم ذاتك كيف تَسبْحَ بالصليب في لجة غنى الله وحكمته الفايقة، ودايمًا ابسط يديك على مثال الصليب لتعبر البحر العظيم الذي هو الدهر الحاضر، فتخرج إلى شاطئ الحكمة، أي الله. أمَّا الشكوك المانعة من السباحة، فهي صادرة من الذين يُفسدون حياتهم بعدم الإيمان والزنا والنميمة ومحبة الفضة، وهي ليست من الكنيسة؛ لأن الذين فيها قد تقدَّسوا بالصليب ولبسوه، فصار شريعةَ حياتهم وامتلئوا من حكمته ومن قوته فصاروا أنقياء.

فإذا كان عقد الأملاك والأكاليل تتم برشم الصليب، فلأجل نقاوتها ولأجل جوهرها اللطيف والمقدس في كل شيء ولأجل الحياة الجديدة التي تأخذ قوتها من الاتحاد المقدس الذي أكمله الرب بصليبه وموته عن الكنيسة وهو سعي الرجل والمرأة.

وعندما يقول الكاهن: "نعقد عقد أملاك الابن البكر فلان باسم الآب والابن والروح القدس"، وهي صيغة التعميد وكلمات الأمانة المقدسة، فالذي يؤمن بالثالوث هو بكرٌ من الأموات؛ لأنه حَمَلَ ختم المعمودية الذي يؤهِّل إلى طهارة الزيجة الروحانية. ومَن مات مع المسيح يُحسَبُ أهلًا لإكليل الزيجة؛ لأنه بموته عن ذاته، يحب امرأته مثال الكنيسة. ولذلك رتَّب الآباء

(١) جزءٌ من عظة القديس أثناسيوس التي تقرأ في الساعة الحادية عشر من يوم الجمعة، وإضافات ربما كانت مأخوذة من الأصل المطول الذي اختُصِرَ في كتاب البصخة.

أن يُقال عقد الأملاك: باسم الآب ضابط الكل نعقد عقد أملاك الابن البِكر المبارك؛ لأن الآب أرسل ابنه الوحيد. وبعد ذلك يقول: نعقد عقد أملاك الابنة المباركة البِكر باسم الابن الوحيد؛ لأن الكنيسة قبلت المسيح ربًّا ومخلصًا، ويعود ويكرر الكلام السابق مؤكِّدًا عقد أملاك الرجل على المرأة باسم الروح القدس البارقليط؛ لأن الربَّ وهبَ الكنيسةَ الروح المعزِّي. وهكذا بدعوة الله الآب ومجيء الابن الوحيد وعطية الروح القدس يتم اختيار الرجل والمرأة للخدر المقدس للزيجة الروحانية.

أمَّا رشم الصليب الأول عند قول الكاهن: "باسم الآب والابن والروح القدس"، فهو رشم الإيمان النابع من الحميم المقدس؛ لأن الذين نالوا صبغة الحميم الجديد، إنما هم الذين يعقدون عقد أملاكهم في البيعة المقدسة القاثوليقية (الجامعة).

والرشم الثاني بالصليب: "باسم الابن الوحيد"؛ لأن ربنا يسوع المسيح وهَبَ حياته للكنيسة، وهو ما يجعل الرجل يُذكر أولًا؛ لأن حسن الاختيار يظهر في خَلقِ الرجل أولًا، ثم في دعوة المسيح ربنا الكنيسة إلى عرسه.

أمَّا في رشم الصليب عند قوله: "باسم الروح القدس المعزِّي البارقليط"، فهو لأن الروح إنما وُهِبَ للكنيسة من قِبَل الذبيح الأعظم ربنا يسوع المسيح.

وبعض الآباء استحسن أن يقول: "مبارك الآب ضابط الكل" عوضًا عن "باسم الآب ضابط الكل"، وهي على ذِكر رشم الحَمَل في القداس، وهذا يوافق الأمانة الأرثوذكسية ولا خلاف؛ لأننا سواء قلنا "باسم الآب"، أو "مبارك الآب"، فجوهر الاعتقاد واحد.

أمَّا الصليب الأول، فهو ثبات قوة المعمودية المقدسة للرجل والمرأة. والصليب الثاني، فهو شريعة الزيجة التي يلتزم بها الرجل أمام زوجته. وأما

الصليب الثالث، فهو قبول الزوجة أن تلتزم بعطية الصليب بقوة الروح القدس.

فلا تكن صاحب قلبين؛ لأن هذا لا يوافق أمر الصليب في الصبغة.

وإذا تم عقد الأملاك باسم الثالوث المحيي، فكيف وأنت نلت به الحياة الدائمة لا تتكلم مع امرأتك بالحق كوريثة وشريكة في ذات النعمة الواحدة؟

لا تغش بلسانك ولا بقلبك لئلا تقف عريانًا في اليوم الأخير. وتكون كمَن جحد نعمة الأملاك (عقد الزواج). وإن لم تصنع الصلاح مُسبِّحًا الربَّ خالقك وفاديك، يشهد عليك صليبك الذي به عقد أملاكك بأنك لم تكن مستقيمًا مع امرأة عهدك.

## الأكاليل تُعقد أيام الآحاد

ومتى تم عقد الأملاك، فإن صلاة الإكليل التي تتبعها بعد أيام، وعلى جري العادة، تُعقد في أيام الآحاد فقط. وهذه عادةٌ مرعيةٌ وقديمة وصلتنا من الآباء؛ لأنه يوم اجتماع شعب المسيح بفرح القيامة وبالحياة الجديدة، ويُقام القداس وتُطلب البركة وهدوء العمر ونقاوة الحياة لكل أحد لا سيما للعروسين.

## الرشم بزيت الزيتون، ومعنى مسحة الإكليل

ويعقد الكاهن الإكليل ويرشم بالزيت الساذج (زيت الزيتون) الذي يُقدَّس أثناء صلوات الإكليل. مسحة ملوكية نالها الملوك والبطاركة، وهي تجديد النفس والجسد، وردّ الإنسان إلى رتبة آدم قبل الانحدار، وبها يتم قول المزمور: "أقمته على أعمال يديك وكلُّ شيءٍ أخضعته تحت قدميك"، فهو يعود بالنعمة إلى سابق سيرته وتصير له هذه علامة حياة وقضاء على الفساد.

ويرشم الكاهن الجبهة أولًا لكي تعود إليه قوة الحياة ويجدِّده الروح القدس بالمسحة وبالصليب مؤكِّدًا أن الروح الذي سبق وختمه في الميرون هو الذي يعطيه الاتحاد الملوكي مع عروسته لكي ينال -بفرحٍ- هبة وعطية وبركة الزيجة، فلا يعرق للباطل، بل يعرق بصبر على احتمال المكاره والمصاعب، ولا يصير تحصيل القوت سبيلًا لزعزعة اتحادهما، بل تعطيه قوةً وثباتًا بالإرادة الخفية التي يهبها الروح القدس. وعندما يرشم اليد اليسرى، فهو يشير إلى ثبات النية الداخلية. أمَّا إذا رشم أيديهما اليمنى، فهو يعطي لهما القوة الروحية التي تُوهَب في الاتحاد.

## رشم الصليب والروح القدس

برشم الصليب يعمل الروح القدس، ليس لأن صليب ربنا يسوع المسيح بلا فعل بدون الروح، أو أن الروح القدس بلا قوة بدون الصليب، وإنما حيث يجد الروح علامة شريكه في المجد والربوبية والجوهر، أي الابن الوحيد، فهناك يستريح ويسكن ويفعل مهما كانت نقائص الطبيعة البشرية. ولأن الابن الوحيد صار الوسيط بين الله والبشر كقول بولص الرسول: "لأن إلهًا واحدًا والوسيط واحدًا بين الله والناس يسوع المسيح الذي هو من الناس وصار كفَّارةً عن الجميع"، وهكذا يصير من قِبَل ختم الوسيط ربنا يسوع المسيح، الاستحقاق لفعل الروح القدس؛ لأن الصليب المحيي هو علامة الحياة الحقيقية التي وُجِدَت في ربنا يسوع، والتي بها تمَّ تجديد خلقتنا وإعادتنا إلى الحياة الدايمة بالحميم الثاني الذي نزع عنَّا عثار آدم ودنس الموت.

وصار الروح القدس يسكن فينا منذ يوم الحميم إلى يوم الدينونة حسب تعليم الآباء. ولذلك السبب، يصير كلُّ شيءٍ بالصليب مُعلِنًا سر ولادتنا الجديدة، ويصير ختمًا للحياة الآتية من فوق والذي به ندرك أنها عطيةُ الآب وسرٌّ فايق لا يعرفه إلَّا مَن تمهَّر وبلغ المحبة التي من الثالوث.

واعلم أن الآب يرى علامة وحيده فينا، فيرسل من أحضانه البارقليط الروح القدس لكي ينقلنا إلى صورة ابنه الوحيد المستقر أيضًا في الآب، ويشع ببهاء مجده وبالحياة الآدمية الجديدة التي صارت منه بتجسُّده وباتحاده بالبشرية وبقيامته من الأموات.

## رشم الأكاليل بعلامة الصليب

وبعد رشم الرجل والمرأة بزيت المسحة الملوكية، يرشم الكاهنُ الأكاليلَ سبع مرات سائلًا من الله عطايا الحياة الجديدة السبعة بقوة الصليب المبارك وعمل الروح القدس. هذه العطايا السبع هي: المجد والكرامة – البركة والخلاص – الفرح والمسرة – التهليل والبهجة – الفضيلة والعدل – الحكمة والفهم – العزاء والثبات. وهي تقال زوجين[1] لأنهما زوجان فتصير النعمة مضاعفة.

والروح القدس يعطي كل هذا ويثبِّت المختارين للزيجة في وحدانية الروح والجسد. ومن بعد هذا يصير كل مَن يحتقر الزيجة، إنما من الخارجين ونصيبه مع الهراطقة؛ لأن الذين يلبسون الأكاليل بقوة الصليب المحيي وبعلامته وفعل الروح القدس، إنما ينالون الاتحاد الدايم بمجد وكرامة ويؤهَّلون للخلاص ويسطعون ببهاء النعمة التي سوف تشعُّ في اليوم المخوف عندما نقوم ببهاء وكرامة السماويين.

## البركة الأخيرة

ولذلك يختم برشمٍ واحدٍ بالصليب سائلًا الثالوث القدوس قائلًا: "الآب يكللهما بالمجد والكرامة، والابن الوحيد يباركهما، والروح القدس يقدِّسهما".

(١) نفهم من كلام المؤلف أن العطية تقال اثنين اثنين أي المجد والكرامة – البركة والخلاص، وهذا يجعل العطية مضاعفة.

وبعض كهنة الصعيد يرشمون العريس وعروسته ثلاث مرات، وهذا أفضل؛ لأن ذكر الثالوث وفعله، إنما يعلنه رشم الصليب ثلاثَ دفوعٍ، وهو الختم الواحد الذي يرشمه الآب والابن والروح القدس، فالآب يضع الإكليل، والابن يملأه من البركة، والروح القدس من التقديس، والعمل واحد بختمٍ واحدٍ.

وبعد التسبحة يقول الكاهن التحاليل الثلاثة، ويبارك العريس بصولجان ربنا يسوع المسيح الملك، أي الصليب، ويعضده ببركة الخليقة الحسنة ويرشمه رشمًا خاصًّا قائلًا: "الذي بارك آدم ونوح وإبراهيم وموسى ...". ويعضد العروس برشم خاص سائلًا لها بركة حواء وسارة ورفقة ووالدة الإله أُمنا جميعًا التي ولدت لنا عمانوئيل ولادة عجيبة فائقة، فهو يطلب لها أن تثمر كما أثمرت شجرة الصليب وأنبعت حياةً صالحةً ونسلًا للبركة.

## التناول بعد صلاة الإكليل

وبعد أن يناولهما من الأسرار الإلهية يضع يديه عليهما ويمسك العروس بيده اليمنى والعريس واقف أمامه، ويقول لهما: "على هذا الرسم وهذه الرتبة اتخذ الآباء المؤمنون زوجةً واحدةً بطهارة قلب"، ويرد الشعب قائلين **Ⲡ̀ⲟⲩⲣⲟ** يا ملك السلام.

الفصل الحادي عشر

# رشم الصليب، وهو بهاء الابن الوحيد في القُدَّاس الإلهي

## المعمودية والميرون سر دخولنا إلى القداس

لما كنَّا نلبس الصليب، أي قوته وبهاءه في المعمودية المقدسة والمسحة السماوية، ونصير كاينين في الفردوس السماوي الذي هو بيعة الله، فإننا نقيم على هذا الحال في البيعة السماوية نتقرَّب من الأسرار الفايقة بقوة صليب ربنا يسوع الذي هو قيامته أيضًا.

واعلم أن المصلوب لم يكن إنسانًا مثلنا -كما قال نسطور- حلَّ فيه اللاهوت، وإنما هو الابن واهب الحياة للكل، الذي لما مات جسد بشريته، أحياه بالاتحاد السري الأقنومي الذي جعله يُبيد الموت ويسلب الهاوية ويُحيي كل مَن آمن به.

## الصليب والقيامة قوة حياة

واعلم وتحقَّق أن مَن يتمهر في الأسفار الإلهية، يجد أن كل كلام أو قول عن الصليب، إنما يتضمن الحياة وليس الموت. وقول الإنجيلي الطاهر يوحنا: "هكذا أحب الله البشرية حتى أسلم ابنه الوحيد لكي لا يَهلِكَ كل مَن يؤمن به، بل تكون له الحياة الدايمة"، فهو لا يعني أن الابن الوحيد قد مات فقط، وإنما كُلما ذُكِرَ الموت ذُكِرَت القيامة، وكلما ذُكِرَت القيامة، ذُكِرَت علامتها، أي

الصليب المحيي. ولو كان الابن الوحيد قد مات فقط، فكيف تصير لنا الحياة الدايمة به، وكيف ننجو من الهلاك.

فتمهَّر في أقوال الرسل الأطهار ومعلمي البيعة؛ لأن سيدنا وربنا الذي لمس نعش ابن الأرملة، وببصقةِ فمِه وبطرفِ عباءته قد فعل كل هذه المعجزات المحيية، إذ أقام ابن الأرملة، وفتَّح عيني المولود الأعمى، وشفى نازفة الدم، لا يكون مثل المايتين يرقد في القبر وينحدر إلى الهاوية ويظل هناك أسيرًا على رجاء الحياة.

## "مات" تعني أيضًا "قام"

ومِن ذلك كله، وكما سبق وشرحنا في الرأس الثالث أن ربنا إذا قيل إنه مات وصُلب، فالقول الذي يسبقه أو يليه هو قولٌ ثابتٌ مُعتَمَد يؤكد لنا أنه فعلًا قام بالقرينة الظاهرة في قول بولص أمير كهنة الأسرار: "مع المسيح صُلِبتُ"، فالحال أنه لم ينتهِ إلى موته أو إلى موت المسيح فقط، وإنما "لست أنا الحي، بل المسيح"، وهو يعني أن الذي صُلب مع المسيح قام وحيٌّ في حياةٍ جديدةٍ ليست آتية من آدم السابق، بل من آدم الآتي، أي الرب من السماء يسوع المسيح مخلصنا. فإن كنَّا صُلبنا معه ونصير أيضًا ببهاء مجد قيامته كقول بولص، فإننا ندرك هذه الحياة في المعمودية، وهي أساس كافة الاعتقاد والطقوس في الكنيسة الجامعة، فهي سر اتحاد المسيحي بربنا يسوع المسيح المصلوب على الصليب والمدفون في القبر والقائم من بين الأموات.

## نُمسح لأننا هيكل الله

ولذلك، فإننا بعد أن ننال الحياة الجديدة منه وفيه، نمُسح بمسحة الميرون تكريسًا وتقديسًا، ليس مثل ذلك الذي كان في العتيقة، بل مثل ذلك

الجديد، أي هيكل الله الحي الذي هو ناسوت ربنا يسوع، أساس وحجر الزاوية في الكنيسة الجامعة. ومن أجل أنه الرأس، فقد مُسِحَ هو أولًا بِكرًا مُتقَدِّمًا في كل شيء في المسحة والصليب والقيامة، ومن أجل ذلك أيضًا نمُسح نحن مسحة عدم الفساد، ليس مثل خيمة موسى في العتيقة، فتلك من أخشاب وجلود وقماش، وحَمَلَها الشعبُ معه في البرية، أمَّا نحن، فبيتُ الله الحي وحجارته الحية كقول بطرس، ومن الطبيعة الجديدة التي سبق فأعدَّها الله الآب في ابنه يسوع المسيح الذي قام من الأموات وقهر فساد آدم وجنسه.

## المسحة للروح والجسد

وكما أننا اتحدنا به في صليبه وموته وقيامته، صار لنا عربون التقديس بعلامة الصليب المحيي بالروح القدس على ٣٦ موضعًا في أجسادنا وأرواحنا.

والرشم الذي يصير على الجسد، إنما تحمله الروح في الداخل ختمًا لا يذهب ولا يمكن أن ينحل، بل يحفظنا إلى حياةٍ دايمة نَبَعَت من ربنا له المجد، وبهذا الختم وحده يعمل الروح القدس لكي يُظهِر ويُنمي ملامح الحياة الجديدة، أي صورة الختن[1] السماوي ربنا يسوع المسيح.

## المسيح مُسح قبل موته لأنه وحده المستحق

فالروح القدس حلَّ عليه في الأردن، ومسحه للموت والقيامة، وظفر بهذه العطية الفايقة السماوية، وصارت كاينة فيه لأجلنا نحن الذين فقدنا الروح بسبب معصية آدم الأول وصار غريبًا عنّا ونحن غرباء عنه، ولكن بموته المحيي أعاده إلينا وسَكَبَه بالصليب، أي الحياة الجديدة المستحِقة والمستعِدة لهذه

(١) في نسخة أخرى "صورة الختم السماوي لربنا يسوع المسيح" ومع ذلك يظل المعنى كما هو لا يتغير لأن المؤلف يؤكد أن الصليب هو بهاء الابن الوحيد وعلامته.

النعمة التي هي من الله. ولم يوجد أحد يفك ختوم السفر في الجُليان[1] سوى الغالب وحده، وأيضًا لم يوجد أحد مستحقٌ لأن ينال الروح القدس في جسم بشريته سوى آدم الجديد المولود بالروح القدس ومن مريم العذراء.

## المسيح هو هيكل الله الحي الذي فيه حلَّ ملء اللاهوت

فتحقَّق أنه بميلاده من والدة الإله القديسة مريم نَصَبَ خيمة العهد الجديد، أي جسده المحيي، فصارت منه وحده تنبع العطايا الإلهية، وصار هو هيكل الله الحي الذي لم يظهر فيه اللاهوت، بل اتَّحد به كل الملء حسب قول معلمنا بولص. ولما مُسحنا وصرنا هيكل الله، صار اللاهوتُ فينا، ليس كمثل المخلص؛ لأنه وحده الأقنوم الكاين مع الآب منذ الأزل، ولكننا صرنا على مثال بشريته كما كنا على مثال أول البشر آدم الأول الذي فَقَدَ ميراثه السماوي. وأمَّا أن اللاهوت فينا، فهو ما تعلِّم به الكنيسة الجامعة، ويرفضه الهراطقة الجاحدون للنعمة الإلهية.

## لماذا نبدأ كل قول وفعل باسم الثالوث؟

ومن أجل كل هذا، إذا بدأ نصراني حديثه أو شرع في عمل أي شيء، فهو يبدأ بصيغة التعميد[2] أي "باسم الآب والابن والروح القدس"؛ لأنه نال صبغة الحياة الجديدة في سر الحميم الجديد والمسحة المقدسة، وصار له عهدٌ والتصاقٌ بالمسيح وبالروح القدس، ولأنه حيٌّ بالابن والروح ينادي الآب قائلًا له: "يا أبَّا الذي هو الآب" (غلاطية ٤: ٦)، ليس بقوة النطق الآدمية، بل بقوة ودالة الروح القدس. وفي كل مرة، وقبل أي قول أو فعل يُظهِر النصراني الحياة

(١) سفر الرؤيا.

(٢) جاء في حاشية على كتاب المعلم والتلميذ: "نصراني لا يرشم ذاته ولا يعمل مرضاة الثالوث يُبطل قوة التعميد فيه ويطرح ذاته في الحكم".

الكاينة فيه والتي أتت من الثالوث عندما يرشم ذاته بعلامة الصليب المحيي.

## رشم الصليب "في تقدمة الحمل"

أمَّا في الطقوس الكنسية الأخرى، لا سيما القداس، فالكاهن يرشم الصعيدة والكأس عدة مرات مُعلِنًا في كل رشم عن العطية الإلهية التي تُوهَب. واعلم يا هذا أن العطية تظل جديدةً دايمًا لا تُصاب، ولا يتغير جوهرها؛ لأنها إلهية، وإنما الذي يتجدَّد هو الإنسان.

## النعمة غير المخلوقة

ولمَّا كانت المعمودية والمسحة والصعيدة كاينة منذ الرسل الأطهار لا يتغير جوهرها ولا فعلها في النفس والجسد، فإن هذه لا تكون أمورًا جسدانية عديمة الحياة وأرضية ترابية تتبدل من يوم لآخر، وإنما هي كما أعطاها لنا الرب وسلَّمها لرسله الأطهار. وما هو كاين ودايم لا يتبدل، لا يكون مخلوقًا ولا ترابيًّا ولا من هذه البشرية العديمة الحياة، وإنما هو من الله الذي وهب كل الأشياء في ابنه يسوع المسيح ربنا الذي به كل المصنوعات، وله قد خُلقت.

## شرح الرشومات الثلاثة

وعندما يرشم الكاهن خبز الصعيدة عند وضعه على المذبح قايلًا: "باسم الآب والابن والروح القدس"، فهو يقدِّم بعد ذلك البركة للآب ضابط الكل، وابنه يسوع المسيح ربنا، والروح القدس المعزِّي". ثلاثة رشومات تُقال بعد صيغة الأمانة (باسم الآب والابن والروح القدس). وهو يخبر المؤمنين بدعوتهم السماوية قايلًا: "باسم الآب والابن والروح القدس"، وبأن سر التبني الذي من الآب هو الذي يباركون الآب عليه قائلين: مبارك الآب ضابط الكل الذي أعطانا جديدًا سر التبني في الصعيدة الناطقة الروحانية. والبركةُ هي فكاكٌ من

الموت، ومن رباطات العدو الشرير الذي جحدوه في المعمودية. والكاهن يدعوهم معلِنًا دعوتهم إلى وليمة الابن السماوية، ويقول بعدها: "مبارك الابن الوحيد يسوع المسيح ربنا" الذي خلع عليهم ملابس الوليمة وجعلهم أهلًا لحضور العرس السماوي، أي القداس الإلهي. والكل يقدِّمون له البركة دون خوفٍ من الدينونة حسب قول بولص: "لا دينونة الآن على الذين هم حسب يسوع المسيح سالكين ليس في أهواء الجسد وفرائضه، وإنما في ناموس الحياة الروحانية الآتية من الروح القدس".

أمَّا عند قولنا: "مبارك الروح القدس المعزِّي الباركليت"، فإننا نعترف بأن الباركليت الذي نلناه بعد اغتسالنا هو الذي سيعلن لنا سر جسد الرب ودمه[١].

## شرح مرد الشماس

والشماس يعزِّي الشعب الكاين في البيعة قايلًا: "واحدٌ هو الآب القدوس. واحدٌ هو الابن القدوس. واحدٌ هو الروح القدس" مثل قوله بعد: "القُدسات للقديسين"[٢]. وهو يعزِّي الشعب؛ لأن القدوس وحده هو الآب والابن والروح القدس، وهو يستريح في قديسيه[٣] عندما يقدِّسهم ويمنحهم من ذاته قداسةً فايقةً تجعلهم يتعزَّون بالسماويات.

ويعلن الشماس أن الرب افتقد الأُمم، وأن نبوات الأنبياء قد كَمُلت بقوله للشعب: "يا جميع الأمم باركوا الرب؛ لأن رحمته علينا وحق الرب يدوم إلى الأبد". لقد أنار علينا من العلا وافتقدنا من الأُمم عندما أرسل ابنه الوحيد إلينا، وفاض علينا من الروح القدس. ولذلك يرد الشعب مرتلًا في أيام الآحاد النبوة

(١) راجع صلاة استدعاء الروح القدس في القداس الباسيلي "ويُظهره قدسًا لقديسيك".

(٢) بعد القسمة.

(٣) راجع صلاة الاستعداد "القدوس المستريح في قديسيه".

الداودية[1]: "هذا هو اليوم الذي صنعه الرب"، أي يوم قيامة الرب، فاليوم الجديد الذي أشرق لنا بنور الحياة هو موت ابنه وقيامته.

ومع أن رشم الصليب هو على الصعيدة وليس على الشعب، إلَّا أن الذين ينظرون هذا السر يعلمون أن الذي يتم في الهيكل على جسد ودم ربنا، هو ما سبق ونالوه في المعمودية والميرون، سِرِّ موت الرب وقيامته وحلول الروح المعزِّي.

## شرح المجد للآب والابن والروح القدس

وبعد ذلك يعترف الشعب بما نالوه من عطايا بقولهم الذكصولوجية: "المجد للآب والابن والروح القدس" ويرشمون ذواتهم دفعةً واحدةً لا ثلاث دفعات. وأنت يا مَن ترشم ذاتك بعلامة الصليب المحيي عند تقديم الصعيدة، أنت بذاتك قد انتقلت من الظلام إلى النور، ومن الموت إلى الحياة في يوم الخليقة الجديدة التي أشرقَتْ من الرب بقيامته، فهو شمس البر الذي أنار حياتنا، والذي بدونه نظل في الموت وظلام وقساوة ناموس العتيقة.

ارشم ذاتك بورعٍ وخوفٍ، واقبل الأسرار الإلهية بلا مراياه؛ لأن الذي منحها لك هو الثالوث القدوس الذي تمجِّده على رحمته بصليب ابنه الوحيد، وهو الذي به ثبَّت حقه، وقويَت علينا رحمته؛ لأن عصياننا استدعى تحنُّنه، وهو الحق الدايم إلى الأبد أمامه الذي أعده لنا بصليب ابنه الوحيد الذي صار ختم الحياة بالروح القدس.

## رشمٌ بعد تقدمة الحمل

يقول الكاهن: "السلام لجميعكم"، ويرشم رشمًا واحدًا معلنًا قبول الله

(١) نسبة إلى داود النبي.

للشعب بعد اعترافهم بقبول الدعوة السماوية. ويجاوبه الشعب "ولروحك أيضًا"؛ لأن الوحدة الروحية قايمة بالسلام، أي ربنا يسوع المسيح وصليبه[1].

## رشمٌ أثناء صلاة الشكر

وعند تلاوة الشبهموت (صلاة الشكر) يقول الكاهن: "وعن ساير شعبك" لكي تُبطِل علامةُ الصليب المحيي أفعالَ الشياطين، ليس لأنهم (الشياطين) كاينين في الكنيسة، ولكن أفعالهم تظل في النفوس التي تدنَّست. هؤلاء يزرعون الشقاق في الكنيسة، ويدنِّسون المحبة الأخوية لا سيما بالنميمة. من أجل ذلك يرشم الكاهن الشعب داعيًا إياهم إلى اليقظة الروحية، وإلى أن يحفظوا ثوب معموديتهم غير دنس.

## وعن هذه المائدة

ويرشم الكاهن المذبح مؤكِّدًا أن الواقف أمام المذبح لا يمكنه أن يُحضِر معه الخلافات الأرضية وأفعال الأرواح النجسة. ومن يُزمع أن يأكل من الصعيدة بعد تقديسها برشم الصليب وبالروح القدس، ليس له قبولٌ ولا استحقاقٌ لهذه البركة السماوية، إلَّا إذا كان قد تاب وعاد واتَّحد بالصليب وتصالح مع غيره.

واعلم أن المائدة طاهرة في كل شيء، ولكن لأننا نحن الذين نضع الصعيدة، فلا تكون هذه الصعيدة مقبولة إلَّا بالوحدة والسلام وألفة المحبة التي يصنعها الصليب المحيي. وإذا لبس كل نصراني صليبه بالنية وتسلَّح بالسهر على هذه النية، صارت الكنيسة كلها جسدًا واحدًا بلا خصومات.

(١) ورد في خولاجي الأنبا بطرس أسقف بابليون (ق ١٣): ولا يرشم الشعب على الكاهن علامة الصليب عندما يقول "ولروحك أيضًا" لأن المؤمن يرشم ذاته بالصليب من حيث أنه قد نال هذا في المعمودية والميرون، ولا يرشم غيره لأن رشم الغير هو نوال قوة الصليب في سر الكهنوت.

## حاشية

إذا سمعت الكاهن يقول: "مؤامرة الناس الأشرار وقيام الأعداء الخفيين والظاهرين انزعها عنّا وعن هذه المائدة"، فأعلم أيها المبارك أننا نصلي من أجل طهارتنا، لا طهارة الأسرار، ولو كان الأمر من أجل طهارة الأسرار ما كانت قد رُشِمَتْ في الأول، فهي طاهرة ولا تقدر الشياطين أن تدنِّسها، وإنما نحن عندما نتدنس بأفعال المضاد إبليس لا نعود نرى على المائدة خبز الحياة النازل من السماء الواهب الحياة، ولذلك يرشم الكاهن المائدة لكي تستنير عيون الشعب كله ويعلم أنه سوف يشترك في طهارة الصليب وقوة القيامة بالتمسك بوصية الحياة، أي المحبة.

## رشومات أوشية التقدمة

يرشم الكاهن خبز الصعيدة والكأس ثلاث دفعات وهو يصلي للابن الوحيد ربنا يسوع محب البشر. وعندما يسأله أن يُظهِر أقنومه[1] يرشم رشمًا واحدًا قايلًا: "باركهما"، وبركة الخبز والخمر بعلامة الصليب المحيي تقوم مقام كل الصلوات ولو طالت؛ لأن الذي يمنح البركة هو الابن الوحيد. والرشم الأول هو للآب، وهو لا يُذكر هنا؛ لأن الابن هو الذي يقدِّم البركة باسم الوحيدة الواحدة الكنيسة. وهذا الرشم يقال سرًّا؛ لأنه في الأزمنة القديمة كان الموعوظون في الكنايس، ولا يجب ذكر هذه الأسرار العالية أمامهم. وكما أن الآب قَبِلَ ذبيحة البركة، أي الصليب، يقبلها من الكنيسة بقوة وعلامة الصليب وباستدعاء الابن الوحيد رئيس الكهنة.

ثم يرشم دفعةً ثانيةً قايلًا: "قدِّسهما"، والرشم الثاني هو للابن الذي قدَّس

(١) حسب الترجمة العربية القديمة "اظهِر وجهك" هي بذاتها "اظهِر أقنومك"، أي اظهِر شخصك، والثابت لغويًا أن "وجه" تعني أصلًا "أقنوم" كما أن "أقنوم" تعني أيضًا "وجه".

القرابين في العلية قبل آلامه الطوعية، ولذلك هو الذي يقدِّس الصعيدة، أي يخصصها لحياته التي بذلها عنَّا على الصليب.

والرشم الثالث حسب ما هو ظاهر للروح القدس؛ لأنه هو الذي يطهِّر القرابين، أي يمنحها طهارة الابن الوحيد، تلك التي وضعها في الأحشاء البتولية.

واعلم أن الطهارةَ أنواعٌ وأقسام. أمَّا الطهارة التي يعطيها الروح القدس، فهي أن يصبح هذا الخبز البسيط الذي هو من ثمار الأرض خبز الحياة ويصير سماويًا. ومع أن الأوشية كلها مقدَّمة للابن، فهو الذي يبارك، وهو الذي يقدِّس، وهو الذي يطهِّر وينقل ما في الصينية وما في الكأس، إلَّا أن الكلام موجَّه سِرِّيًا للآب والابن والروح القدس. ومن حيث أن رئيس الكهنة هو ربنا يسوع المسيح ذاته، وهو الذي سبق فجعل حياته تُقدَّم كحملٍ[1] عن حياة البشرية[2]، فهو الذي يقوم كاهنًا لدى الآب إلى الأبد، ومن أجل ذلك تُقال هذه الأوشية حتى تدرك الكنيسة أن الذي يقدِّم ويخدم هو الابن الوحيد بواسطة خدامه كهنة الكنيسة.

## رشومات تحليل الخدام

تأمَّل في هذا الترتيب الحكيم الذي عليه شُيِّدت البيعة المقدسة. ولأننا على إيمان الآباء الذين عاينوا الرب وسلَّمهم الأمانة الأرثوذكسية، وهم بدورهم سلَّموها للذين خدموا الكنيسة من آباء وشهداء ومعترفين، فإن الكاهن يرشم شريكه في الخدمة، القس والشماس والخدام والشعب ثم ذاته خمسة رشومات سائلًا الحِل من الثالوث، والكنيسة الجامعة، ورأس البيعة في الديار المصرية مار مرقس، وشهود الإيمان الأرثوذكسي وبطريرك وأسقف الزمان، ويشير إلى

(١) تعكس هذه الكلمات صلوات الأوشية.

(٢) "العالم" تعني بشكل أساسي البشرية، ولذلك الترجمة صحيحة تمامًا.

ذاته برشم الصليب الخامس.

ومع تنوُّع طغمات الكنيسة، إلَّا أن الذي يجمع الكل في الحياة الواحدة هو الصليب، ولذلك يطلب التحليل، لشريكه الخديم وهو يفعل ذلك بإيمان صحيح وليس بمراياه[١]. ويرشم شريكه لأنهما تقلَّدا قوة الصليب المحيي في درجة الكهنوت كما سيجيئ ذكره. فالذي أقامه في البيعة كاهنًا، إنما هو الكاهن الحقيقي يسوع المسيح ربنا الذي قام على رتبة ملكيصاداق. والكاهن يذكِّر شريكه في الخدمة إن الذي يقربهما من المذبح هو الصليب.

وبعد ذلك يرشم الشماس الذي يحمل الصليب على كتفه كمثال لربنا يسوع المسيح[٢] ثم يرشم باقي الخدام (الإكليروس)[٣]، ويرشم الشعب، وبعد ذلك يرشم ذاته. والجميع رشمًا واحدًا في خمسة صلبان، وهم صليب الواحد الوحيد الذي يعطي للكل بالتساوي حياةً واحدةً؛ لأننا بموته وقيامته تم انضمامنا إلى جسده الكنيسة، وهو جسدٌ واحد؛ لأنه لنا "ربٌّ واحد، إيمانٌ واحد، معموديةٌ واحدة" كقول بولص. وبرشم الصليب يشترك الكل أعضاء الجسد الواحد في طلب المغفرة من الآب. وبهذا يصير تحليل الكل من جهة الصليب وصحة الأمانة الواحدة.

## الطواف حول المذبح بالبشارة والصليب

في العتيقة كانت المحلة تضرب خيامها حول خيمة الاجتماع وكان الله حقًّا "في وسط شعبه"، ولمَّا صارت النعمة بتجسُّد ربنا يسوع المسيح الذي "سكن فينا"، أي في وسطنا، صارت الأواشي التي تقال: "السلامة والآباء والاجتماعات"

(١) نفاق أو رياء.

(٢) الإشارة هنا إلى البطرشيل الذي يلبسه الشماس.

(٣) الإكليروس كلمة تستخدم للإشارة إلى كل خدام الكنيسة، ولعل المقصود هنا الدرجات الصغرى التي تبدأ بمساعد الشماس – القارئ – المرتل .. الخ. راجع هذه الرتب في القداس الغريغوري.

حول المذبح؛ لأنها حدود البيعة، وهي ليست حدودًا منظورة لعيني الجسد، وإنما هي الحدود والتُّخْم الذي وضعه الآباء الرسل، فصارت هذه الصلوات تقال بالطواف حول المذبح دلالةً على حضور الرب في وسط الكنيسة.

ويتم الطواف حول المذبح أولًا بخبز التقدمة؛ لأنه عندما يحمله الخدام ويتهللون ويصرخون طالبين سلامة الكنيسة؛ لكي يتناول الكل بابتهاج.

واعلم وتحقَّق من أن كلمات الأواشي هي أعمدة حياة شركة الكنيسة، فهي تقوم بالسلامة السماوية، وتفسير كلمة الحق باستقامة، ونمو شعب الله ألوفَ ألوفٍ وربوات ربوات. ولولا تجسده من العذراء، ما صار في الكنيسة هيكلًا. ولولا موته على الصليب، ما صار فيها مذبحًا. ولولا قيامته، ما حل الروح القدس، ولا صار لنا بيعةً، بل نصير مثل مجامع اليهود.

هو الذي أتى بنا إلى هيكل قدسه بتجسُّده من العذراء، لنصير نحن هيكله المختار الذي يُقام فيه المذبح وتُرفع عليه "الذبائح الناطقة"، وصعائد البركة التي هي حياة الشعب والتي تحتُنا عليها أوشية الاجتماعات.

والطواف بالبشارة والصليب يحملهما شماسان أو شماسٌ واحد ويقف رافعًا الإنجيل بيده ومعه الصليب الكبير دلالةً على أنهم يحرسون البيعة التي يصلُّون من أجل سلامها بقوة كلمة الله وبسر الصليب المجيد، وبعد ذلك ينـزل الكاهن ويقولون طاي شوري[1] وهي كلمات التعليم التي تبشِّر بنهاية العتيقة، ومجيء نسل إبراهيم، أي ربنا يسوع المسيح، وهو سبب حملهم البشارة والصليب.

(١) "المجمرة الذهب" وهو اللحن الخاص بالعذراء قبل قراءة البولس. وجاء في خولاجي قديم النص التالي: "أما سبب قولنا طاي شوري قبل قراءة البولس، فهو ظاهر لأن مواعيد البركة لإبراهيم ولنسله أي الذين ولدوا روحيًا كمثال اسحق هم الذين يسمعون كلمة الكرازة ويعرفون نهاية العتيقة بمجيء ربنا وتجسده".

## رشم الصليب في قدوس الله

ومتى كَمُلَ هذا جميعه، أي كلمات التعليم التي يتقبلها المؤمنون من الإنجيل[1] فإنهم ينتصبون جميعًا للاعتراف بأُلوهية ربنا يسوع المسيح وتجسُّده وموته وقيامته وصعوده. وفي كل مرة يقولون: "أجيوس"، يرشمون الصليب علامة التقديس الذي نالوه من الابن الوحيد، فهو إلهنا القوي والحي الذي تجسَّد ومات وقام، ولذلك يختمون أجيوس بذكصولوجية الثالوث شاكرين الآب والابن والروح القدس على نعمة الحياة الدايمة، وهو ما يؤهِّلهم لسماع كلمة الإنجيل الذي به يبشرون. ورشم الصليب هنا اعترافٌ بالإيمان، وشركةٌ مع السماويين في تقديس الحمل ابن الله.

## رشم الصليب قبل وبعد قراءة الإنجيل

وعند قراءة الإنجيل يقف الشعب كله بسكوتٍ تام لكي يسمع صوت ابن الله الحي الذي يخرج أمامه الكاهن بالشورية والشماس حاملًا البشارة، وعندما يصرخ يقول: "مبارك الآتي باسم الرب إله القوات، فلنسبح الرب لأنه بالمجد قد تمجَّد. بارك يا رب الفصل من الإنجيل المقدس". والشعب يصرخ قائلًا وهو يرشم الصليب: "المجد لك يا رب". وهم بذلك يستقبلون الإنجيل برشم الصليب؛ لأنه ختم الحمل الحي ابن الله وعلامة شريعة الحياة.

ترتيبٌ حكيمٌ، وصنعةٌ مُتقَنَةٌ أن نقبل البُشرى بعلامة الصليب؛ لأن ما ذاع من سر الابن الوحيد هو موته المحيي عنَّا، وهو بذاته الذي دعانا لأن نموت عن خطايانا، وأن نُصلب معه كقول بولص الرسول. وإذا كان الصليب ختم الابن الوحيد، فهو الذي به دخلنا البيعة عندما لبسناه في المعمودية المقدسة، ومُسحنا به على أعضاء جسدنا في مسحة الله الميرون الناري. وهو الذي به

(١) إشارة واضحة إلى الكاثوليكون والإبركسيس والسنكسار.

نقبل كلمات البشارة كقول بولص: "لم أعزم على شيء آخر سوى أن أعرف عندكم يسوع المسيح والذي إياه مصلوبًا"، فإننا إن لم نقبل البشارة بالصليب لا نقتني الإفراز ولا نفهم معنى كلمات الإنجيل؛ لأنه لا يخبرنا بأُمورٍ جسدانيةٍ أرضية تُرضي القلب المخدوع باللذة، وإنما يُبشِّرُنا بالأُمور السماوية التي تصير كاينة أمامنا في أسرار البيعة، ويعتقنا من عدم الإفراز عندما نصلب أهواء الجسد مع شهواته لكي يفتح الروح القدس عيون أفهامنا، فنرى السماويات وأمجادها.

وكما يقول الشعب: "المجد لك يا رب"، ويرشم ذاته مؤكِّدًا على أنه بالموت الذي قبلوه في المعمودية والذي يصير كاينًا فيهم، يعيشون دون تفريط في هذا الزمان الحاضر نايلين مسرة البُشرى بالصليب.

والذي يقرأ الإنجيل يرشم ذاته مثل الشعب معترفًا بأنه يقبل آلام وصليب الابن الوحيد قائلًا: "مبارك الآتي باسم الرب إله القوات ربنا وإلهنا .."، وبعد أن يفرغ من تلاوة البُشرى يقول: "المجد لإلهنا إلى الأبد آمين"، ويرشم الصليب بورعٍ؛ لأنه قد انقضى سماع كلمة الحياة بالتلاوة، وبدأت آلام المسيح وقيامته تكون كاينة أمامنا في سر الصليب المجيد.

## رشم الصليب في الأواشي بعد الإنجيل

واعلم أنه قبل أي أوشية، ومتى قال الكاهن: "شليل"، فإنه يرشم الشعب بمثال الصليب قايلًا: "السلام ..." طالبًا اليقظة والانتباه لكي ينالوا قوة الانتباه للصلاة. ومتى قال: "وعن كل شعبك"، يرشم الكاهن الشعب بالصليب، وإذا كان الأسقف حاضرًا، فهو الذي يرشم عوض الكاهن.

ورشم الصليب هنا ضروريٌّ ولازمٌ؛ لأننا في أوشية الآباء نطلب من الآب السماوي أن يُنعم على الكنيسة بالسلام، وأن يملأها بالخُدَّام الملتهبين بالمحبة

والتقوى، ولذلك، فإن الشعب الذي يصلي من أجل هذا الأمر، يعرف أنه يتمم بنيان جسد ربنا يسوع المسيح الكنيسة إذا صلى لأجل آبائه وطلب أن تمتلئ الكنيسة؛ لأن هذا ينشر قوة ربنا ويذيع البُشرى لحياة الفاقدين الحياة.

أمَّا عند قوله: "وعن كل شعبك"، فالترتيب الحكيم أن يرشم بعلامة الصليب؛ لأن المسيح مات على الصليب واشترى البيعة بدمه كقول بولص: "احترزوا لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الله عليها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه"، فهو الذي اقتنى بدمه هذا الشعب، وعندما يرشمه الخديم الكاهن أو الأسقف، فهو يعرف أنه يصلِّي عن هؤلاء الذين اقتناهم الرب بدمه، وإن صلاته لن تكون مقبولةً إلَّا إذا صارت له خشية ومحبة قطيع الرب. والخشية من أن يفقد أحدًا، والمحبة لكي يقتدي هو بسيده الذي مات عن شعبه.

## رشم الصليب في أوشية الاجتماعات

وعند قوله: "اذكر يا رب اجتماعاتنا باركها"، يرشم الشعب رشمًا واحدًا عند قوله: "باركها". وسبب ذلك هو قول الرسول بولص: "لأنكم تجتمعون مع قوة ربنا يسوع المسيح"، أي بقوة غلبته للموت التي ظهرت على الصليب، فهو لم ينحدر مثل الموتى إلى "أرض السكوت"، بل صرخ بصوتٍ عظيمٍ قائلًا: "قد أُكمل"، ولمَّا كَمُل كل شيء "نكَّس رأسه وأسلم الروح" في يدي الآب الضابط الكل كقوله: "في يديك أستودع روحي".

وتحقَّق يا هذا أن كل هذا صار لكي يتطهَّر الإنسان من آلامه الداخلية ومن سوء قلبه.

واعلم أنه بفضيلة موته المحيي صار لنا أن نجتمع في البيعة لكي ننال من طهارته؛ لأنه لم يمت مثل آدم الأول ميتة المعزول من الله ورافض وصاياه،

وإنما مات بطهارة وقداسة أُقنومه، وهي القوة الأُقنومية التي أوجبت على الخطية أن تزول، وعلى الموت والفساد أن يصبح كلا شيء.

وكلُّ خاطئٍ معزولٌ عن قوة الحياة التي من الله بسبب عصيانه، ولذلك حتى إذا اجتمع بغيره، فهو اجتماعُ ميِّتٍ بميتٍ مثله، لا تخرج منه طهارةٌ ولا حياة، وهو قول المزمور: "لأن الموتى لا يسبِّحونك ولا الذين ينحدرون إلى أرض السكوت". أمَّا ربنا فقد أحيا الجنس البشري وبشَّر آدم وحواء بالخلاص وهما في سلاسل عبودية إبليس وتحت حصاره في الجحيم، ولأنه أنهض جنسنا الأثيم وأعطاه حياةً قال عن هذه الحياة: "إذا اجتمع اثنين أو ثلاثة باسمي، فأنا أكون في وسطهم". وهو في وسطنا نحن شعبه؛ لأنه يجمع الكل تحت جناحيه، أي الصليب الذي عندما بسط يديه الطاهرتين جمع اليهود والأمم في جسده الواحد ومدَّ يديه للاثنين، وخلق مصالحةً عظيمةً سماويةً. ولذلك يرشم الشعب قائلًا عن اجتماعات البيعة: "باركها" بقوة صليبك لكي تصير للطهارة والاتحاد وتوبة المُشاق[1]، لأنه هو يصير معزولًا من قِبل أفعاله السمجة الردية، لا سيما النميمة والخبث والكلام البطَّال؛ لأنه ينشر غوايات الأرواح النجسة بين المؤمنين، وبه يعثُر الضعفاء ويسقطون. لكن من أجل ذلك المُشاق وكل المُشاقين، نطلب طهارة اجتماعاتنا لكي تكون ذبيحتنا مقبولة لدى الله. ولولا طهارة الابن الوحيد التي تُفاض علينا بالروح القدس بسبب صليبه وقيامته، لما كانت لنا اجتماعات في الكنيسة، ولكننا به نجتمع وبه نحيا وبقوة صليبه نتطهر.

ويرفع الكاهن البخور فوق المذبح إلى الجهات الأربعة على مثال الصليب، أي شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا ضارعًا إلى الله الآب: "بيوت صلاة بيوت طهارة بيوت بركة ...". والبخور هو حياة الابن غير الفاسدة التي صارت رائحتها عطرة

(١) المشاق أي المنشق وجمعها المشاقين أي المنشقين.

وتقدَّم على المذبح لله الآب؛ لأنه عندما اتحد اللاهوت بالناسوت وصار معه واحدًا، ظهرت كل فضائل اللاهوت، لا سيما فضيلة الحياة وعدم الموت وعدم الفساد، وأقامت الموتى، وأظهرت انحلال سلاسل الشيطان وضعفه وعدم قوته. ولما صارت قوة المعاند كلا شيء عندما أبطلها الرب ببسط يديه على الصليب كمَن يطلب عن البشر إلى الآب لا بقوة اللفظ وحسن صناعته، وإنما بقوة الحياة والدم الذي سكبه عنَّا، فصار المذبحُ هو قلبَ الجماعة وحوله تقام بيوت المؤمنين[١] ومن أجل ذلك يرفع الكاهن حياة الابن الوحيد رائحةً طيبةً ذكيةً لله الآب على مثال الصليب، وهو يذكر بيوت المؤمنين في الشرق والغرب والشمال والجنوب ضارعًا أن يجعلها المسيحُ بيوتَ طهارةٍ وبركةٍ لتُرفع منها ذبائح الصلاة حتى يتقدَّس الآتين بعدنا، أي أولادنا ونسلنا الذي اختاره المسيح ليرث المواعيد السماوية ويسكن في البيعة المقدسة[٢] الجامعة الرسولية.

وكلُّ مرةٍ يطوف فيها الكاهن حول المذبح إنما يعلمُ أنه يطوف حول تخُم[٣] الكنيسة، أي ليعرف بيوت الشعب التي قال عنها المزمور: "أورشليم قائمة مثل مدينة بيوتها مثل حلقة". والشعب يرى ذلك ويعرف من الطواف حول المذبح مَن هو كاهنه وخادم أسرار الله، وأنه هو بذاته الذي يأتي لكي يجمع شعب المسيح حول مائدة الرب. وقد قال مخلصنا بصوته الإلهي مُعلنًا اجتماع الكنيسة: "الحق الحق أقول لكم إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمُت، فهي تبقى وحيدة. ولكن متى ماتت فهي تأتي بثمرٍ كثير"، وكان يخبرنا بذلك عن الكنيسة التي صارت ثمرًا كثيرًا فائضًا بقوة ورحمة ربنا التي فاضت منه بموته المحيي عنَّا، فجلب للآب أولادًا كثيرين حملهم عندما

(١) البيوت حول الكنائس ظاهرة معروفة في كل بلاد المشرق.

(٢) السكنى في البيعة كما هو واضح، أي البقاء في الإيمان والاستمرار في الحياة المسيحية.

(٣) حدود.

اتحد بالناسوت وصار واحدًا، فأخصب بقوته الإلهية ناسوته، فصار محييًّا يَهَب الحياةَ لكل مَن يدعوه ويقدِّسه بنعمة التبني في حميم الماء والروح، وهؤلاء يجمعهم سر الصليب المجيد، أي موت الرب وقيامته.

## التبخير نحو الغرب

ويلتفت الكاهن نحن الغرب ويعطي البخور ثلاث مرات للكهنة والشمامسة والشعب قائلًا: "وأمَّا شعبك فليكن بالبركة ألوفَ ألوفٍ ..". وهنا يرفع رائحة حياة ربنا معلِنًا أنها تنمو بفضل نقاوة الابن الوحيد رائحة الحياة الوحيدة الذكية المقبولة لدى الله الآب، وهي التي تجعل الشعب يثمر ألوفَ ألوفٍ وربوات ربوات ليس بالعدد كقوة الأُمم، وإنما بالبركة. وملء الكنيسة الجامعة، إنما هو من حياة ربنا يسوع المسيح، ولذلك يختم هذه الأوشية قائلًا: "يصنعون إرادتك المقدسة بالنعمة والرأفات ومحبة البشر اللواتي لأبنك الوحيد". وبهذه القوة تنمو الكنيسة وتصير حبة الحنطة ذات ثمرٍ كثيرٍ.

الفصل الثاني عشر

# قانون الإيمان

## حكمة الإيمان الرسولي

وبعد ذلك يمسك الشماس الصليب المكرَّم ويرفعه مناديًا الشعب: "انصتوا بحكمة الله. يا رب ارحم، يا رب ارحم بالحقيقة نؤمن بإلهٍ واحد ..."، ويظل واقفًا مكانه حتى ينتهي الشعب من تلاوة الأمانة (قانون الإيمان)؛ لأن حكمة أقوالها ليست حكمةً بشريةً تُعلنها أقوالٌ بشريةٌ، وإنما هي حكمةٌ إلهيةٌ، وحسب إعلان محبة الله في صليب ابنه يسوع المسيح.

أمَّا قوله: "يا رب ارحم"، فهو تضرُّعٌ لكي يمنع الرب برحمته عدم استقامة القلب التي تجعل الذين يقولون الأمانة، إنما يقولونها من أفواههم فقط لا من قلوبهم. وهو لذلك يرفع الصليب حتى لا يتشبَّه أحدٌ باليهود الذين قال عنهم أشعياء: "هذا الشعب يكرمني بشفتيه أمَّا قلبه فبعيد عني". وقال أشعياء هذا؛ لأن شعب العتيقة كان ماهرًا في التلاوة، ولم يتمهَّر في التقوى. فهو يرفع الصليب مثال الحية النحاسية التي رفعها موسى، وكل مَن كان ينظرها كان ينال الشفاء. لننال الشفاء بتلاوةٍ صحيحةٍ للأمانة (قانون الإيمان) وبعلامة الحكمة والحياة التي لربنا يسوع المسيح، أي الصليب المكرَّم.

## الأمانة وعلامة الصليب

واعلم يا مَن أنت ماهرٌ وحكيم بنعمة الروح القدس أنك على كل الأحوال لا تدرِك قوة كلمات الأمانة إدراكًا صحيحًا إن لم تسكن حكمة الصليب في

ضميرك وتصير كائنة أمام عينيك في كل حين.

وحكمة الصليب هي هذه: أن تحب الربَّ لأنه أحبك أولًا وأرسل وحيده المحبوب إلى العالم ربنا يسوع المسيح، فأظهر به المحبة والحكمة. لأن الحكمة السماوية لا تدمِّر ولا تسخط مثل الضعفاء والحاقدين، بل تبني وتشفي وتقيم الساقط وترد الضال وترفق؛ لأن لها القوة الحقيقية أي قوة الحياة. وكلمات الأمانة تشهد على هذا؛ لأنها تدعونا إلى الإيمان بربنا يسوع المسيح الذي أرسله الآب إلى العالم ومات عنَّا، فردَّ الضال وأحيا الميت، أي آدم ونسله، وقضى على فخاخ الشيطان.

فاحذر يا مَن تسمع كلمات الأمانة وترى علامة الصليب مرفوعةً أمام عينيك أن تقول كلمات الأمانة وقلبك خالٍ من قوة المحبة، ومن أدوية الحكمة التي تترفق؛ لأنها تعرف أين الطريق المستقيم وتهدي الناس إليه. وأمَّا الحكمة، فهو ربنا يسوع المسيح الذي قال عنه الرسول بولص إنه "حكمة الله"، ولذلك احفظ كلمات الأمانة وردِّدها كلما تصاعدت أمواج الحكمة الزائفة، وأمسك بعلامة رجاء الحياة، أي صليب ربنا يسوع المسيح.

الفصل الثالث عشر

# صلاة الصلح

وعندما يتلو الشعب الأمانة، يغسل الكاهن يديه، ليس لأنه يتشبَّه بالوالي الروماني الذي صَلَبَ ربنا، وإنما لأن الوالي بيلاطس هو الذي تشبَّه بالأتقياء فغسل يديه، مُعلِنًا براءته وهو منافق. ويردِّد قول المزامير: "تنضح عليَّ بزوفاك فأطهُر، تغسلني فأبيضُّ أكثر من الثلج .."، وهو يطلب نقاوة نفسه، ليس لأن الماء يعطي النقاوة، فهو عديم الحياة، وإنما لأنْ الاغتسال يحرِّك النفس لكي تطلب النقاوة من الروح القدس الكائن في النفس والجسد منذ المعمودية.

ويرشم الشعب في قوله: "إيريني باسي"، وهو يفعل ذلك مثل كل مرة مُعلِنًا ضرورة الاتحاد بقلبٍ واحد من أجل القبلة الرسولية.

## المصالحة وعلامة الصليب

ومتى بدأ الكاهن صلاة الصلح يقف الشماس أمام الكاهن ويرفع علامة الصليب المكرم قائلًا: "صلوا من أجل السلامة الكاملة ..." محذِّرًا الشعب أن لا يقبل سلامًا آخرَ غير سلام ربنا يسوع المسيح الذي مات عنَّا، وتراءف على جنسنا الساقط، وأقامه من الموت بموته المحيي. ويرفع علامة الصليب بقوةٍ، لا بتكاسُلٍ؛ لأنه (الشماس) يخلُص بقوةٍ خدمته.

## شرحٌ آخر[1]

والكاهن يصلِّي صلاة الصلح ويديه عاريتان؛ لأنه مثل آدم الذي طُرِدَ عاريًا من الفردوس. أمَّا بعد الصلح، فيضع اللفائف على يديه؛ لأنه قد اكتسى بالنعمة وصار أهلًا للوقوف أمام ربنا يسوع المسيح بسبب موته وقيامته.

## القبلة السماوية

ونحن نرتِّل في البيعة القول الرسولي: "تعال إلينا اليوم يا سيدنا المسيح، وأضيء علينا بلاهوتك العالي. أرسل علينا النعمة العظيمة هذه التي لروحك القدوس المعزِّي"[2]. وهكذا، بقوة صليب ربنا المحيي وقيامته، نُقَبِّلُ بعضنُا بعضنُا بقبلةٍ سماوية، وتكون نعمة المعمودية والاغتسال من العداوة القديمة قد أثمرت فينا بحكمة الصليب المحيي، فنُقَبِّلُ بعضنُا بقوة الروح المعزِّي الذي قال عنه ربنا يسوع المسيح إنه يحمل السلام السماوي للتلاميذ (راجع يوحنا ١٤: ٢٦ - ٢٧)، ولذلك يصرخ الشماس وهو رافعٌ الصليب: "يا رب ارحم .... إلخ" متضرِّعًا لأجل الشعب حتى يُقبل على القُبلة السماوية بقلبٍ طاهرٍ، وبمحبةٍ حقيقيةٍ.

## شرحٌ آخر قديم

ويرفع الكاهن ومعه الشماس الابروسفارين، ويحمل الختم أولًا لكي يبرهن للشعب على أن الربَّ قام حقًا ودحرج الحجر عن باب القبر، وانبعثت

(١) ورد أيضًا في خولاجي الأنبا بطرس: وعلة وضع اللفائف على اليدين أثناء الصلاة بعد الصلح، أن الكاهن يستر يديه معلنًا أن اليدين الطاهرتين المحييتين هما يدي ربنا يسوع المسيح، وأن نعمته الإلهية هي التي تخدم الآب، وهو ما يستوجب وضع اللفائف على يديه حتى لا تظهر يدي الكاهن أمام الله الآب، وإنما الذي يعطي النعمة هو الابن الوحيد رئيس الكهنة الحقيقي والذي له وحده الكهنوت الذي لنا نحن أيضًا، وهكذا يتم قول الرسول "أننا بلا كفاءة نخدم هذا العهد الأفضل".

(٢) راجع خولاجي المسعودي ص ٣٠٨ – ٣٠٩.

الحياة الجديدة التي صارت تبشِّر بها الملائكة. وعِلة هذا الترتيب هي أن قيامة ربنا يسوع المسيح هي التي أظهرت حياته من بعد موته على الصليب، ولكي نبشِّرُ بعضنُا البعض بقيامته مقبِّلين بعضنُا بعضًا بقُبلةٍ سماويةٍ.

تسليمٌ حكيمٌ، وإشارةٌ سريةٌ إلى الشعب تعلِن له حضور ربنا المحيي وحياته الغالبة.

الفصل الرابع عشر

# الأنافورا، أو قداس المؤمنين

يأخذ الكاهن اللفافة التي على الصينية، ويرفعها ويرشم الشعب رشمًا واحد بمثال الصليب قائلًا: "الرب مع جميعكم". وهو قد صار معنا متجسِّدًا، ولذلك يكشف القربانة.

أمَّا عِلة رشم الصليب، فهو لأن المخلِّص قد صُلِبَ بيننا، وأننا سوف نعاينه مصلوبًا لأجلنا وحيًّا في هذا السر السمائي. والربُّ مع جميعنا رأسًا لنا ومخلِّصًا وليس اسمٌ آخر تحت السموات قد أُعطيَ للناس به ينبغي أن نخلص إلَّا اسم يسوع المسيح ربنا الذي معنا متجسِّدًا.

## ارفعوا قلوبكم

ويرشم الخدام عن يمينه بعد رشم الشعب سائلًا أن يساعدوه بالطلبة باتحادهم معه في سر موت المسيح وقيامته المزمع أن يُعلَن في هذه الصلوات. ونحن نرفع قلوبنا إليه؛ لأنه هو الذي أتى إلينا، وهذا هو سبب رشم الصليب، ويكون هذا كمَن يُسرع إلى لقاء مَن يدعوه. والربُّ الغافرُ الخطايا والذنوب هو الذي دعانا وأمسك بنا نحن نسل إبراهيم لكي يكون معنا، وأمَّا نحن فلنكن معه بالأمانة المقدسة، ولتكن قلوبنا عند الرب بعلامة قبولنا الأبدي، أي الصليب المجيد.

## فلنشكر الرب

ويرشم الكاهن ذاته بعلامة الصليب شاكرًا الآب الذي أرسل وحيده، والابن الذي أقامه لهذه النعمة، ودعاه لأنْ يحمل معه الصليب، والروح القدس الذي أقامه بشريعة الصليب وأفاض عليه النعمة المبرِّرة الثانية[١].

وأنت يا مَن تخدم الأسرار السمائية تعلَّم من هذا الرشم كيف تشكر ربنا يسوع المسيح الذي أفاض عليك هذه النعمة، وجعلك أهلًا لأن تقف أمام مذبحه المقدس.

واعلم أنك ترشم الشعب أولًا مؤكِّدًا أن الربَّ في وسطهم، وتطلب صلوات إخوتك داعيًا إياهم أن يساعدوك بالطلبة. وآخر الكل أنت الذي صرت كاهنًا تقدِّم الشكر للرب على كل هذا؛ لأن الرب دعاك لخدمة مذبحه المقدس.

ومَن لا يشكر يكون قد نسى تطهير خطاياه السالفة كقول بولص. والشكر برشم الصليب؛ لأنه عهدُ الربِّ معنا أننا لا نموت موت الخطاة إن ظلَّت الأمانة في قلوبنا ورجعنا إليه. والشعب يجيب على هذه الأقوال بقوله: "مستحق وعادل"، وهي كلمات جليان[٢] يوحنا الرائي.

فالحَمَل ربنا يسوع المسيح هو الذي فكَّ ختوم السفر. وأيُّ سفرٍ كان هذا؟ إنه سفر الخليقة[٣] الذي كان مختومًا، أي "مغلقًا على العالم كله في العصيان" كقول بولص الرسول، ولكن الحَمَل ذُبِحَ واشترانا بدمه الطاهر، وصار مستحِقًا أن يفتح ختوم السفر، أي يعلن أسرار الخلاص الإلهي، وفكَّ ختوم

---

(١) حسب التعليم السائد في الشرق وعند الآباء، الكهنوت هو النعمة الثانية بعد النعمة الأولى أي المعمودية، وبهذه النعمة يصير لمن يُقام كاهنًا عطية خدمة الأسرار.

(٢) جوليان كلمة محرفة عن السريانية وتعني رؤيا.

(٣) مع أن سفر الخليقة هو سفر التكوين حسب التسمية القديمة الشائعة منذ زمن العلامة أوريجينوس إلَّا أن المعنى الظاهر هنا ليس سفر التكوين وإنما ما يخص الخليقة الجديدة.

السفر بعلامة الصليب المحيي الذي أعلن أن الذي خلقه الرب ومات هو بذاته الذي سيأتي إليه الربُّ ويجدِّده من قِبل تجسُّده الطاهر من العذراء القديسة مريم. ولذلك السبب عندما رأى يوحنا كيف أن الأختام السبعة لم يقدر أحد أن يفك ختومها إلَّا الأسد الذي غَلَبَ (رؤيا ٥: ٥)، وأنه هو بذاته "الحمل القائم كأنه مذبوح" (رؤيا ٥: ٦)، فهو بذاته أسدٌ وحَمَلٌ؛ لأنه غَلَبَ، ولأنه قدَّم ذاته حَمَلًا للآب. ولذلك نُرتِّل لأن سرَّ خلاصنا سوف يُعلَن قائلين مع السمائيين: "مستحقٌّ وعادلٌ" (راجع رؤيا ٥: ٩) وهكذا تظهر لنا أسرار الخليقة التي سقطت في آدم، ونالت حياةً جديدةً بآدم الأخير، أي ربنا يسوع المسيح الذي جدَّد كل شيء.

## مستحقٌّ وعادل

وبقولنا ذلك: "مستحقٌّ وعادلٌ" مع السمائيين، نرى أننا قد صِرنا معهم واحدًا في التسبيح، وأننا أمام المذبح السمائي الذي لا يمكن أن يدركه غير المؤمنين لأن بصيرتهم قد طمرها[1] الشيطان، فجعلهم يتطلعون إلى الأمور الظاهرة على أنها أمورٌ يقينية، غير مدرِكين أن هيئة العالم تزول ومنظره الحسن باطلٌ لأنه غير دائم.

أمَّا أن أسرار الخليقة قد أُعلِنت بقولنا: "مستحقٌّ وعادلٌ"؛ فلأننا نعترف بالثالوث المحيي الخالق لكل الأشياء والمدبِّر كافة الخليقة.

أمَّا قولنا: "مستحق"؛ فلأنه أبدعنا من العدم، فهو مستحقٌّ السيادة.

أمَّا قولنا: "عادل"؛ فلأنه أظهر عدله بدعوتنا نحن الخطاة للتوبة، فأظهر عدله الإلهي؛ لأنه منحنا حياةً جديدةً، ولم يسمح بهلاكنا.

---

(١) وربما طمسها.

## شرحٌ آخر قديم

وعند قول الخديم: "الرب مع جميعكم" يرشم الشعب رشمًا واحدًا بعلامة الصليب؛ لأن هذا هو عهد وميثاق الرب معلِنا أنه لما مات وقام، صار الصليب عهد محبته الأبدي لنا.

أمَّا عند قوله: "ارفعوا قلوبكم"، فهو يرشم الخدام قائلًا لهم إننا متجنِّدون في خدمة الرب بعلامة الصليب.

وعند قوله: "فلنشكر الرب"، يرشم ذاته؛ لأن الرب أقامه بعصا الصليب لكي يرعى شعبه، وهنا يذكِّر الكاهن أن الرب أقامه للخدمة بشريعة الحياة الجديدة، أي الصليب المكرم[1].

## أسرار الخلق والخلاص

ونحن القيام أمام المذبح السمائي، وأمام الصعيدة السماوية، ندرك أننا نقف أمام أسرار الخليقة كلها؛ لأن السماويين حاضرون معنا بكل رتبهم المقدسة، وكذلك الظافرون السعداء الآباء البطاركة والأنبياء والرسل القديسين والشهداء، وكل الأبرار الذين لم يكمَّلوا بدوننا؛ لأننا ننال معهم من الثالوث القدوس الحياةَ والنجاة. وذلك أيضًا سببٌ ثانٍ لقولنا: "مستحقٌّ وعادلٌ"، فقد ظهر أن سرَّ الخلقِ أكمَلَهُ تجسُّد ربنا يسوع بدعوتنا للخلاص من الموت ومن الشيطان عدو جنسنا.

ولمَّا فرغت الخليقة الأولى، استراح الرب من عمل يديه، ولكنه استراح بالحقيقة في القبر لمَّا فرغت الخليقة الجديدة، ولمَّا أكمَلَ بالآلام كل ما

(١) ورد في خولاجي الأنبا بطرس "وارشم الشعب أولًا ثم الخدام وبعد ذلك ارشم ذاتك آخر الكل متذكرًا أنك تقف لخدمة العبيد رفقائك وأنه لا يجوز لك أن تسبق غيرك حتى في الرشومات، مع أنها نصيبك، ولكن من يؤخِّر ذاته ينال هدوء وسلام الاتضاع".

تحتاجه، رَقَدَ في القبر منتظرًا انبعاثه المضيء لكي يبدد ظلمة الموت وينير سبتَ راحتنا الأبدي، أي يوم قيامته الذي أشرقت فيه الحياة الجديدة بقوة القيامة من الأموات.

وهكذا لم تكتمل أيام الخليقة بالسبت الأول؛ لأنها كيف نالت الراحة الحقيقية وهي تحت قيود الموت؟ وكيف تعبد الربَّ بالروح والحق وهي لا تزال تحت مؤدِّبٍ يعاقِب بالموت، أي الناموس؟ أمَّا الآن، فقد صارت لنا راحةٌ سماويةٌ؛ لأننا بدأنا نعاين شمس الحياة الجديدة التي أشرقت بالقيامة، ولأننا نقف في المواضع السماوية الكاينة على الأرض، أي هيكل البيعة. ولما كان إبراهيم واسحق والآباء قد شاهدوا الربَّ، فأقاموا مواضعَ مقدسةً لعبادته، هكذا أقام هو المذبح السماوي موضع رؤيته قائمًا من بين الأموات.

فإذا وقفنا أمام المذبح في يوم الرب (أي يوم الأحد)، فلنعلم أننا أمام كمال الخليقة، وتمام حياتها بالقيامة، ولنُسرِع إلى الموضع السماوي؛ لكي إذا اشتركنا مع السماويين، لا تعود ظلمة هذا الدهر تحجب عنا شمس الحياة الجديدة، أي القيامة المحيية.

## الرب الكاين في كل حين

وبعد الرشومات وقولنا "مستحق وعادل"، يصلي الكاهن قايلًا: "أيها الرب الكاين في كل حين. إله الحق الكاين قبل كل الدهور، والملك إلى الأبد"، ثم يذكر بعد ذلك كيف خلق الآب بابنه يسوع المسيح ربنا كلَّ الأشياء. وتكون هذه الصلاة مثل وثيقة ملوكية تُظهِر أن مَلِكَ الكلِ الآب ضابط الكل، وابنه يسوع المسيح ربنا، والروح القدس هو مدبِّر الخليقة وأتى بها من العدم. هذا هو الصك الملوكي الذي يثبت لنا سبب وقوفنا أمام المذبح السماوي. وهو "كاينٌ كل حين"؛ لأنه إله الحق، وهو أمام المذبح يُظهر ذاته كخالق الكل ومخلص الكل بيسوع المسيح ربنا.

## تسبحة السمائيين

وبعد ذِكر الخليقة، والكاهن يمسك بالإقرار الحقيقي بأن الآب مَلكُ كلِّ الأشياء، يصرخ الشماس قايلًا: "أيها الجلوس قفوا". ونحن قيام على أقدامنا، ولكن لئلا يدرك التعب أحدٌ منَّا، أو يمر التهاون على قلبه، أو يعود إلى السجس، يطلب الشماس أن تقف عقولنا لا أقدامنا، وأن ننال بهجة الانتباه الروحي لا الوقوف الجسداني. ويعود الشماس يقول لنا: "انظروا إلى الشرق" حيث صار اعترافنا بالمسيح الإله وبكل نواميسه المحيية وشريعة حياته المخلِّصة في المعمودية المقدسة، ونحن عندما أقبلنا إلى مياه الحميم والأردن المقدس (جرن المعمودية) وتحوَّلنا من الغرب إلى الشرق معترفين بالإيمان، أشرقت لنا الحياةُ الجديدةُ بقيامة ربنا يسوع المسيح.

وقد رتَّبت الكنيسة أن ننظر إلى الشرق قبل تسبحة الشاروبيم لكي إذا استعدنا كرامتنا بالمعمودية، نُقبل إلى التسبيح بعزة البنين وشكر المفديِّين. واعلم أن قول الشماس: "انظروا إلى الشرق" يعني أننا عُدنا إلى الفردوس، وأننا لا ننظر إليه كمَن أمامنا، بل ننظر إلى شمس الحياة يسوع المسيح ربنا الذي أشرق لنا بالحياة عديمة الفساد.

## ننصت

ومتى وصلنا إلى هذا الجبل المقدس الذي يرفعنا إلى هذه الرؤية الروحانية، فلنكفُّ عن كل الاهتمامات الجسدانية ولنسمع صوت الشاروبيم.

## شرحٌ آخر قديم

أمَّا قول الشماس: "ننصت"، فهو يعني أن يكُفَّ كلُّ إنسان عن الاهتمامات الباطلة، وأن يرفع عيني عقله إلى الشاروبيم الممتلئين أعينًا، وأن يصرخ الكل

متى سمعوا هذا النداء السماوي؛ لأن أشعياء أخبرنا بأن "هذا نادى ذاك"، وعندئذٍ يجب أن تصمت الكنيسة بُرهةً لكي تسمع عقليًّا تسبيح الشاروبيم، وتشترك معهم بالتسبيح الدائم قائلين: "قدوس قدوس قدوس"[١]،[٢].

## قدوس

يضع الكاهن اللفافة التي على يده اليسرى على المذبح، ويأخذ اللفافة التي على يده اليمنى ويضعها على يده اليسرى. ويأخذ اللفافة التي على الكأس ويرشم بها ثلاث صلبان، وفي كل صليب يقول **Ⲁⲅⲓⲟⲥ**. وفي الرشم الأول يكون متجهًا إلى الشرق ويرشم ذاته. والثاني على يمين المذبح ويرشم الخدام. والثالث يتجه إلى الغرب ويرشم الشعب في المرات الثلاث بمثال الصليب.

## الشرح الطقسي

وعند قوله: "قدوس"، يأخذ اللفافة التي على الكأس معلِنًا بذلك أن التقديس صار عند عرش النعمة بدم ربنا يسوع المسيح الذي قُدِّمَ عنَّا ذبيحةً فائقةً وَهَبَتْ لنا المصالحة والتقديس مع الآب والروح القدس ومع القوات السمائية.

---

(١) نصٌّ طقسيٌّ قديم ورد في خولاجي من القرن الرابع عشر مرد الشماس: "ننصت بسكوت ومعرفة. القوات السماوية تسبِّح، ونحن أيضًا فلنسبح معهم صارخين".

(٢) ذكر خولاجي المسعودي ص ٣١٨، ص ٣١٩ أُنشودتين من أجمل الأناشيد الكنيسة وكلاهما باللغة اليونانية مما يؤكد أنهما من الإسكندرية، وأنهما من زمان الآباء. والنشيد الأول يصف بكلمات قليلة سِر وحدة الكنيسة الجامعة: "تعالوا إلى المائدة نبارك الله مع الملائكة ورؤساء الملائكة صارخين وقائلين: قدوس قدوس قدوس أنت يا رب هللويا. المجد للآب والابن والروح القدس. مع الشاروبيم نرسل التسبيح قائلين قدوس قدوس قدوس أنت يا رب هللويا. الآن وكل أوان والى دهر الدهور ..". وهنا المذبح، هو مركز الكون أو قلب الخليقة الجديدة، أي البشر التي تصالحت مع الخليقة السماوية واجتمعت حول الإفخارستيا.

**الرشم الأول:**

يرشم الكاهن ذاته؛ لأنه يكون مثالًا لما حدث في خدمة العتيقة، إذ يتقدَّس الكاهن قبل أن يدخل إلى الأقداس. أمَّا ذاك فكان يتقدس خارجيًّا وحسب قوة التقديس الناموسية، أمَّا هذا فهو بتقديسٍ داخليٍ بعلامة الصليب، وهي ختم التقديس الذي عندما أخذنا قوته، صرنا قادرين بسبب قوة الصليب المحيي أن نقول: "قدوس".

**الرشم الثاني:**

ولأن الخُدَّام مساعدون في الصعيدة، وموثقون بهذه الخدمة، ينالون من يد شريكهم علامة الصليب. ومتى أُعطيت علامة الصليب، فليس في الرشم كبيرٌ أو صغير؛ لأن مقام الإنسان مهما عَظُمَ أو صَغُرَ لا يضيف إلى قوة الصليب شيئًا ولا ينقص منها شيئًا. وهكذا يصير الرشم بقوة الصليب المحيي لكي تنال النّفس قوة حياة لا تذبل، والكل حول المذبح يقول: "قدوس".

**الرشم الثالث:**

وعندما يلتفت إلى الغرب لكي يرشم الشعب، فكل واحد يرشم ذاته أيضًا؛ لأنه حيثما يقال: "قدوس"، ولو في صلاةٍ منفردة، فإن الكل يرشم ذاته؛ لأن التقديس بواسطة صليب ربنا هو الذي يعلِن لنا الحياة الجديدة الفائقة.

وهكذا يصير الصليب عَقدَ القداسة بين الذين في البيعة، وعلامةَ خلاصٍ لكل الذين ينالون صبغة الحميم. وكما أن الصليب هو شجرة الحياة الكائنة في الفردوس التي أثمرت لنا طعام الحياة الباقية، أي جسد ودم ربنا يسوع المسيح، فهو أيضًا الذي منه نبعت مياه الحياة الواهبة الغفران لكل العالم.

## شرحٌ قديم

أمَّا قولنا تسبحة السماويين قبل بشارة خلق الإنسان، فهو ترتيبٌ قديمٌ رسوليٌّ؛ لأننا نسبِّح الرب القدوس مع رُتب الملائكة عندما نصلي معترفين بالإيمان بأنه هو خالق الكل. والكاهن الشريك يدور دورةً واحدةً حول المذبح حاملًا الشورية معلنًا أن حياة ربنا يسوع المسيح الذكية هي التي أنبعت التسبيح، ووهبتنا الاشتراك مع السمائيين في تسبيحٍ واحدٍ منشدين نشيد الغلبة والظفر. ويسبق هذا قولنا بسقوط الإنسان؛ لأن مجيء ربنا يسوع المسيح أعاد إلينا التقديس وردَّنا إلى رتبتنا الأولى التي سقطنا منها. أمَّا قولنا بعد ذلك بسقوط الإنسان، فالسبب الظاهر هو أننا نقف أمام المذبح السمائي، ونعرف من التقديس المثلث أين كانت مكانتنا قبل طرد آدم من الفردوس، وكيف عدنا إلى الفردوس بواسطة تجسُّد ربنا يسوع المسيح وظهوره المحيي.

وتغيير اللفائف من اليد اليمنى إلى اليسرى هو تهذيبٌ للفكر والمشيئة؛ لكي تعرف أنها سوف تتقدم إلى التقديس وتنال الانتباه من حركة اليدين حتى لا تقوم بالتقديس والرشم بدون انتباه[1].

## تجسَّد وتأنَّس

ويخبرنا الكاهن ببشارة الإنجيل، وهو خِلقَتُنَا على صورة الله ووجودنا في الفردوس، ثم سقوطنا وطرْدُنا منه ومجيء الأنبياء.

(١) وقد ورد في خولاجي الأنبا بطرس: "واعلم أيها الكاهن أنك تأخذ اللفافة التي على الكأس لترشم بها ذاتك أولًا موقنًا بذلك أنك خادم العهد الجديد بدم ربنا يسوع المسيح، وأنك تأخذ اللفافة وترشم ذاتك؛ لأنه ليس لك سلطان على هذه الكأس، وإنما سلطان هذه الكأس هو دم ربنا يسوع المسيح وصليبه المحيي. وبعد ذلك ترشم إخوتك من الخدام؛ لأنهم مشاركون لك في خدمة هذا السر، ثم الشعب الذين من أجلهم تقام الخدمة. ويتم رشم الخدام قبل الشعب وهو ترتيب ضروري؛ لأن خُدَّام السر يتقدسون أولًا وبعد ذلك الشعب".

هذا هو الأساس الرسولي ودعائم بنيان الأمانة (الإيمان) الأرثوذكسية. ومتى أخبرنا الكاهن بمجيء الأنبياء، فهو لا يقف عند هذا الخبر، بل يبِّشرنا بمجيء الكلمة الابن الوحيد وظهوره المحيي في الجسد من والدة الإله القديسة مريم.

## البخور رائحة حياة الابن المتجسِّد

ويضع البخور بالمستير في الشورية قائلًا: "تجسَّد وتأنَّس" معلِنًا كيف ظهرت رائحةُ حياةٍ طردت رائحة الموت القديم، أي الفساد الذي ورثناه عن آدم.

وأنت يا مَن تشُم رائحة المسيح الذكية الواهبة الحياة، ادفع قلبك بالشكر والحمد؛ لأن الحياة ظهرت وبشارة الخلاص أُعلنت.

## ووضع لنا هذا السر العظيم

ومتى كَمُلَت البشارة بالخبر عن مجيء الرب وظهوره المحيي، ثم ظهوره الثاني للدينونة يصرخ الشعب طالبًا رحمة الرب متهللًا؛ لأن "الرحمة تفتخر على الحكم في الدينونة".

ويشير الكاهن بيديه إلى الخبز، ثم بعد ذلك إلى الكأس، ويترك اللفافتين من يديه على المذبح ويبخِّر يديه على المجمرة ثلاث مرات وهو يشير إلى الصعيدة قائلًا: "ووضع لنا هذا السر العظيم الذي للتقوى" مُعلِنًا ظهوره بالجسد من والدة الإله، وإصعاد جسده بالخبز والخمر حسب وصيته المقدسة.

أمَّا ثلاث مرات؛ فلأن ربنا يسوع المسيح أظهر أنه تجسَّد بثلاثة أفعال ثابتة:

- والفعل الأول: هو ميلاده من العذراء.

- والفعل الثاني: هو موته.

- والفعل الثالث: هو قيامته.

وهذه أفعال الخلاص الثلاثة التي تهب الحياة للذين يطلبونها.

أمَّا وضعُ يديه على البخور؛ فلأن سيدنا ربنا يسوع، وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح قد ظَهَرَتْ حياته النقية رائحةَ بخورٍ سماوي.

والكاهن يضع يديه على البخور لكي يعلِن أنه يخدم هذا السر الفائق، وأنه ليس هو سبب الحياة، بل ربنا يسوع المسيح الذي يعطي النقاوة لكل مَن يطلب.

ويوقد الشمامسة وسائر الخدام شموعًا كثيرة للإنارة، ولكي يفهم الشعب أن نور الحياة قد أشرق.

## وشَكَرَ

وعندما يمسك الكاهن الخبز، يرشم صليبًا واحدًا ويقول: "وشَكَرَ"، معلِنًا أن الشُّكر بعلامة الصليب هو الشُّكر الكامل المقبول لدى الآب، ولدى مسيحه يسوع المسيح ربنا الحَمَل الذي بلا عيب، والروح القدس البارقليط. ورَشْمُ الصليبِ يقوم عِوضًا عن الكلمات مهما كثُرت، ويُظهِر لنا العلاقة غير المُدرَكة بين الآب وابنه يسوع المسيح؛ لأنه لمَّا شَكَرَ الآبَ، قدَّم حياته على الصليب، وبذلك صارت الكلمات ممنوعةً وعاجزةً. وتقدِّم الكنيسةُ القربانَ للآب على هذا الرسم والمثال؛ لأنها تشكر الآبَ بصليب ابنه يسوع المسيح، ويكون الصليب عِوضًا عن الكلمات، ويصبح ختم الشكر والتسبيح.

## وباركه

ويرشم صليبًا ثانيًا قائلًا: "وباركه". والبركة هي زيادة العطايا وقبولها مجانًا، كقول الرب: "مجانًا أخذتم". مجانًا مات على الصليب طوعًا، ولم يدفع أحدٌ شيئًا من المال ولو كَثُر عِوضًا عن موته، بل هو جاء ومات عنَّا، وصار مثل حبة الحنطة التي سقطت في التراب وماتت، كقول معلمنا يوحنا، تكاثرت وأتت ببركة، أي زيادة الأثمار. ولذلك صار الصليبُ هو ختم البركة الذي يوضع على الخبز ليصير متكاثرًا بقوة ربنا وموته وقيامته.

ولمَّا قدَّم ربنا يسوع المسيح ذاته على الصليب، صار جسده المحيي هو خبز الحياة السمائية الذي يتكاثر بقوة الحياة الذاتية التي في الأُقنوم الكلمة المتجسَّد، ولما جعل ذاته طعامًا أخبرنا بهذه الحقيقة بقوله: "أنا هو خبز الحياة الذي نزل من السماء". وكان الخبز الذي أكله الشعب في العتيقة هو "المنّ" الذي انتهى عندما دخلوا أرض كنعان؛ لأنه غير دائم، كما أن كُلَّ مَن أكله مات. أمَّا الكلمة المحيي، فإن كُلَّ مَن يأكله يحيا إلى الأبد. وهكذا تصير قوة الحياة التي فيه والنابعة منه متكاثرة؛ لأنها تُحيي الموتى، وتغفر الخطايا، وتشفي المرضى. ولما صار ربنا خبزًا سمائيًا صارت البيعة تطلبه في أي وقت تشاء حسب استعدادها.

## وقدَّسه

وعند قوله: "وقدَّسه"، يرشم صليبًا ثالثًا. والتقديس هو إملاكٌ وتخصيص. وهكذا من قِبل صليب ربنا يسوع المسيح يصير الخبز صعيدةً مقدسةً للآب الضابط الكل، ويتم قول الرب الإلهي: "من أجلهم أقدِّس ذاتي". وقد قدَّس ذاته بذبيحة نفسه، فصار الصليب ختم التقديس الذي يُوضَع على الخبز لكي يصير جسد ربنا يسوع المسيح بحلول الروح القدس عليه. وهكذا يحل الروح

على الخبز الذي يُوضَع عليه ختم الرب لكي يرتاح الروح على سمة وعلامة وختم المحبة.

وبعض الأقوام في الصعيد يرشمون ذواتهم بعلامة الصليب عند تلاوة الكاهن لكلمات تقديس الخبز والخمر؛ لأنهم -بسبب التقوى- يحسبون ذواتهم واحدًا مع الرب، ولأنهم اعتمدوا لموته ودُفنوا معه في المعمودية، فهم يقرِّبون ذواتهم بعلامة الصليب ذبيحةً حيةً مقبولةً.

## الكأس

وبعد ذلك يمسك الكاهنُ بالكأس، ويرشمه بيده بعلامة الصليب مثل الخبز، ويردد نفس الكلمات. والصلوات على الجسد أولًا، ثم على الدم؛ لأن الدم نَبَعَ من الجسد، ولا دم بدون الجسد.

## شرحٌ آخر قديم

ويحرِّك الكاهنُ الكأسَ نفسه على مثال الصليب، معلنًا أنه بالصليب تم توزيع دم ربنا في أرجاء المسكونة الأربعة[1].

(١) ورد في خولاجي الأنبا بطرس: "ويمر الكاهن بطرف أصبعه على حافة الكأس؛ لأن دم العهد كان يرش مستديرًا على غطاء تابوت الرحمة (العهد) ولكنه الآن لا يُسكب وإنما يعطى لكي ينال منه الخطاة للحياة".

الفصل الخامس عشر

# استدعاء الروح القدس

وعند سجوده يقول بعد ذلك صلوات استدعاء الروح القدس ساجدًا؛ لأن الذي دبَّر السر وأسَّس العهد هو المسيح الذي يرسل روحه القدوس على القرابين. ويطلب الكاهن وهو مطامن رأسه وساجدًا عند المذبح ووجهه إلى أسفل منتظرًا الروح المعزِّي. وإذا وقف، فليقف منحنيًا قائلًا: "وهذا الخبز يجعله جسدًا مقدسًا له"، وينحني أمام الملك ورئيس الكهنة يسوع المسيح. ويرشم الصليب ثلاثَ دفوعٍ قائلًا: "ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح"؛ لأن الذي يقدِّس، إنما هو الرب يسوع المسيح، وبالاعتراف بلاهوته، يجتذب الكاهن الروح القدس الذي يحل معلِنًا أن يسوع المسيح هو الرب.

أمَّا رشم الصليب عند استدعاء الروح القدس، فهو ستة رشومات: ثلاثة على الخبز، وثلاثة على الكأس. والرشومات متساوية في المعنى والعدد؛ لأن الجسد هو بالدم كما أن الدم هو بالجسد. أمَّا الرشومات، فهي سرية لا يجوز فيها الكلام. فالسر الفائق الذي لا يمكن النطق به، يتم تقديسه سريًا.

## رشومات التقديس

**والرشم الأول** للآب الذي وهبنا ابنه الوحيد، فهو الينبوع.

**والرشم الثاني** للابن الذي أعطانا ذاته.

**والرشم الثالث** للروح القدس الذي أعلن وأظهر هذا السر.

وعدم ذِكر أقانيم الثالوث هو ترتيبٌ شائعٌ عندنا؛ لأنه تسليمٌ رسوليٌّ، فصعيدة الكنيسة القاثوليقية (الجامعة) ليس بكثرة الكلام، ولا هي تقوم إلَّا بالثالوث الأقدس. وختم الصليب هو ختم الثالوث؛ لأن الابن الذي ذُبِحَ واشترانا وغسَّلنا بدمه هو ابن الآب، وهو أيضًا الذي تكوَّن جسده في أحشاء العذراء بالروح القدس، وهو سر استدعاء الروح القدس لكي يهبنا جسد ودم الابن الوحيد ... وحيثما صارت ثلاثة صلبان متتالية فهي إشارة صريحة للثالوث.

## استحقاق التناول

ويطلب الكاهن أن يستحق الكل تناول الأسرار. والاستحقاق هو أن يميِّز بالروح القدس أن هذا هو جسد ودم إلهنا يسوع المسيح. والذين يفرزون أنفسهم بدون معرفة من التناول بدعوى عدم الاستحقاق بسبب نقائصَ وضعفاتٍ، هؤلاء مثل المرضى الذي لا يرغبون في تناول الدواء حتى ينالوا الشفاء وبعد ذلك يشربون من الدواء. هذا مرض انعدام الحس الروحي، وكبرياء الخطية الذي يجعل الإنسان لا يرغب في الشفاء ظنًّا منه أنه يُشفي ذاته.

أمَّا إذا ميَّز الإنسانُ أن هذا هو جسد ودم خلاصنا، فالإيمان الذي يزرعه ويسقيه الروح القدس يأخذ الأسرار للحياة. وهذا هو السبب في طلب الاستحقاق من الله.

## الأواشي

وبعض الكهنة يستحسن أن يضع لفافتين على يديه بعد استدعاء الروح القدس[1]، لأنه على جرى عادة كهنة الصعيد يغطون أياديهم؛ لأن النعمة الإلهية سترت عُري آدم، وجعلت الكاهن يقف شفيعًا أمام الرب.

(١) راجع خولاجي المسعودي ص ٣٤٣.

ونحن نقبل الأسرار السمائية غير المائتة بعد شفاعة وتوسل كثير من أجل سلامة البيعة والآباء الروحانيين والمياه والزروع ويختم بالقرابين. هذه الطلبات هي تخوم الخلاص التي لا يتعداها إلَّا الهرطوقي والمنشق والمنافق الذي يقبل الأسرار ولا يحفظ تخوم البيعة.

## المجمع

والصلاة عن الراقدين هي خاتمة الطلبات.

واعلم أننا نذكر الآباء جميعًا ابتداءً من سيدتنا والدة الإله؛ لأنهم جميعًا شركاء الحياة الجديدة، وجلوسٌ على مائدة الرب في أورشليم السماوية، وهم وإن كانوا لا يشتركوا معنا في الذبيحة بمعنى أنهم لا يتناولون مثلنا، إلَّا أنهم قد سبق لهم الاتحاد بالثالوث في سر المعمودية، فصاروا أحياءَ للأبد، وأعضاءَ لا يقوى الموت على فصلها من جسد ربنا يسوع المسيح، أي الكنيسة الجامعة.

وذِكر هؤلاء جميعًا للقدوة الحسنة، ومن أجل أرثوذكسية التعليم الذي حرسوه بأمانة؛ لأنهم شهودٌ صالحون وأحباء الله، وسيرة عذبة حسنة.

ولكننا نقول أيضًا: "إننا نشترك في تذكار القديسين"، والتذكار المقبول هو جسد ودم ربنا يسوع؛ لأنه ليس بالكلام نتذكر، وإنما بالسر المجيد الذي يظهر فيه رأس الجسد، أي ربنا يسوع، وقد ضَمَّ إليه كل الذين في السموات والذين على الأرض. أمَّا الذين في السموات، فهم السعداء الظافرين. أمَّا الذين على الأرض، فهم الذين قُدِّمَتْ عنهم القرابين. وهكذا تصير الحياة الجديدة التي تجمع الكل في وحدة سر الكنيسة هي التي تجعل تذكار الآباء والراقدين واجبة (ضرورية)؛ لأنهم شهودٌ أحياءٌ في أورشليم السماوية. هذا يجعل الكاهن بعد تذكار الآباء يقول: "هؤلاء الذين بصلواتهم وطلباتهم .."، إذ يصير الكل واحدًا هنا، والكل محتاج إلى نعمة ربنا يسوع المسيح، وهو سبب الطلبة.

## البخور بعد المجمع

وكما أننا نشبِّه سر تدبير وتجسُّد ربنا يسوع المسيح بالمجمرة، أي العذراء التي ولدت الله الكلمة بالجسد، هكذا نضع بخورًا تقدمةً وصعيدةً ذكيةً عن الراقدين، ونذكرهم كمَن اضطجع في أحضان والدة الإله القديسة مريم، ونال رائحة الحياة، أي ربنا يسوع المسيح، وهذا هو سر وضع البخور أثناء الترحيم لكي نتشجع بحياة عدم الفساد التي لربنا يسوع المسيح، ونطلب الرحمة بثقة وتتقوى قلوبنا، فلا نرهب الموت، بل تكون لنا شجاعة الحياة الجديدة. ومتى عاينت نفوسنا عدم الفساد الذي ناله الآباء والشهداء وكيف صاروا واحدًا مع والدة الإله في حياة عدم الفساد التي تشعُّ من نار أُلوهية ربنا يسوع والتي صارت فيه بالاتحاد، ننال هبة أمانة وقوة، فلا تغلبنا التجارب ولا تنال من رجاءنا في يسوع المسيح سيدنا.

## شرحٌ آخر قديم

أمَّا عِلة وضع البخور في الترحيم، فهو بشارة القيامة وعدم الفساد التي نالها المتنيحون في أحضان القديسين؛ لأن الكل يُذكر في الترحيم، والكل يقدَّم لله رائحةَ بخورِ عدم الفساد النابعة من اتحاد اللاهوت بناسوت ربنا، وهو الذي تشير إليه المجمرة، وكقولنا في ألحان البيعة إن المجمرة هي والدة الإله، والنار هي أُقنوم ربنا يسوع الذي اتحد بالناسوت أي الفحم، أمَّا البخور، فهو علامة الاتحاد الفائق الذي ملأ المسكونة برائحة الحياة.

ومتى وضعنا البخور في المجمرة عند قولنا: "تجسَّد وتأنَّس"، "ووضع لنا هذا السر العظيم الذي للتقوى"، فإننا نبشِّر بقيامة "الراقدين في يسوع" كقول الرسول بولص .. ونظهِر رائحة عدم الموت واتحادهم بالحياة الظافرة بالبخور الذكي المختار الذي يُوضَع في المجمرة. من أجل ذلك لا يكون لنا

نوحٌ، ولا همٌ، ولا أحزان، بل اشتياقات روحانية لذلك الموضع السماوي سائلين الرب أن يُنعم علينا أن نكمل حياتنا بسلام لكي نناله في نهاية سعينا.

## السلام لجميعكم بلا رشم

وبعد أن يكمل الكاهن بشارة القيامة وبهاء ملكوت ربنا يسوع المسيح هذا الذي ترفعنا الأسرار إلى معاينته، وعند قول الكاهن: "في كل شيء كريم ومبارك مع ربنا يسوع المسيح ابنك الحبيب والروح القدس"، فإنه لا يرشم الشعب بل يخضع مطامنًا رأسه قائلًا: "السلام لجميعكم"؛ لأن رئيس الكهنة ربنا يسوع هو الذي يرشم الشعب، وخضوع الكاهن برأسه يعني إنه هو الخادم الواقف في حضرة الملك العظيم، وإنه هو الذي يخبر بالسلام من عند إله السلام ربنا يسوع المسيح.

الفصل السادس عشر

# تقدمة القسمة[١]

## مقدمة تاريخية

تحتل القسمة مكانةً بارزةً في الطقس القبطي، وهي من أصعب الأجزاء التي نراها في الطقس، وقد تُركت بدون شروحات في أغلب المصادر القديمة. أمَّا الشرح نفسه، فهو في حاجة إلى تحقيق. ولعلنا هنا بعد أن نسجِّل ما وصلنا في المصادر القديمة، نرجو أن يرسل لنا الرب أشخاصًا مثل القمص عبد المسيح صليب المسعودي لكي يحقِّق علميًّا وتاريخيًّا ما هو موجود في آلاف الخولاجيات المنتشرة في أرجاء العالم وكبرى المكتبات. ولذلك ننبه القارئ إلى أن هذا الجزء بالذات يحتاج إلى إضافات ومراجعة، ولم نسجِّل هنا إلَّا ما يبدو أصيلًا وله علاقة بالحس الروحي القبطي[٢].

(١) احتفظنا بالعنوان كما جاء في خولاجي المسعودي ولم نستبدل هذه الكلمة بالكلمة الأخرى مقدمة القسمة التي تظهر في جميع الطبعات الحديثة. وتقدمة القسمة أقرب إلى المعنى؛ لأن التقديم هو تقريب وذبح وإصعاد وليس مجرد بداية. ومع أننا وجدنا أن الإشارات والنصوص الطقسية الخاصة بالكاهن والشماس قد ترجمت إلى اللغة العربية ابتداءً من القرن الثاني عشر ثم أهمل النساخ الأصل القبطي، فضاع ولم يبق لدينا إلا الترجمة العربية، لكن من الثابت أننا عند القسمة نقترب من جزء هام لا يكفي أن يوصف بالمقدمة.

(٢) اشتمل كتاب معاني رشم الصليب في الحياة الروحية وطقوس الكنيسة القبطية في هذا الخصوص على شروح كثيرة لغير سمعان بن كليل، ونظرًا لأهمية هذه الشروح، لم نجد غضاضة في إضافتها هنا إتمامًا للفائدة، فقط أردنا لفت النظر إلى ذلك.

-١-

# المصادر التاريخية السريانية

لم تسجِّل لنا المصادر القبطية شيئًا عن طقس القسمة ومعناه، وما وصلنا من المصادر القبطية العربية قد يكون ترتيبًا قديمًا ضاع أصله القبطي ووصلتنا الترجمة العربية فقط.

من الناحية التاريخية البحتة يمكننا -بالمقارنة بما جاء في المصادر السريانية التي تعود إلى القرن الرابع وما بعده- أن نفهم الكثير عن هذا الجزء الدقيق والصعب في القدَّاس.

أول إشارة إلى رشم الدم والجسد وردت في مواعظ ثيودوريت المصيصي - العظة السادسة عشر، وهي أيضًا العظة الثانية عن القداس، وتعود هذه العظة إلى عام ٣٩٢م قبل ارتقاء ثيودوريت الأسقفية.

"ويقول الكاهن هذه الصلوات بهدوء، وبعدها مباشرة يأخذ الخبز المقدس بيديه وينظر إلى فوق إلى السماء، ويقدم صلاة شكر على هذه العطية العظمى ويكسر الخبز. وبينما يكسر الخبز يصلي من أجل الشعب لكي تحل عليهم نعمة الله ويختم بقوله: "لتكن نعمة ربنا يسوع المسيح معكم". ويجاوبه الشعب بالكلمات المناسبة. وبالخبز يعمل علامة الصليب على الدم وبالدم على الخبز، ثم يوحِّدهما معًا لكي يعلن للكل أنه على الرغم من أنهما عنصرين إلَّا أنهما واحدٌ، لا سيما في القوة، وهما لذكرى الموت والآلام التي حدثت لجسد ربنا عندما سفك دمه على الصليب من أجل الكل.

وعندما يرشم الكاهن علامة الصليب عليهما، فإنه بهذه العلامة يعلن أنهما واحدٌ، ولأن الجسد البشري هو واحدٌ مع دمه، وحيثما يوجد الجسد يوجد الدم أيضًا".

وبعد ذلك يقول ثيودوريت:

"إنه أمرٌ يتفق مع التعليم الصحيح أن نضع الخبز والخمر على المذبح، وأن نشير بذلك إلى ما حدث قبل الموت والقيامة، ثم يرشمهما لكي يؤكد أنهما واحدٌ في القوة، وأنهما يخصَّان الأقنوم الواحد الذي تألم، أي أنهما جسد ودم ربنا الذي سُفِك. ولذلك السبب يقسِّم الكاهن بعد نهاية الأنافورا الخبز ويوحِّده بالدم عند رشمهما بعلامة الصليب. وبعد ذلك يقرِّب الدم من الجسد لكي يعلن أنهما جازا الآلام وأنهما واحدٌ".

وهنا يبدو من الواضح أن هذا الشرح يتفق مع الطقس القبطي كما نمارسه، وكما كان يمارس في القرن الرابع". ويكمل ثيودوريت شرحه ويقول:

"والعادةُ أن يُلقى الخبز المحيي في الكأس لكي يوضِّح أنهما غير منفصلين، وأنهما واحدٌ في القوة، وأنهما يعطيان ذات النعمة لكل مَن يتناول منهما. ولا يقسِّم الكاهنُ الخبزَ إلَّا من أجل هدفٍ واحدٍ، وهو ذكرى يسوع المسيح ربنا الذي ظهر حيًّا بعد قيامته .." (مواعظ ثيودوريت النص السرياني ص ٥٥٧ الترجمة الانجليزية ص ٩٩ – ١٠٠ ترجمة Mingana).

وهكذا يبدو أن الرشم بالدم والجسد ووضع الأسباديقون في الكأس هو وضعٌ قديم حسب شهادة المصادر السريانية. والنقطة الجديرة بالاعتبار هي أن علامة الصليب هي التي تعلِن وحدة الجسد والدم.

وبعد ذلك يظهر في كتاب تاريخ الكنيسة السريانية للمؤرخ السرياني التلمحري (٨٤٥م) قصة الجدل بين البطريرك جرجس (٧٩٠م)، وغيره من

علماء الكنيسة السريانية حول الصيغة اللاهوتية الخاصة بالرشم قبل التناول، وهذا الجدل وإن كان لا يخصُّنا هنا إلَّا أنه يؤكد أن رشم الجسد بالدم والدم بالجسد معروفٌ في الشرق وجزءٌ جوهريٌّ من طقس انطاكية[1].

(١) راجع طقس الكنيسة السريانية وشرحه عند الأب اسحق ساكا: "تفسير القداس بحسب طقس الكنيسة السريانية الأرثوذكسية" بغداد ١٩٦٣ ص ٩٤ - ١٩٨. راجع أيضًا شرح القداس الإلهي لجرجس أسقف العرب، وموسى باركيفا وكلاهما من علماء الكنيسة السريانية، وأيضًا شرح القداس الإلهي لآباء الكنيسة القبطية المنسوب لسمعان بن كليل، وقد أوردنا هذه الشروح في كتابنا: "القداس الإلهي"، القاهرة ٢٠١٣، ص ١٢٥ وما بعدها.

-٢-

# ما استقر في المصادر العربية القبطية

## الحواشي على خولاجي الأنبا بطرس أسقف بابليون

وبعد استدعاء الروح القدس يصبح رشم الجسد والدم منهما وبهما، أي بدون استخدام رشم الصليب، وإنما يُرشم الجسد بالدم والدم بالجسد. وعند قوله: "الأسرار الإلهية غير المائتة ... الجسد المقدس ... والدم الكريم .."، فهو يأخذ من الدم ويرشم به الجسد رشمًا كاملًا من أعلى ومن أسفل؛ لأن نفسه الإنسانية عادت واتحدت بالجسد المصلوب، فقام وبه آثار الصليب عهد محبته الأزلية.

وقد رتَّبت الكنيسة ذلك لمقاومة أبوليناريوس لتعليم الرسل بوجود نفسٍ عاقلةٍ إنسانية في المسيح. هذه النفس حملت بشكل غير مرئي علامات الصليب، أي القوة والظفر وعادت واتحدت بالجسد الذي يحمل -بشكلٍ مرئي- علامات الصليب، ولذلك يُرشم الجسد بالدم رشمًا واحدًا؛ لأن دمه نبع من جسده وفاض من رأسه وقدميه ويديه وجنبه المطعون. ولأن دمه، أي قوة حياة النفس، إنما هو نابع من الجسد، ومن الاتحاد بأقنوم الكلمة المتجسِّد، ولذلك قام حيًا بسبب الاتحاد.

والصليب هو علامة نفسه الإنسانية، أي علامة الحياة والنطق الذي نطق به مُعلنًا كمال محبته. وعندما خَفَضَ رأسه ولَفَظَ نَفْسَهُ صرخ قائلًا: "قد أُكمل"، أي صارت نفْسَهُ هبةً وفديةً عن نفوسنا، كما صار جسده قربانًا وفديةً

عن أجسادنا. وهكذا يصير تكميل القربان المقدس برشم الجسد بالدم، وهذا أول رشم من الذبيحة وبها، معلِنًا الكاهن بذلك أن نفْسَهُ انفصلت عن جسده، إلَّا أن لاهوته لم ينفصل مطلقًا لا من نفسه ولا من جسده. وهكذا صار لكل منهما رغم انفصالهما حياةً نابعةً من أقنوم الكلمة بسبب الاتحاد وحسب تعليم الآباء. ومن أجل هذا الأمر يرشم الكاهن الجسد بالدم معلِنًا اتحاد النفس بالجسد، وأنه جسدٌ حيٌّ ومحيي.

ثم يرشم بعد ذلك الدم بالجسد مُعلِنًا، كما أن نفسه عادت واتحدت بجسده وقام، هكذا حمل جسده النفس المتَّحدة به ودخل بها إلى السماء عينها ليظهر أمام الآب.

ويقول الكاهن: "القُدسات للقديسين"، ويرشم بالجسد والدم رشمًا واحدًا؛ لأن المسيح حمل ناسوته وفتح لنا طريق الأقداس، ودخل بذبيحة ذاته إلى قدس الأقداس. ثم يأخذ الجسد (الأسباديقون) ويبله بالدم ويرشم به الجسد الطاهر رشمًا واحدًا؛ لأن من قِبَل اتحاد النفس بالجسد وحياة عدم الموت، يصير بعد ذلك الرشم بهما معًا بدون انفصال، وبعد أن يرشم الجسد بالأسباديقون، يرشم الدم بالأسباديقون، ويكون الرشم بالجسد (الأسباديقون) والدم منهما وبهما واحدًا.

ويترك الأسباديقون في الكأس حتى يتناول كل المؤمنين؛ لأن الرب بذبيحةٍ واحدةٍ يوزِّع جسده ودمه الواحد على المؤمنين ليصير الكلُّ واحدًا. ومن ثم صارت العادة أن لا يتناول الكاهن الأسباديقون حتى توزيع الأسرار وبعد تناول الشعب كله. أمَّا الأسباديقون فيوضع مقلوبًا؛ لأن الحمل إذا ذُبِحَ في العتيقة كان يُقلب على ظهره لكي يتمكن الكاهن الذي يقرِّبه من ذبحه. ويوضع مقلوبًا لأنه حمل الله الذي عندما ذُبِحَ فاض منه دم حياة لكل العالم.

-٣-

# القربانة، وتقسيم جسد ربنا يسوع المسيح لابن المكين

تذكر حاشية مضافة على كتاب "الحاوي" لابن المكين أن القربانة هي مثال الكنيسة الجامعة، فالربُّ في وسطها (الأسباديقون) وحوله الرسل الاثنا عشر (الاثنا عشر صليبًا في القربانة) وباقي القربانة هم المؤمنون في كل مكان وزمان. وعن تقسيم الجسد تقول الحاشية نفسها:

"وعند قوله وقسَّمه، يقسِّم القربانة من أعلى إلى أسفل؛ لأن ربنا يسوع نزل من السماء وتجسَّد، ويفْرق رأس القربانة وأسفلها، فيصير على مثال الجنين، ويكمِّل بعد ذلك في صلاة القسمة دون أن يفصل من الخلف باقي التقسيم، فتصير على تسعة أجزاء أي كمال الحياة بالصليب والقيامة".

-٤-

# تقسيم الجسد في الطقس الحبشي

حسب استعمال الكنيسة الإثيوبية يوجد في القربانة ٣٣ صليبًا تمثل ٣٣ سنة من حياة المسيح ويضاف إليها ٤ صلبان هي البشائر الأربعة التي تشهد لحياة المسيح التي كُرز بها في أركان المسكونة الأربعة، ويضاف أيضًا ٣ صلبان، أي الإيمان بالثالوث، ليصبح مجموع الصلبان ٤٠ صليب.

وتشرح الكتب الطقسية الإثيوبية المعاصرة تقسيم الجسد على أنه أولًا من أعلى إلى أسفل، أي نزول الابن وتجسُّده عند قول الكاهن: "أخذ خبزًا وقسَّمه". أمَّا باقي الصلبان، فهي تمثل حياة المسيح وبشارته في الجليل واليهودية إلى صعوده وجلوسه عن يمين الآب. ولعل نقطة الاتفاق الأساسية هي أن تجسُّد الابن وحلوله في أحشاء القديسة مريم عند قول الكاهن: "أخذ خبزًا ... وقسَّمه".

وهنا نرى أن الطقس يؤكد إن الإفخارستيا هي جسد ودم حقيقي ليسوع المسيح ربنا.

-٥-

# "القسمة" بحسب كتاب حكمة الآباء المصريين

جسد ربنا يسوع المسيح ودمه الطاهر هما ينبوع حياة أبدية كقول ربنا له المجد "مَن يأكلني يحيا بي". وأيضًا "وأنا أقيمه من الأموات". واعلم أن كل مَن يتمهَّر في الأقوال الإلهية يُدرِكُ كيف يكون ربنا كائنًا في هذا السر الفائق الذي لا يُدرَك إلَّا بالإيمان. ولأنه جاء وتجسَّد من العذراء والدة الإله يأخذ الكاهن القربانة ويضعها على يده اليسرى مثلما حَمَلَ سمعان الكاهن (الشيخ) ربنا عندما جيء به إلى الهيكل لكي يباركه بيده اليمنى، ثم يرشم ثلاثة صلبان. أولًا عند قوله: "وشكر"؛ لكي يكون ختم الصليب هو الشكر السري للآب الذي قدَّمه الابن بحياته وموته المحيي. وثانيًا عند قوله: "وباركه"؛ لأن الذي بارك جسده هو أقنوم الكلمة وجعله خبز الحياة الواهب الحياة للبشرية. وثالثًا عند قوله: "وقسَّمه" يرشم صليبًا؛ لأن الذي وزَّع جسد ربنا في أرجاء المسكونة هو الصليب المحيي، ويفْرق القربانة من أعلى إلى أسفل بدون أن يفصلها، ثم يكمِّل التقسيم، فيظهر الرأس والذَّنَب[1] مؤكِّدًا أنه جاء من السماء وتجسَّد في أحشاء البتول والدة الإله القديسة مريم.

أمَّا علة تقسيم الجسد إلى الثلث والثلثين عند قوله وقسَّمه، فهو لأن ما صنعه الرب في علية صهيون كان قبل موته وقيامته، وهكذا يعلن الكاهن هذا السر بقسمة القربانة إلى الثلث، وترك الباقي بدون تقسيم إلى ما بعد حلول

(١) الذَّنَب أي القدمين وقد وردت هذه الكلمة نفسها في خولاجي البابا غبريال الخامس. نشر الخولاجي كله مركز الدراسات الشرقية للآباء الفرنسيسكان – الموسكي.

الروح القدس؛ لأن ثلث السر قد تأسس بالتجسُّد وفي العلية في صهيون. أمَّا باقي السر، فهو بالصليب والقيامة، وهو ما يعلنه لنا الروح القدس (ربما الإشارة هنا إلى اكتمال السر عند القسمة، والقسمة تتم بعد استدعاء الروح القدس). وهكذا يظل ثلثي الجسد بلا قسمة حتى يأتي الروح القدس وحتى نخبر بموت الرب وبقيامته، فيعلِن لنا الروح القدس أن هذا بالحقيقة هو جسد ربنا يسوع المسيح المحيي. ومن أجل هذا لا يقسَّم ولا يوزَّع إلَّا بعد حلول البارقليط لكي نفهم بالروح القدس حقيقة هذا السر الفائق.

والجسد يقسَّم بدون فصل[1] لأن المسيح يسوع واحدٌ لا ينقسم كقولنا: "نؤمن بربٍّ واحد يسوع المسيح". وبعد أن يتم تقسيم الجسد على شكل ومثال الصليب، يوزِّع الكاهنُ الجسدَ على المتناولين، فلا يُكسَر كُسرًا صغيرةً، بل يأخذ الجوهرة المناسبة ويعطيها للمتناول، فتُكسر عندما تقدَّم للمتناول. هذا استحسان لثبات المعنى الروحي، حيث أننا نشترك في المسيح الواحد، وهو يُعطي لكلٍّ منَّا ميراثه ونصيبه الذي يخصَّه.

وعلى جري عادة الكثيرين، فإن توزيع الجسد يُعطى بعد رشم علامة الصليب، ويضع المتناول يده اليسرى على صدره ويده اليمنى فوقها وهو يحمل فيها اللفافة حتى لا تسقط جوهرةٌ من الجسد على الأرض بسبب الإهمال.

واعلم أيضًا أن صلاة القسمة هي صلاة توزيع النصيب والميراث، وهو المعنى الغالب؛ لأن المسيحَ واحدٌ لا ينقسم، ولكنه يُعطى ميراثًا لكل المتناولين.

---

(١) ورد في خولاجي آخر ويقسم الجسد بدون فصل لأن ربنا يسوع المسيح عندما مات انفصلت نفسه عن جسده ولكن لاهوته لم ينفصل عن نفسه ولا عن جسده. والثلث لأنه مات بعد العشاء والثلثين لأنه قام في اليوم الثالث بعد أن نزل إلى الجحيم، فيكون إعلان السر بتقسيم الجسد دون فصل وتقسيمه إلى ثلث وثلثين.

الفصل السابع عشر

# سِرُّ الكهنوت، وهو خادم جميع الأسرار

واعلم أن خُدام الأسرار، أي الأسقف والقس والشماس، إنما يُقامون لهذه الرُّتب السامية التي تبدأ بقص شعر الشماس القارئ إلى وضع اليد والشرطونية في الكهنوت.

وأول درجات الخدمة هي القارئ الذي يُقام مع غيره من درجات التشمسة (الشماسية) في قداس المؤمنين وبعد صلاة الصلح؛ لأنه يُقام لخدمة المؤمنين فقط ويسهر على رعايتهم. أمَّا الأسقف فيقام بعد الإبركسيس؛ لأنه يقام لرعاية الموعوظين والمؤمنين.

ومتى قُرئت تذكية القارئ وشَهِدَ له الذين قدَّموه، فإن الأسقف يقص شعره من فوق جبهته لزوال مجد العالم، ومن خَلف لأنه لا يعود يضع يده على أي محراث، بل يحرث للرب فقط، ثم من فوق الصدغ اليمين لتقبُّل الإهانات والتحقير، وفوق الصدغ الشمال لأنه يدير الخد الأيسر كقول الرب، ويصير عاملًا بالقول الإلهي الذي يقرأه. ويكمُل بذلك رشم الصليب ودعاء الثالوث القدوس الذي دعاه إلى خدمته.

ولا يُقَصُّ شعر الإيبوذياكون، وإنما يُرشَم ثلاث مرات على جبهته بدون وضع يد؛ لأنه يقام لخدمة البيت وحراسة الأواني والاهتمام بحسن وجمال البيعة. ويدعوه الأرشيدياكون؛ لأنه يخدم معه، بعد الرشم الأول قائلًا للشعب "فلان" إيبوذياكون لبيعة الله المقدسة، آمين دون أن يقول مثل الأسقف

"ندعوك"؛ لأن هذه الكلمة خاصة بالأسقف؛ لأنه هو الذي يكرِّس ويرشم كل رُتب الكهنوت.

ويُرشَم أولًا باسم الآب والابن والروح القدس؛ لأنه يخدم بيت الثالوث ويحرس الأسرار الإلهية.

ويُرشَم رشمًا ثانيًا باسم الابن الوحيد؛ لأنه يقام لخدمة أسراره.

والرشم الثالث للروح القدس الذي يفيض عليه نعمة الخدمة.

ويلبسه البلاريا (البطرشيل) قائلًا ذات الكلمات التي تُقال عند رفع الصعيدة الإلهية وهي: "مجدًا وإكرامًا لاسمك القدوس أيها الآب والابن والروح القدس المساوي. سلامةً وبنيانًا للكنيسة المقدسة". ويكون أنه متى سمع الإيبوذياكون هذه الكلمات في القداس الإلهي، أن يتذكر عند رفع الصعيدة والقربان كيف لبس البلاريا لكي ينال هذه الخدمة المقدسة.

## إقامة الذياكون

أمَّا الذياكون الذي يبدأ أول درجات الكهنوت ويخدم الأرشيدياكون، فيناديه من فوق المذبح طالبًا من الشعب أن يشترك في الصلاة؛ لأن صلاة الشعب هي التي تؤكِّد عزمهم على قبول خدمة دياكونيته. وبعد ذلك يضع الأسقف اليد عليه، وهي أول صلاة لوضع اليد للشرطونية قائلًا: "أيها السيد الرب الإله ضابط الكل الحقيقي غير الكاذب ... أملأه من الروح القدس والحكمة والقوة كما ملأت عبدك أسطفانوس أول الشمامسة ورأس الشهداء المتشبِّه بأوجاع المسيح".

ويوجه نظر المدعو للشرطونية إلى التشبُّه بأسطفانوس؛ لأنه يتقلد خدمته برشم الصليب. ويدعوه الأسقف قائلًا: "قسمنا فلان شماسًا على

المذبح الطاهر الذي للقديس (...) أو الشهيد (...) في كنيسة الله الأرثوذكسية الكائنة بالمدينة أو الكورة ...". وبهذه الكلمات يناديه قائلًا: "باسم الآب والابن الروح القدس. آمين". رشمًا واحدًا على جبهته معلنًا أنه يقام بواسطة الثالوث القدوس، ثم يكرر الكلام معلِنًا شركته في الخدمة الرسولية مع الأسقف بقوله: "ندعوك يا فلان في بيعة الله آمين باسم الابن الوحيد ربنا يسوع المسيح. باسم الروح القدس البارقليط آمين".

ويرشمه مرتين؛ لأنه في المرة الأولى يقيمه الثالوث وهي مثال صيغة التعميد، أي باسم الآب والابن الروح القدس. ويرشمه على جبهته؛ لأنه أقيم في أول درجات الكهنوت ليخدم المذبح السمائي الذي يقع في قسمته[1] وهنا عند ذكر اسم المذبح والبيعة يرشمه "باسم الابن الوحيد رئيس الكهنة وباسم الروح القدس الفاعل في الكهنوت". ثم يضع الأورايون على كتفه الشمال، ويقول: "مجدًا وإكرامًا للثالوث القدوس"؛ لأن الأورايون هو علامة الخدمة ويكمِّل قوله: "سلامًا وبنيانًا للواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية .. كنيسة الله". وهكذا يتقدم ويأخذ الأورايون ويحمله على كتفه الشمال طوال أيام خدمته تشبُّهًا بالمسيح له المجد الذي حمل الصليب وهو خارج من دار الولاية على كتفه الشمال.

## إقامة القس

وإذا كان قد قُسِمَ ذياكونًا يكمِّل الأسقف رسامته قسًا، وإلَّا فليقسم ويناديه الأرشيدياكون من بعد صلاة الأسقف معلِنًا بندائه أنه ينتقل من طقس الشماسية إلى طقس القسيسية، ويبارك الأسقف عليه، ثم يضع يده اليمنى لكي يقام للخدمة، ويصلي طالبًا أن يمتلئ من روح الحكمة، وبعد أن يطلب

(١) الذي يكون من نصيبه.

له ذلك، يقول الأسقف: "ندعوك في كنيسة الله المقدسة قسيسًا". ويرشمه باسم الآب والابن والروح القدس، ويعضده باسم الابن الوحيد، ويباركه باسم الروح القدس ثلاثة رشومات من بعد وضع اليد.

وأمَّا الرشم الأول، فهو دعوةُ الخدمة. والرشم الثاني إقامةٌ بسلطان الصليب. والرشم الثالث تأييدٌ بالروح القدس المعزِّي. ويكون قائمًا لدى الآب بوساطة الابن وبعمل الروح القدس الذي يؤازره في الإنسان الداخلي.

تمت رشومات الصليب في سر الكهنوت.

اذكر عبدك الخاطئ يا رب ناسخ هذه السطور الطاهرة.

وكل من يقرأ، فليقل جيبنيوت لأجل صاحب الكتاب لكي يعوضه الرب عن كل أتعابه ويرزقه ميراث الملكوت، ويشدخ الشيطان تحت أقدامنا بقوة الصليب المحيي لربنا يسوع المسيح.

آمين.